ديسفيرال

نوزت شمدين

رواية

ديسفيرال

نوزت شمدين

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى- سنة 2019

ISBN: 978-9922-608-50-1

لايسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والنشر على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار.

SUMER
Printing, Publishing & Distribution
LUXEMBOURG - 2-c Crauthemerstrooss - L-3334 HELLANGE
+352 671531017

سطور للنشر والتوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492567

Email: bal_alame@yahoo.com

رواية

نوزت شمدين

ديسفيرال

سطور للنشر والتوزيع
سنا للنشر والتوزيع

(القسم الأول)

(1)

مـا أن أعلنت القابلـةُ عفاف تحقُق نبوءتهـا وأن المولود المنتظر ذكرٌ حتى رفع سـليم المُترقِبُ في الخارِج يديهِ إلى الأعلى ثم هبط بهما مُشيراً نحو حشدٍ من الجيران زرعهم الإنتظار منذ ساعات في الحديقة مانحاً الإذن ببدء احتفال اسـتمرار ذرية آل سـعيد، فعـلا الهتافُ وتطايرت الحلـوى فوق الـرؤوس وباشر فريـقٌ مـن المُلتحين إرتـدى أعضاؤه دشـاديش قصيرة أظهرت شـيئاً من سـيقانهم النقرَ بتناغم على دفوف قربوها من وجوههم ورددوا بصوت واحدٍ متوافقٍ مع الإيقاع:

"جاء بعد طول انتظار".

ثـم دبـت الحماسـة في قصـاب الحـي ومسـاعِده فنحرا كبـشي النذر الضخمـين في الباحـة قبـل أن يفرغ الإمام شـجاع الواقِـفُ خلفهما من الدُعـاء، فعـد فِعلتهـما مُخالفة شرعية تسـتوجب التقريع. سـحب الكُم الأيمن لجُبته وعبَّأ الهواء في صدره بشهقة طويلة كما اعتاد قبل كل خطبة أو محاضرة دينية وهمَّ بقراءة حديث نبوي مسـنود يلائم الموقف اِلتقطه بسرعـة مـن ذاكرته، لـولا إنتفاضة مفاجئـة لأحد الكبشـين المذبوحين أطلـق بعـد وثبـة في الهواء رشـة دماء سـاخنة تركزت دفقتهـا على وجه الإمام وثيابه. فارتد إلى الخلف ليتعثر بالكبش الثاني ويسـقط على ظهره في بركة الدماء المتجمعة. سَمِعهُ الجميع يخرج عن وقاره الديني بوابل من الشـتائم إستهدف بها عائلة آل سـعيد. اختتمها وهو يطبع آثار خطواته الحُمر الغاضبة على الأرض متوجها نحو الباب بدعاءٍ تضرع فيه إلى الله بأن يُنزِل لعنته العاجلة على البيت ومولوده المشؤوم.

****

"سِـتُ سـنواتٍ من الانتظار" قال سـليم لزاهدة وهـو يقتربُ من سريرهـا ويمسـح بظاهـر يده دمـوع فرحتـه. ردت بإبتسـامة طافت لحظـات ثم سرعان ماغرقت في ملامح وجهها المُنهك. إعترضت أمهُ الحاجة غنية التي كانت تلفُ الوليد بالقماط:

"بل ست عشرة سنة".

صـدر عن الزوجة أنـين وجع، فيما واصلت الدفـوفُ إحتفالها في الحديقة.

"لو عمِلت بنصيحتي وتزوجت وقتها..."

لم تُكمل الحاجة غنية كلامها. انشغلت بدلاً من ذلك بترديد دُعاءٍ طويـلٍ وحملت الصغير عـلى راحتيها ثم نفخـت في وجهه وناولته إلى والـدهِ. فقرَّبـهُ لصـدره بحُـبٍ ولحيته الكثـة ترتجف من إرباك سـاعة الأبـوة الأولى. قرأ في أذنـه اليُمنى كلماتِ الأذان للصـلاة وإقامتها في الأذن اليُسرى ثم رفع رأسه ليقول شيئاً لكِن أمَّهُ تدخلت بحزم:

"جابر".

فتحـت زاهـدة عينيهـا بذهـول، حركـت رجليهـا تحـت الغطاء. وضعت يداً على فمها ولوحت بالأخرى مُحتجةً. غير أن حماتها تابعت بإصرار:

"نُسميهِ جابِر، على اسم والدي أراحهُ الله في تُربته".

(2)

لم يكن سليم دائما ذلك الشخص الذي إنتهى إليه هادئاً صبوراً، صوتُه الخافت لا يكاد يُسمع وملامحهُ الدقيقة وديعة كطفلٍ عالقٍ في حُلم. فسيرته مليئة بتقلباتٍ وهزاتٍ حياتية عنيفة اضطرته لإتخاذ قرارات مصيرية تبيَّنَ في بعض منها أنها كانت مجرد عقوبات اِنتقامية فرضها بِمحضِ إرادته، بل وقاتل من أجل إيقاعها على نفسه. حياةٌ بمراحل متضادة مارست فيها شخصيته محكومة بالظروف أدواراً متعددة، ستبدو حتما لمن لا يعرفه وكأنها لأشخاص عديدين متصارعين، وليست لواحدٍ عاثر حظٍ وقليل شكوى كما وصفته أمه.

كان الابن الوحيد لعائلة مجيد آل سعيد التي لم يخفف غناها وسكنها في مدينة الموصل من إرتباطِها المغناطيسي بالقرية وتقاليدها. وكان منزلها نسخة مقاربة لمسكن العائلة الكبير في قرية النور، بطابقين وحديقة أمامية وباحة واسعتين وجدران عالية. تحولت حديقته الخلفية إلى حظيرة حافظ التعداد الحيواني فيها على بقرة حلوب سد ضرعُها المنتفخ أفواه الجيران بحصص يومية من الحليب الطازج وأسبوعية من الجُبن. مع قطيعين، الأول لِخرافٍ تم وبنحو دوري تعويض الذاهبة منها لتصبح ولائم للضيوف. وآخر لدجاج مدعوم بديكة ضخمة وملونة فرضت سلطتها الصوتية على الحي بأسره. وإرتفع الدخان مرتين يومياً من تنور الخبز الطيني في سطح المنزل الذي كان أيضاً مشغلا ندفت فيه الخادمات الصوف وعصرن الطماطِم في أوانٍ واسِعة وفرشن عليه الحنطة المسلوقة لتجف تحت أشعة الشمس.

عـاش فترة صباه مُدللا بين أربع شـقيقات (منـال وجميلة وحنان وأفـراح). ونُفذت طلباته حيث أشـار إصبعُ رغبتهِ. ولاسـيما أنه كان نِتاج تجربة إنجاب أخيرة. ومحاولات الحاج مجيد الكثيرة لتعزيز ذُريته بابن آخر عبر زواج ثان أحبِطت بثوراتٍ منزلية عارمة أشعلتها الحاجة غنية لتحافظ على سُلطة مطلقة لم ينزعها منها شيءٌ سوى الخرف، لكن بعد سنوات طويلة.

إعتادت صالة الضيوف في المنزل على الزُحام وإختنقت على الدوام بالأقـارِب والمعـارف ومعظمهـم قرويون وفـدوا إلى المدينـة لملاحقة شـؤونهم الرسـمية. خُصِصـت لمبيتهـم غُـرف الطابق الثـاني الأربع ووضِع أثاثها تحت خدمتهم، ومُدَّتْ لهم بسخاء كبير وجبات الطعام اليومية الثلاث إبرازا للجانب الكريم من شخصية الحاج مجيد لضمان كسـب جولةِ وجاهة في صراعه المعلن مع شقيقه الأكبر عزام، بسبب خِلافٍ على لقب الشيخ، بدأت جذوة صراعه منذ ساعة وفاة والِدهما الأولى. لِـذا كان المنزِل فندقا مفتوح الأبـوابِ ليل نهار للمقيمين فيه، فضلاً عن ثلاث خادمات وحارسـين وسائق، وموظفين يعملون على مدار الساعة في خدمة المسافرين والجائعين ومدمني ثرثرات المجالس. لكن هذا لم يدُم طويلا.

فقـد خيـب القحط الآمـال المعقودة عـلى غلتي القمح والشـعير، ونفقـت بسـببه قُطعـان الماشـية وتراكمـت الديـون عـلى المزارعـين. فاضطـر الحـاج مجيد إلى إتخـاذ تدابير إقتصاديـة عاجلـة لتغطية ديونه المتضخمـة، شـملت بيـع رؤوس الماشـية الناجية والمؤمنـة في حظائِر مستأجرة. وباع مخزنه لبيع الحبوب جنوبي المدينة بما فيه وشاحنتي نقل وسيارته الشـوفرليت ذات السـقف الجلدي وسرّح سائقه الشخصي

والخادمات مع الحارسين. وشملت الاجراءات كذلك ترسانة المنزل من الحيوانات. فاختفت البقرة أولا، تبعتها الخراف ثم سرب الدجاج وديكته. ونتيجة لذلك الإنهيار المالي، تغير اتجاه بوصلة الضيوف ولم يعد باب المنزل يُطرق إلا نادرا. فعاش الحاج مجيد عزلةً إمتدت لنحو ثلاث سنوات، وكان ذلك عُمر القحط وإنحباس الأمطار. بالكاد استطاع خلالها تأمين متطلبات الحياة اليومية بمساعدة من الحاجة غنية التي قدمت إليه مصوغاتها الذهبية والفضية بطقوس حُزنٍ إحتفالية قطعةً فقطعة، باعها لشراء الطعام والوقود وتسديد شيء من ديونه. في كل مرة أخرجت فيها ليرة عثمانية أو خلخالاً او قلادةً أو أسورة أو أقراطاً من كيس القماش المحفوظ في برطمانها الكريستالي داخل صندوق ثيابها الخشبي المطعم بالنُحاس. رفعت ذراعيها ودارت حول نفسها وسط حلقة شكلتها بناتها قائلةً بفخر:

"أية واحدة غيري ما كانت لتفعل هذا. لكن ابنة الأصول يظهر معدنها وقت الشدة".

تلك الظروف أجبرت العائلة على إيقاف طموح سليم الدراسي عِند حدود الصف الرابع إعدادي. ودُفع للعمل بأجر يومي في ورشة حِدادة يملكها شخصٌ أرمني. وكانت تلك بداية خروجه من شرنقة الدلال ليواجه قسوة الحياة. قضى أيامه الأولى في كنس الورشة وتحضير الشاي ومناولة العدد اليدوية للعاملين وإعادة ترتيبها في أمكنتها بحلول نهاية اليوم. ثم أدخِل في أعمال تسخين وطرق الحديد ولِحامه. وصار يعود إلى المنزل ويداه متورمتان تغطيانهما القروح والدمامل. فتدهنهما له أمه بالعسل وطحينية السمسم. ويُعلق الحاج مجيد على ذلك المشهد بفخر ويده تمسد شاربه الكث والمقوَّس مثل حدوة:

"ابنُك صار رجلاً يا غنية".

إحتاج سـليم إلى أقل من سـنتين ليكتسـب الخشـونة التي يتطلبها التعامـل مع الحديـد بمهارة وليجـد التِرحاب والدعـم اللازمين من زملائـه العُـمال في ذاتِ الورشـة والأخـرى المجاورة لها. إذ قاسـموه معلوماتهم المهنية وأشركوه في جولات مجونهم المنفلتة. وأصبح يقضي معهم نهار عملٍ شـاقٍ يصب فيه الكثير من العرق ويكافئ نفسـه ليلاً بمرافقهم إلى بيوت الدعارة والمراقص. ويوماً بعد آخر أصبح الفِلسُ لا يُعمـر في جيبه وتحولت نزوته إلى إدمان وأخذ المُحسِـنونَ يلتقِطونهُ من الأرصفة والشـوارع التي يُلقيه سُكرهُ عليها ويوصلونه إلى البيت غارقاً في النوم وسابحاً في القيء.

إرتفـاع مسـتوى فحولـة سـليم كان مـؤشراً عـلى ضرورة تزويجه بحسـب قناعة والده ويقينه بأن ذلك سـيوقفه أيضاً عن معاقرة الخمر ومعاشرة أبناء الشـوارع وبناتها. وتوجب عليـه تصحيح خطأ إبعاده عن مدى سيطرته، فجعله يترك عمل الحِدادة وألحقه بجولات متابعته لإعـمال أرضه الزراعية الواسـعة في القرية بما يكفـي لزراعة محاصيل عدة، وكانت قد تعافت بموسم ماطرٍ بشَّر بنهاية سنوات الجدب.

شـهد بذلك إنتقالتـه الحياتية الثانيـة. وهذه المرة مـن فضاء حرية واسع إلى ضيق المجالس القبلية وطوق أبيه الرقابي الخانق. لكنه إعتاد ذلك على الرغم من المعارضة الداخلية غير المعلنة. وشـيئاً فشيئًا أخذ توقـهُ لليـالي الخُمر الضاجة بقـرع الكؤوس وضحـكات بنات الهوى يختفي. ليحِل محله الرضوخ لإجراءات نحت شخصيته لتشابِهَ أباه بما فرضه عليه من ملازمة فردية وإصطحاب إجباري لحضور جلسـات

دينية توجيهية، تم التركيز فيها عمداً على الجانب الترهيبي لقشط بقايا نزوته السرطانية من دماغه.

وعندما تعافى أُطلق مثل عصفورٍ من حبسه. منحهُ الحاج مجيد حُرية الحركـةِ خارج نطاق بـصره وجعله يتردد منفرداً عـلى قرية النور التي تبعُد عن المدينة زهاء سـاعة بالسـيارة للإشراف عـلى حرث الأرض وبذارهـا ومن ثم تسـميدها وجنـي المحاصيل ومعاينة قطيع الماشـية المتنامـي بخصوبـة مُبهِرة عللتها أمه على الـدوام بأنها بركة مصوغاتها التي بيعت في زمن القحط.

اعتمـر سـليم خـوذة فلينيـة وقتـه مـن حـرارة الشـمس اللاهبـة خـلال قيامه بمهامـه وتحركه بين الفلاحين وتعاملـه مع تجار الحبوب وأصحـاب المطاحن، وكان معظمهم يرتدون الغُترات. لذا عُرف بين أهالي القرية بأبي فلينة، وقد أسعده اللقب لأنه حصل أخيراً على شيء ميَّزه عن والده.

أقـام خلال فـترات ذروة العمـل في خيمة صغيرة نصبهـا بِجانب الحقل وسـط تجاهل تام من عمـه وعدم إكـتراث متعمدين مع أوامر صارمـة لعائِلتـه والفلاحـين العاملين معـه بالمقاطعة التامـة. ولم يكد ينتهـي حُزيـرانُ من ذلك العام حتـى وقع المكتوب الـذي لا مفر منه وأختبر قلبهُ خفقة الحُب الأولى التي بدأت معها رحلة عِشقه المضنية. كان منهمكاً سـاعتها بمتابعة جمع الفلاحين للقمح في آخر شِـوالات الموسـم، حين سَمِع صوتاً أنثوياً يُمشط بعذوبتهِ أرجاء البيدر. إلتفت ليجـد فتـاةً تتناغم حركـة عصاها مع لحـن أغنية الحصـاد تصدح بها مُشـجعة مجموعة مـن الفتيات يُرافقن رتلاً مـن الحمير، على ظهورها

حمـالات كبـيرة مـن التبن. في لحظـة خاطِفـة إلتقت نظراتُهـما. توقف بـه الزمـن وهو إزاء عينين سـوداوين واسـعتين محاطتـين بهالة بياض ووجنتـين داخ من حلاوتِهما. تسـمر في مكانه والموكب يمر بغباره ولم يكُن يسمعُ شيئا من حوله سوى صوتها الحالم يتسرب إلى روحه حتى إمتلأت به.

مـدد وبنحـو مفاجئ إقامتـه في القريـة بحجـة الأشراف على جمع مـا أفلتته المناجل من السـنابل ودعا الرعاة ليكنسـوا الحقل بِخرافهم النهمـة وتـولى هو في النهايـة حرق المتبقـي. وهي أعـمال ختامية كان بوسع أي من صبيان القرية القيام بها مقابل دِرهم واحد. لكنها كانت ذريعتَـه للبقاء ورصد أي تحرك أنثوي في الجوار عله يحظى برؤية تلك الفتـاة مرة أخـرى. فراح يُدقِـقُ في العُيون بخفة قبـل أن يزرع نظراته في الأرض امتثـالا لتقاليد الأدب في حضرة النسـاء. وتتبع الخُطوات دون أن يلفت الأنظار إليه واسـترق السمع خلال مروره بالتجمعات النسوية وقارن النبرات الصوتية التي اقتنصها مع التي ظلت نسختها تتردد في رأسه.

مر أسبوعان من تموز الحارق وأخذ اليأس من رؤيتها يسيطر عليه، وعتابـه لنفسـه يزداد بسـبب عدم مراقبتـه لها ذلك اليـوم ليعرف على الأقـل إلى أين سـينتهي بها المطاف، في بيت من بيـوت القرية ذاتها، أم في القرى الكثيرة المزروعة على مسـافات متباعدة حول المكان؟. كان سـيركز جهد تقصيه على منطقة بعينها بدلاً من مسـاحة التيه الواسعة التي وجد نفسه ضائِعاً فيها.

"نـادِراً مـا تلفـظ بيـوت الطين مـا تبتلعـه من نسـاء. هـن يغطين

وجوههـن خلال تنقلهن في تلك الأنحاء، حيـاءً أمام الغرباء أو إتقاءً للشمس والأتربة".

كانت هذه أجوبة لأسـئلته غير المباشرة التي دسـها في حواراته مع عمالـه وفلاحيـه. مع وعي تام بمخاطر اسـتمراره في التحديق بنسـاء القرية مثل مراهق، فقد تكون النتيجة مأساة دموية غسلاً للعار يكون هو ضحيتها لمجرد نظرة أو هفوة كلامية.

صبـاح يوم مغادرته وكان الأربعاء، إبتلعـت عاصفة تُرابية المكان بـأسره وأصبح مـدى البصر محـدوداً. وضع حقيبته الجلدية السـمينة بالثياب والأدوات الشـخصية إلى جانبه خـارج خيمته وراجع للمرة الأخـيرة قـراره الإضطراري بترك الحقـل والقرية والعـودة إليهما مع أول أمطار الموسم التالي من أجل حراثة الأرض.

"قد يحدث ذلك في الخريف أو رُبما يتأخر حتى الشتاء"

قال هذا لنفسـه بأسف، لأنه لن يجد فرصة لرؤية الفتاة قبل ذلك. وشـعر بالضيـق أكثر حين طرأ في بالـه أن يوم مشـاهدته لها قد يكون الوحيـد الذي تخرج فيه من المنزل خلال السـنة برمتها. خلعت الريح قُبعتـه الفلينية عن رأسـه وقذفتها مثل صحن طائـرٍ لتختفي في جدار الغبار.

"هل يعقل هذا؟ " قال بحدة ضاربا برجله الأرض:

"سنة كاملة لا تخرج فيها إلا مرة واحدة فقط؟!!".

وبـشيء من الإذعان حمل الحقيبة وما هي إلا خُطوات قليلة قطعها للوصول إلى سيارته حتى سَمِع صوتها. كان يظهر ويختفي بين صوتين

أنثويين آخرين. لكنه ميزه على الفور وسـار منجذبا ناحيته كغارق في حلـم، وقلبه يدق بعنف. فوجئت الفتيات الثلاثُ بشـبحه المنبثق عن الغبار أمامهن. إثنتانٍ منهن غطتا وجهيهما بِحركة موحدة سريعة، فيما شـل الذهول الثالثة وبقي طرفُ غطاء رأسـها يُرفرِف في يدها. حثتها إحداهُن:

"تحركي زاهدة. هذا ليس وقتاً للشرود".

"زاهدة، زاهدة، زاهدة ....". ظل يُردد اسـمها بهمس. نسـخه في ذهنه مرة تلو مرة خوفاً من فقدانه، بينما مشت به رجلاه خلفهن تاركاً مسـافة فاصلة بالكاد ميز خلالها أخيلتهن التي ماجت في عُمق الغُبار متوجهات نحو قرية النور.

أدرك مـع نبـاح الكلاب المتصاعد أنـه دخل حـدود القرية، فأبطأ قليـلاً محـاولا التفكـير بذريعـة مناسـبة لتواجـده إذا مـا رصدته عين ذكوريـة. تعثر بحفرة وغاصت رِجله في بركة صغيرة آسـنة. وكاد أن يفقد خط سـير الفتيات حين إختفين فجأة ومشـى دقائق دون أن يجد أمامه سوى نفقٍ غُباريٍّ جدرانه بيوت الطين. وشاء الحظ وربما غريزة ما أن ينعطف يسـاراً حيثُ شـاهدهُن يجتزن لتوهن بوابة كبيرة إرتفع خلفهـا طابقا بناء المنزل الكونكريتـي الوحيد في القرية والذي لم يُكن سِوى بيت عمه الشيخ عزام.

(3)

صباح الجمعة، كانت الحاجة غنية في المطبخ محاطة بأكوام من الباذنجان والقرع الأخضر والطماطم والبصل وورق العِنب حين أمطرها سليم بوابل أسئلته التمشيطية بهدف تشتيت ذهنها قبل توجيه سؤاله الأهم. بدأ بالإستعلام عن أحوال خالاته وأخواله متذرعاً بإكتشافه الحسي الجديد بأن سِلك حنان غير مرئي يربط المرء بأشقاء الأم وشقيقاتها. واستثماراً لانبهارها برجحان العقل الطارئ الذي ظهر على ابنها الوحيد، طلب منها تحديث معلوماته بشأن الأوضاع الإجتماعية لبناتهم. خلطت الرز باللحم المفروم داخل وعاء بلاستيكي كبير وراحت ترد على أسئلته بحماسة، وفي عينيها التماعة فرح لحديثها النادر معه عن قريباتها اللواتي اعتادت على التباهي بجمالهن الرباني وأخلاقهن الرفيعة، بخلاف نساء آل سعيد ذوات الأنوف والألسن الطويلة.

"استأصِلوا النساء فإن العرق دساس" قالت وهي تفرغ جوف باذنجانة وأردفت متباهية:

"أنا مثلاً تحملت كل الظروف من أجل الحصول على رضا والدك والبقاء على طاعته. لم تغيرني حياتي معه والخدم يجوبون بيتي إمتثالاً لأوامري. ولا عندما إمتحننا الله بخسارة أملاكنا".

"هل تعرف ماذا فعلت؟" سألته وهي تملأ الباذنجانة بخليط الرز واللحم.

"قدمت له كل ما أملك من حلي ليبيعها. وكُنت مستعدة للخروج

والعمـل بنفـسي للتخفيف مـن محنتنا. كـما رفضت إعـادة الخدم بعد تحسـن أمورنا لكي لاتؤخذ النعمة منا مجدداً. هكذا تربينا في بيت أبي، وهكـذا هن شـقيقاتي وبناتهن. ويكفـي أنني أنجبتك لـه، في حين أن أخاه عزام ذا الرأس الكبير لم يرزق من زوجتيه إلا بناتاً".

"هل تذكرين أسماء بنات عمي عزام؟". باغتها سائلاً.

بصقـت في ثوبها، وضربت خدها بباطن كفها فالتصق به شيء من خليط الرز واللحم. قالت بذعر:

"ولماذا تريد معرفة أسمائهن؟".

"صلـةُ الرَحِـم يـا أمي. أليـس مَعيبـا أن لا أعرف شـيئاً عن بنات عمي؟".

تناولت قرعة. قطعت رأسها بخفة قبل أن تشير له بالسكين:

"صِلـة الرحـم مقطوعة منـذ زمن بعيـد. الجميع يعـرف هذا ولن يسألك أحدٌ عن شيء"

"الأمر يتعلق بي أنا. أريدُ معرفة أسمائِهن في الأقل".

"لا أدري إن كانـت الدولـة سـتكفي شـقيقاتك وأطفالهـن؟ فهم جائعون على الدوام ولا يشـبعون أبداً"، ذكرت الحاجة غنية متجاهلة وبدأت بلف ورقة عنب.

قال بخبث:

"سأبدو مهتماً كثيراً لو سألت أحداً ما من القرية!".

دفنت إصبع ورق العنب في قدر كبير بجوارها. فكرت قليلاً:

"زوجته الأولى التي تشبه قلم الرصاص أنجبت أربع بناتٍ، والثانية لم تخلف لهُ سوى مصاريف الأطباء والمستشفيات واتضح كما سمعت بأنها عقيم".

بصقت في ثوبها مجددا:

"الحمد لله الذي عافانا".

"حسنٌ" قال سليم وهو يمد لها حبتي طماطم:

"ما أسماء بنات قلم الرصاص؟".

تأففت بعد أن ألقت نظرة على الساعة المعلقة بالجدار فوقه:

"سيأتون بعد قليل وأنا لم أكمل بعد".

"أمي؟".

"فهمت، فهمت" أجابت بحدة.

"الكبيرة أسمها ميعاد والثانية واجدة والتي بمثل عمرك اسمها سعاد. أما الأصغر منها ..."

تفتتت ورقة العنب بين يديها، فأفرغت حشوتها في الوعاء وسحبت ورقة أخرى. ثم أكملت بعد تردد:

"زاهدة"

(4)

تصدى سليم لمحاولات أمه العديدة لتزويجه متذرعاً بالحرب التي إندلعـت مع إيران وأن خدمتـهُ كجُندي حراسـة في صومعة الحبوب الحكومية بتوسط من والده مؤقتة، وقد يذهب إلى الجبهة في أي وقت ويعـود منها ملفوفاً بالعلم. لكـن ذلك لم ينطلِ عليها، وقامت بإجراء وِقائـي لمواجهـة ميلـه العاطفـي الممنوع نحـو قرية النـور، وعرضت الخيـارات المتاحـة من قريباتها أمامه، مع أسـهاب وصفـي ومبالغات في مـا يخص الجمال. وعندما قابـل إلحاحها بعناد تـام، جندت خاطِبة مُتمرسـة وبناتهـا وذاكـرة النسـاء من جيرانهـا ومعارفهـا للعثور على عروس مناسـبة. فواجه ذلـك أيضاً بالرفض متذرعـاً بالعرف القبلي الشـفهي الذي ينص على ضرورة الإقتران بذوات القربى جهة الآباء من أجل تمتين الأواصر ووصل الأرحام. وكان الحاج مجيد يغير مسار ضغط تدخله كلما جوبه بهذه الحجة ويفتح الخيارات كلها بشأن بنات أولاد عمومتـه. دون أن يـرد في باله بأن ولده يسـتهدف إبنة شـقيقه، عدوه الوحيد.

في الشـتاء، أعلـن بتصميم لا رجعة فيه أنه لـن يتزوج إلا أبنة عمه زاهدة وأنه مسـتعد للعيش معها في خيمة بالحقل على الزواج بواحدة ليسـت من لحمه ودمه. وأدخل وسـط مقاطعة تامة من والدته أقرباء ومعـارفَ وتجاراً ليتوسـطوا لدى أبيه. وبعد جهد اسـتمر أسـبوعين وأربع جلسـات تفاوض خفف الحاج مجيـد من لهجة عناده وفتح ممراً للسـلام بعد التوصل إلى أن ذلك الزواج سـيؤدي إلى إبقاء أملاك آلـ

سعيد محفوظة، وسيمنع دخول الغرباء والطامعين ضمن العائلة. مقابل شرط وحيد أمسك شاربه أمام الجميع وأقسم بأن الزواج لن يتم دون التقيد به. وهو إبقاء المقاطعة بينه وبين شقيقه سارية وأن ينوب عنهما في إبرام عقد النكاح وكيلان مُختاران.

ومع أول زخات أمطار ربيع 1981 حاول وفدٌ من شيوخ العشائر ووجهائها تليين قلب الشيخ عزام في مضيفه بالقرية، حيث امتنع أعضاؤه عن شرب القهوة إلا بعد موافقته على ما جاؤوا من أجله. غير أنه رد عليهم بقصيدة رفض حماسية وطلب منهم أخذ العطايا والهدايا التي أتوا بها وعدم الخوض معه مجدداً في سيرة شقيقه الذي عده ميتاً بالنسبة إليه ولعائلته وسحب ذلك على ابنه أيضاً.

قضى سليم فصل الصيف ممنوعاً من بلوغ القرية بتوصية أمنيَّة من الوفد العشائري، فقام الفلاحون وإعتمادا على مروءتهم بحصد المحاصيل وخزن قسم منها وبيع الفائض للصوامع. في غضون ذلك تم تشكيل وفد من وجهاء مدينة الموصل ضم تجار حبوب وموظفين من دائرة الزراعة لإجراء مباحثات خطبة ثانية في قرية النور مطلع الخريف. إحتاج أعضاؤه بسبب قلة خبرتهم في الشؤون العشائرية إلى مُترجم من القرية يشرح لهم معاني كلمات تضمنتها قصيدة ألقاها الشيخ عزام وهو ينتفض غضبا في المضيف وسط دهشتهم. وعلموا متأخراً بأنهم إرتكبوا خطأً عرفيا فادحا عندما سألوه عن المبلغ الذي يطلبه لتسوية الأمر. فهرعوا يركضون نحو سياراتهم دون أن تمنحهم بندقية البرنو الطويلة التي تناولها من الحائط وقتاً للاعتذار أو شرب القهوة.

بعـد مرور سـنة كاملـة وترسـخ القناعة التامـة باسـتحالة موافقة الشـيخ عـزام على الـزواج. أعلن الحاج مجيد خلال جلسـة عشـائرية طارئة عقدت في قرية السعف المجاورة لقرية النور حضرها حشد من شـيوخ وزعماء القبائل، عن فرض حظر زواجٍ على ابنة شـقيقه زاهدة ونهـي إقترانهـا إلا مـن ابنـه، وتوعد المخالِـفً بإعلان حـرب وإراقة الكثير من الدماء.

وكادت تلك الحرب أن تقع مرتين في الأقل خلال السنوات الستِ الأولى من الحظر الذي استمر تسع سنوات. فبعد ورود معلومات من مخبريـن مدفوعي الأجر في القرية أفادت بعقد إجتماع خُطبة أبدى فيه الشـيخ عزام موافقته المبدئية على زواج زاهدة بشاب من قُرى الحضر جنوبي محافظة نينوى. اسـتأجر سليم نخوة مجموعة من زملائه الجنود وحمالين من سـوق الحبوب. ذهب رتلُ سـيارات بيك آب مكتظ بهم إلى الحـضر وهم بكامل معنوياتهم بسـبب الأجور التي تلقوها ووعد بمكافأة عِند النصر. فيما كانت بندقية البرنو التي اسـتعارها من والده في حِجـره وأصبعه على الزناد طـوال الطريق. وهناك تم تحكيم العقل بعد نقاش سريع مع ذوي الشـاب. وبدلاً من معركة كانت وشـيكة، نُحِـرت خِراف الصُلح وأطلقـت رصاصات الفـرح في الهواء. وعاد سـليم مع جيشـه الصغـير إلى المدينة رافعـاً وهو على ظهـر البيك آب أصبعي النصر والبرنو المعلقة على كتفه تتمايل بسلام.

بعدهـا بسـنتين وثلاثة أشـهر. وصلت الحـاج مجيد نميمـة عاجلة مـن القريـة بوجـود أتفـاق سري على تزويـج زاهدة بشـخص وضع للتـو النجمة الثانية عـلى كتفه ضابطاً في الجيش، صنف المشـاة. وبعد

ثلاثة أيام تقصي استدل سليم على الثكنة العسكرية التي يخدم فيها غريمهُ في أطراف بغداد. دخل معه في شجار بالسلاح الأبيض عند باب النظام، تلقى خلالها ضرباتٍ عديدة بكعوب بنادق وبساطيل جنود الثكنة الذين استقتلوا في الدفاع عن قائدهم وسحبه من تحته. وبعد أن عولجت جراحه وتم تجبير كسرين في ذراعه اليسرى وقدمه اليمنى وأعيد أنفهُ إلى مكانه نُقل من المستشفى إلى موقف التسفيرات تمهيداً لإحالته للتحقيق بتهمة إعتدائه على ضابط خلال تأديته لواجبه والبلاد في حالة حرب. وبسبب تدخلات عشائرية هددت بعواقب وخيمة من جهة، ومبلغ مالي جبراً للخواطر من جِهة أخرى تنازل الضابط عن شكواه القضائية وعن فكرة الإقتران بزاهدة. فعاد سليم إلى الموصل ملفوفاً بالضمادات الطبية، لكن مزهوا بالنصر في حملة دفاعه المقدسة عن حبيبة قلبه.

(5)

خلال سنوات نهي زواجها التسع . لم تشعر زاهدة بالعداء اتجاه ابن عمها، على الرغم من التعبئة المنزلية التي استهدفت سيرته ليل نهار من أجل ترسيخ حالة الكره التي تتطلبها ظروف مشابهة. بل كانت تحاول الاحتفاظ بملامحه في ذاكِرتها وتشكِّل منها صوراً في ليال شوق نبضَ فيها قلبُها حُباً لفارس أحلامها أبي فلينة الذي يُقاتل العالم بأسره من أجل الحصول عليها مع خوف لم يفارقها من أن يتسبب ذلك العشق الجنوني بكارثة. حمَّلت في صميمها والِدَها المسؤولية، لأنه كان يستخدمها في صراعه القديم المتجدد مع أخيه. ولم تكن ترى، دون أن تجرؤ على قول ذلك لأحد، أي مبرر له سوى كرامة زائفة ومظاهر لم تجلب سوى أناسٍ منافقين وجائعين للطعام والحديث إلى المنزل.

"لو أنه فكر بسؤالي. لو منحني الخيار فقط، لاخترت أبا فلينة على الفور. لأنه يُحبُني بكل بساطة" قالت هذا لنفسها في مرايا المنزل بعيداً عن آذان شقيقتيها مُبقية عتابها في جوفها ومكتفية بمراقبة ما يجري دون أن تبدي ولا حتى ملاحظة واحدة.

وعندما بلغت السابعة والعشرين من العمر والذي يُعد من وجهة النظر القروية سن عنوسة. لم تُعر أهمية إلى أنها البنت الوحيدة التي بقيت معلقة مثل تميمة في البيت، بعد زواج شقيقاتها الثلاث وإنجابِهن بخصوبة أرنبية الطِفل تِلو الآخر. كما لم تعترض قبلها على قرار أبيها بمنعها التام من الخروج بسبب ألسِنة الناس الطويلة وعيونهم المريضة. وأخذت تقتُل ساعات السجن المنزلية الثقيلة بالخياطة والتطريز والقيام بالواجبات الداخلية نيابة عن أمها وزوجة

أبيها، ولا شيء في ذهنها سـوى لقاءيها اليتيمـين الخاطفين بابن عمها ومشـاهد حُلمية يظهر فيها جميعا فارسـاً مغواراً، في عينيه نظرة عشق وفي يده مفتاح تحريرها وأخذها إلى عالم حُبه الفسيح.

(6)

مع إعـلان إنتهاء حرب البلاد مع التحالـف الدولي في الثالث من آذار 1991، بعد أسـابيع من الموت ولافتاته السود التي عُلِقت في كل مـكان. جن جنون الناس وخرجوا إلى شـوارع المدن والقرى يُعبرون عن فرحتهم بالرقص وإطلاق النار في الهواء. حمل الشـيخ عزام ظهر ذلك اليوم بندقيته البرنو ووقف وسـط حلقة رقص شكلها القرويون وداروا بها قبالة منزله لكنه سـقط فجأة على الأرض صريعاً برصاصة ثقبـت جبهته. قالت الشرطة في تقريرهـا الذي أغلقت به القضية بعد تحقيق قصير أنها طائشـة ويسـتحيل معرفة البندقية التي أطلقت منها. فقيدت الأمر ضد مجهول وتم إعتبار الشـيخ القتيل بموجب مرسـوم حكومي شهيد يوم النصر.

ورث الحاج مجيد لقب شـيخ من شقيقه بعد دفنه مباشرة. وأقام له عـزاءً مهيباً في مدخل القرية. نصـب خيمتين متقابلتين طول الواحِدة خمسون متراً، احتشد فيهما مئات المعزين. وأمر بنحر قطيع من الخراف وعجلين سـمينين وتدوير الموائد الممـدودة بقصعات لحومها وإبقائها متاحـة أمام جوع الفقراء. وقف على رجليه ثلاثة أيام متتالية يسـتقبل المُعزين ويودعهم. رفع معهم كفيه للدعاء وقراءة سورة الفاتحة ودس بين حينٍ وآخر إشـارات في حواراته الجانبية دلت على مواقفه التي لا تصدر إلا عن شـيخ حقيقي. وتفاخر مرات عديدة وسـبابتهُ تُداعب طرف شاربه:

"هل كان ليفعل هذا رحمه الله لو كنت أنا المتوفي".

بعـد إنقضاء أشـهر الحـزن السـتة الأولى عـلى وفاة الشـيخ عزام.

رضخت زوجته الأولى شـمس للواقع وأرسـلت سراً من يخبر الشيخ مجيد بموافقتها على زواج زاهدة من سليم. وعبثاً حاولت الحاجة غنية تمديـد فترة المقاطعة بحجة عدم مرور سـنة على وفـاة والد العروس. غير أنها استسلمت في النهاية أمام عناد ابنها وإصراره وتم عقد القران بتكتم شديد بعيداً عن أعين الأقرباء وفضول القرويين.

(7)

وضعت الحاجة غنية يديها على خصرها وسارت في غرفة المعيشة جيئة وذهاباً كأنها تؤدي رقصة مجهولة صامتة. قال لها الشيخ مجيد وبيده مقص صغير لتشذيب الشوارب:

"كان سيتزوج على أية حال إن لم تكن زاهدة فغيرها".

وقرب وجهه إلى مرآة دائرية أسندها بزجاج النافذة، بينما كان سليم ممسكاً بيد زاهدة وهما جالسان على الأرض ينتظران سماع شروط أمه غير القابلة للنقاش تدعيماً لسلطتها المنزلية المهددة.

"ستقومين بالواجبات اليومية من كنس وشطف للأرضيات وغسل للثياب وإعداد الطعام بموجب مواعيد أحددها أنا".

حركت زاهدة رأسها موافقةً وسليم يشد على يدها. أشارت إليها الحاجة غنية بإصبعها دون أن تنظر إليها:

"تزورين أمك شمس في العيدين الصغير والكبير فقط ولا أحد من ذريتنا يدخل منزلها الآن ومستقبلاً".

كان الشيخ يتابع زوجته من خلال المرآة، والمقص قريب من أنفه، عندما توقفت وراءه فجأة مفتشة عن عينيه:

"ليكن في معلوم الجميع، بيتي لن يستقبل زيارات من القرية أبداً".

طقطق المقص بسرعة فوق شارب الشيخ. وجاء صوت سليم من الخلف مستسلما ومطيعا:

"كما تشائين يا أمي".

(8)

تعلمت زاهدة ومنذ يوم زواجها الأول تجنب استخدام كلمات الرفض في تعاملها مع حماتها التي كانت تُبقي رجلها باستمرار على خط الانطلاق متأهبة للدخول في مشاجرة. وفضلاً عن التزاماتها كزوجة قامت بأداء مهام البيت بإنضباط جندي، مضيفةً أعمالاً تطوعية أخرى كخياطة الثياب وترتيقها وتطريز المفروشات والوسائد ونقشها بأسراب من الطيور الملونة، وتصليح الأثاث القديم وإعادته إلى الخدمة، وتنظيم غرف الطابق الثاني الأربع غير المشغولة بنحو دوري وطلاء الأبواب الخشبية وسد ثقوب وشقوق الأرضيات والجدران بالإسمنت. وفي الربيع ملأت الزوايا بأصص نباتات الظل وقلمت الأشجار في الحديقة ونظفت مراوح السقوف بعد أن أنزلتها إلى الأرض ثم علقتها بنفسها. وفي تلك الليلة بالذات كانت واقفة على كرسي خشبي تعلق مروحة المطبخ عندما أحست بآلام شديدة في كتفيها، فعزاها سليم للجهد العضلي الذي بذلته. لكن في الصباح انتقلت الآلام إلى جميع أنحاء جسمها قبل أن تتركز في بطنها وأخذت تصرخ وتتلوى على أرضية غرفة النوم فاستنجدت الحاجة غنية بجارتها القابلة المأذونة عفاف. وبعد معاينة استغرقت دقائق قليلة خرجت وكفاها مغطيتان بدماء زاهدة لتؤكد تعرضها لحالة إجهاض رجحت سببه رفعها لشيء لم يصمد حملها الضعيف إزاء ثقله.

دخل المنزل في نوبة حزن. شعرت خلالها الحاجة غنية بتأنيب ضمير لم تُفصِح عنه بالكلمات، لكن استدل عليه الجميع من خلال تبدل طِباعها وهدوء غير معتاد طغى على تصرفاتها. فأسهمت

بحنـان أظهرته للمـرة الأولى بخروج زاهدة من حالـة الإكتئاب التي غرقـت فيها بعد فقدانها لجنينها. وتقاسـمت معها لاحقاً أعمال المنزل وسمحت لها بزيارة إستثنائية واحدة لأمها قبل حلول العيد. فيما التزم سـليم جامع الحي القريب يؤدي فيه الصلوات الخمس ويتلقى عصر كل يـوم دروسـاً ومواعظ دينية يلقيهـا الإمام شـجاع، المعروف على نطاق الحي بغزارة عِلمه وسعة علامة السجود المباركة على جبينه.

وقبـل أن تلقـي الغيـوم في ذلك العـام بأولى أحمال الشـتاء أفقدت جلطة دماغية الشـيخ مجيد نِصف عقله وطرحته الفراش يُكلم نفسـه ليل نهار عن حوادث وقعت في زمني طفولته وشبابه، يظهر فيها اسم شمس، وهي شابة، متنقلاً في مختلف أرجاء قرية النور وملاحم دارت بينه وبين شـقيقه عزام للظفر بحبها، فقامت الحاجة غنية للتعتيم على ذلـك بإبقـاء البـاب مؤصداً عليـه بحجة منحـه الراحة النفسـية التي تحدث عنها الأطباء في المستشفى أيام رقوده فيها.

مطلع العام التالي بشرت القابلة ببذرة جديدة نامية في رحم زاهدة ونصحت ــ بالاسـتناد إلى خبرتها الطويلة بما تحملـه البطون ــ القيام بإجـراءات عديدة للمحافظة على الجنين من السـقوط. فأوقفتها أولاً أمـام مِـرآة غرفة النوم وطلبت منها النظر إلى نفسـها جيـدا لمدة دقيقة كاملة دون أن ترمش بعينيها، فإن رأت أمامها عجوزاً ببثور على أنفها وشـعيرات بيض طويلـة نازلة من ذقنها فهذا يعنـي وبنحو مؤكد أنها واقعة تحت تأثير سـحر أسـود يتوجب فكه بعون من السادة العرافين قـدس الله أسرارهـم. وحـين لم تـر زاهـدة وبعـد تركيز أدمـع عينيها سـوى وجهها المتورم مـن النوم، نقلتها القابلـة للمرحلة التالية وهي تعليـمات بالرقاد على الأرض بدلاً مـن السرير وعدم القيام بأي جهد

سوى المشي في غرفتها أو باحة المنزل بخطوات صغيرة وبطيئة لنصف ساعة يوميا. وتناول سلطة الخضار والفواكه والسمك. ووصفت لها من أجل منع الأجهاض، الإكثار من شرب العسل الأبيض ونقيع الحبة السوداء مع اليانسون. زاد عليها سليم برطماناً من زيت الزيتون مقروءًا عليه آيات وأدعية تثبيت الحمل بصوت الإمام شجاع على أن تتناول ملعقة واحدة صباح كل يوم بعد قراءة آية الكرسي وسور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين.

قبل رحيل الشتاء ذهبت جلطة أخرى بما تبقى من عقل الشيخ مجيد وشلت أطرافه ولسانه وقدرته على التحكم بمثانته. تفرغ سليم للعناية به بعد دروس سريعة تلقاها في مستشفى المدينة. فقام بإطعامه وتدليك أطرافه على مدار اليوم وتقليبه في فراشه لكي لا يتعفن جلده. ونجح في إقناع الإمام شجاع بنقل حلقة دروس ومواعظ الفترة العصرية من الجامع إلى صالة الضيوف في المنزل التي نقل إليها والده أيضاً ليحصل على أكبر قدر ممكن من الحسنات. مقابل موافقته على تحريم مشاهدة التلفزيون والاستماع إلى الأغاني ورفع الصور الكافرة عن الجدران.

وفي ليلة ربيعية مقمرة. إبتسمت زاهدة في حُلمها إلى طفل صغير حملته بين ذراعيها وهي على ضفة نهر، ماؤه أخضر يتدفق من نبع لاح لها شلاله من بعيد. كررت لنفسها تفاصيل الحلم لكي ترويه لحماتها في الصباح. سمعت صوتها وهي تصف وجه الطفل المرح المستدير وعينيه الواسعتين ورائحة الزهور الفواحة وغزارة ماء النهر الجاري بسرعة. وفي لحظة خاطفة، تغير لون النهر. أصبح رمادياً ثم مال إلى السواد قبل أن يصير أحمر قانيًا وأخذ يفيض ماؤه حتى لامس قدميها وشعرت

ببرودتـه تقرص أصابعهـا. ذابت ملامـح الطفل، تبعها باقي جسـده، وأحست بسخونته تنسكب بلا لون على صدرها وذراعيها وتغوص في بطنها. عندها شـعرت بألم كأن نصل سكين اخترق أحشاءها، فأطلقت صرخة متواصلة لتوقِظ نفسـها وتخرج من كابوسـها قبل أن تكتشـف بأنهـا قد دخلـت فيه للتو، إذ وجدت نفسـها واقفـة في منتصف الغرفة وخيط دماء على الأرض قد تبعها من سريرها وسليمًا جاثياً أمامها على ركبتيه، يداهُ فوق رأسه وفي عينيه نظرة ذُعر.

بعـد مرور أسـبوعين على خـروج زاهدة من المستشـفى وتنظيف رحمهـا من بقايـا الحمل السـاقط. أظهـرت نتائج الفحـص المختبري الـذي أجري عـلى دمهـا إصابتهـا بفايـروس المقوسـات الكونيدية. كررت الطبيبة المختصة الاسـم ثلاث مرات على سـليم، لكنه لم يفهم ما يعني ذلك. فأوضحت بأنه يشـبه الانفلونزا ولا يحتاج حتى لعلاج إذا أصيـب به شـخص بالـغٌ في ظروف عاديـة. لكـن خطورته تظهر عندما تصاب به إمراةٌ خلال أشهر حملها الأولى لأنه يؤدي إلى إسقاط الجنـين، وهـو ما حـدث لزاهـدة. لم يكن سـليم متأكدا من اسـتيعابه الكامل لما قالته الطبيبة فسألها عن السبب، أجابته تعدد بأصابعها:

"تلوث الخضار والفواكه ببراز القطط المشـبعة بالفايروس. تناول لحـوم الخراف والأبقار غير المطبوخة جيـداً. وينتقل أيضاً عبر البيض والحليب غير المبستر وحتى بالماء الملوث".

حـاول سـليم في ذهنه تتبـع مصـدر الفايروس الـذي تحدثت عنه الطبيبـة، فكل الاحتـمالات التي ذكرتهـا كانت واردة تماماً. باسـتثناء القطـط الممنوعة من دخول المنزل بسـبب خوف الحاجـة غنية المزمن

منها. أخبرته الطبيبة تخفف عنه:

"عليك أن تشكر الله. فكثير من الأجنة تنمو مقاومة داء القطط، لكن يولد الطفل للأسف وهو يعاني من تشوه خلقي او مشكلة ما في الدماغ".

رفع كلامها من سقف إيمانه. فقسم يومه بين الجامع والاعتناء بأبيه. ونمت لحيته بكثافة وتقلص طول دشداشته، وأضاف المزيد من الصلوات التطوعية إلى قائمة فروض العبادة اليومية. وأخذ يقرأ القرآن بعد عودته من صلاة العشاء، بينما عينا والده تدوران في محجريهما وكانا الشيئين الوحيدين اللذين يقدر على تحريكهما من جسده الميت.

هجر لسنتين متتاليتين فراش زاهدة مشاركاً أباه صالة الضيوف وعزلته لغاية أن أقنعه الإمام شجاع بإتخاذ السُبل وأن يأتي حرثه ويترك الباقي على الله وإلا فان ذرية آل سعيد ستنقرض. وعندما كشفت خبرة القابلة عفاف وبنحو مبكر عن الحمل الثالث أجرت زاهدة فحوصات طبية أكدت صمود فايروس داء القطط في جسدها فتناولت أدوية لطرده. وفي الشهر الرابع للحمل تبين أن لا أثر فعال للفيروس، ومع ذلك أجريت لها عملية ربط للرحِم على سبيل الاحتياط لمنع الجنين من السقوط. وبمرور الأيام أخذ البيت يتخلص من طابع الحزن الذي كان قد دُفِن فيه. وسادته في شهر الحمل السادس فرحة عارمة عندما استدلت القابلة من حجم البطن وشكله ورفسات الجنين ومحلات تركيزها على أنه سيستمر لتسعة أشهر كاملة دون سقوط وكشفت عن نبوءتها بأن المولود المنتظر سيكون ذكراً.

(9)

أخيراً ولد جابر. استُقبِل بالدفوف والأهازيج والأناشيد، مانحاً والديه نهاية ربيع 1997 فرحةً متأخرةً لكنها لم تمكث طويلاً. وآمالاً كبيرة تحولت إلى خيبة تدحرجت كرتها سريعاً متضخمةً إلى خطيئة ظلا يسددان فواتير ثمنها الباهظ سنواتٍ دموعاً وسهراً وجرياً خلف الآمال وتأنيب ضمير مزمن مزق قلبيهما ولا سيما الأب الذي لم يتخلص أبداً من شعور إرتكابه لإثم شنيع كلما وقعت عينه على ابنه وفتش على الدوام عن عقوبة مناسبة يوقعها على نفسه للتكفير عنه والخلاص من عذابه.

عند بلوغ جابر شهره السادس اكتشفت زاهدة بأن البياض في عينيه يميل إلى الاصفرار. وشخصت الحاجة غنية الحالة بعد نظرة فاحصة بأنه (أبو صفار) ورفضت طلب مساعدة القابلة عفاف أو عرضه على طبيب أطفال. أخذته من بين يديها مطمئنة إياها أن لا شيء يدعو للخوف:

"أنه شائع ويصاب به الأطفال الرضع في كل مكان وزمان".

جلبت كرة من خيط المفروشات السميك الأبيض. ألصقته بشفتيها وقرأت شيئا وهي مغمضة العينين ثم نفخت فيه ثلاث نفخات طويلة ومتتالية وأخذت منه قطعة بمقدار شِبرٍ لفته على ساعده الأيسر مرتين وربطته على شكل سوار، قبل أن تعيده إلى أمه قائلة بلطف وحكمة:

"لقد قطعت (أبو صفار) بإذن واحدٍ أحد. يحتاج فقط إلى حليبك

وإذا فرغ صدرك أرضعيه حليب العلب المجفف".

ثم أشارت إليه وهو يمص أصابع يديه بنهم:

"فقط لا تبقيه جائعاً. يبدو أنه مثل أبيه لا يشبع أبداً".

بمرور الأيام تفاقم الصفار في عيني الرضيع وشحب وجهه ولم يعد الحليب ولا الهدهدة مجديين في إيقاف نوبات بكائه الهستيرية. كان يغفو لحظات ثم يوقظه الألم فيواصل صراخه، وفي غضون ذلك أعدت الحاجة غنية وصفات الأعشاب ضد الإمساك والإسهال ولطرد الغازات وخفض الحرارة. وأسندت جرعات حليب زاهدة بمياه محلاة بالعسل الأبيض. لكن أياً من ذلك لم يحدَّ من شحوب جلده وتحول محيط بؤبوي عينيه الصغيرتين إلى ما يشبه صفار البيض ولم تمنع عظام صدره من البروز من شدة النحول. فرضخت الجدة أخيراً إلى توسلات زاهدة وتمت الاستعانة بخبرة القابلة عفاف التي قامت فور وصولها بإجراءات طوارئ سريعة جردت فيها الطفل من ثيابه ومن قلادة آية الكرسي الذهبية. وشطبت بموسى حلاقة غير مستخدم المنطقتين خلف أذنيه حتى سالت منهما دماء وسط احتجاجات الأم التي هدأت فور مشاهدتها لها وهي تزيلها بقطن طبي مبلول بالمياه. بعدها مددته على بطنه فوق رجلها وراحت تمسد على ظهره برفق وأنصتت لصوت بكائه. وبعد دقائق هزت رأسها كأنها توصلت أخيراً إلى تشخيص الحالة بدقة. فطلبت من زاهدة وحماتها الجالستين أمامها مثل تلميذتين تعريض جابر لأشعة شمس مباشرة صباح اليوم التالي ولمدة نصف ساعة في الأقل وتكرار ذلك على مدى أسبوع. وزيادة عدد الرضعات لأن الحليب سيُخرجُ الصفار. قالت

الحاجة غنية بفخر:

"أنا قلت هذا من البداية"

وأرادت أن تضيف شيئاً آخر، لكن القابلة قاطعتها بحركة مفاجئة رفعت بها الرضيع من رجليه في الهواء فهبط رأسه الباكي متدلياً أمام وجهها وأخذ يتحرك متلوياً من اليمين إلى اليسار مثل بندول ساعة. قالت بعد تمعن:

"المسكين مملوء بالسائل الأصفر".

بعد ثلاثة أيام رفعت الخبرة النسوية راية الاستسلام إزاء وضع الطفل الذي تفاقم سوؤه. فاستشار سليم صديقاً له في الجامع يعمل مُعشبا اسمه ملا خليل. وكان متخصصاً في الطب النبوي ومشهوراً بلجوء اليائسين من الأطباء إلى علاجاته العشبية المتوارثة وصفاتها أباً عن جد.

أعطاه دون حاجة إلى معاينة الحالة، مئتي غرام من عشبة (خيار الحمار). على أن يُطحن قسم منها جيداً. ثم يُحرق فتاته داخل الغرفة مثل البخور العادي، لكي يتم استنشاقه. وأن يُنقع القسم الثاني بالماء لإثنتي عشرة ساعة، يصفى بعدها ويحفظ ماؤه في زجاجة ثم يسقى منه الرضيع بملعقة شاي صغيرة ثلاث مراتٍ يومياً. ملعقة واحدة بعد كل رضعة حليب.

أشاع ملا خليل في الجامع أمر إصابة ابن سليم بـ(أبو صفار) قوي ونادر، فأحاط به المصلون بعد صلاة العشاء يناقشونه ويتبرعون له بالنصائح. خمن البقال أيوب المرض بأنه إصابة عين مباشرة، وأقسم وهو يشير بكفه العريضة إلى محراب الجامع بأن واحداً من الذين

تجمهـروا في حديقـة منزله يوم الميلاد قد أصاب الولـد بعينه المريضة. وكان يتوجـب قبل ذبح الخروفين تكسـير بيـض الدجاج تحت أرجل الحاضريـن إتقاءً لشرهم. قاطعه أبو رباب سمسـار العقارات واصفاً وهـو يتأتـئ ما قاله البقال بالخرافات، ونصح سـليمًا بعلاج جربه على أبنائه الخمسة. وهو حساء الرز الشيلاني المطبوخ بالماء مع اللبن مضافاً إليه مسـحوق الكركم. وكذلك ماء شجر العاقول اليابس، بعد سلقه جيدا.

تناقلـت جـدران الجامـع صـدى الصـوت الغليظ للحلاق بشـير مُذكِراً الجميع:

"والدي رحِمه الله وأسكنه فسيح جناته، خَتن مُعظمكم".

دقـق البعض في سـاعات أيديهم وتملل آخـرون لأنهم حفظوا عن ظهر قلب هذه الجملة الاسـتهلالية المعتادة في مناقشـات الجامع التي يحاول فيها الحلاق إظهار تفوقه المتوارث عليهم. وإشارة أكيدة إلى أنه سيقدم واحدة من آرائه غير المقنعة.

"هذا اسـمه العلمي يرقان، وحالة مثل هذه لا يمكن معالجتها إلا بالكي".

فتح سـليم فمه مندهشاً فيما واصل بشير شرحه بحماسة مُستخدما أصابعه الرفيعة والطويلة كأنه يقص شعراً شبحيا:

"يُحمى مخياطٌ أو أي شيء حديدي مدبب على النار جيداً حتى يحمرَّ لونـه. ويكـوى به عند العقلة الثانية مما يـلي مفصل الخنصر الأعلى من الجانب الوحشي في كلتا اليدين".

هز ذراع سليم وطمأنه:

"الأطفال تُكوى رؤوس أظافرهم فقط".

قرب صلعته الواسعة منه وقال بصوتٍ خافت:

"تعلمتُ من أبي رحمه الله معالجة الذكور البالغين المصابين باليرقان بكي قِمم رؤوسهم". ثم تلفت وبلع ريقه قبل أن يقول:

"وتحت الأثداء بالنسبة للنساء".

في تلـك الأثناء فـرغ الإمام شُـجاع من آخر صلوات سـنة ما بعد العشـاء. وكان وجهه في جهة السلام الختامية الثانية تماماً حيث يجري النقاش عندما ذكر بهدوء العارفين بأن التطير منهيٌ عنه في الإسـلام، لكـن بعض الزيجـات والمواليد الجدد يَجلبون النحـس. فتذكر الجميع حادثـة كبشي النذر وكيف سـبح الإمام بالدم وقتهـا. فهُزت رؤوس بعضهم متفهمة ومؤيدة. نهض قائلا:

"علاج ابنك بشيئين لا ثالث لهما. الأول بالرقية الشرعية".

ثم وضع يده على صدره في إشارة تطوعية. وأضاف:

"والثاني بإمتناع الأم عن تناول الملح حتى يبرأ الرضيع من سقمه" .

قبل يوم واحدٍ فقط من إتمام شهره السابع إستنفد الوالدان والجدة الخيارات جميعها وآخرها رقية شرعية قرأ فيها الإمام شـجاع والطفل في حِجـره آيـاتٍ وأحاديث وأدعيـةً امتدت لأربعين دقيقـة متواصلة وانتهت بتقيؤ جابر على جبته الزرقاء الجديدة حليباً بلون أصفر فاقِعٍ، فخرج مُسرعاً وهو يتعوذ من الشيطان.

أخـذوه عـصر ذلـك اليـوم إلى عيـادة طبيـب أطفـال اختصاصي في المدينـة القديمـة. كان مُسِـناً ويتحـدث دون تحريك شـفتيه فيبدو صوتـه خارجاً مـن بطنه. وبـخ الثلاثة بشـدة (الأم والأب والجدة). لأنهم وبإهمالهم الجسـيم وتخلفهم القروي الذي لا يتحضر أبداً سببوا للرضيع المسكين مضاعفات الفايروس الكبدي A "الذي تسمونه"أبو صفـار" صـاح الطبيـب بوجوههـم وضرب بيديـه سـطح مكتبه. ثم طلـب وهو يخربش بتوتـر على ورقة أمامه إدخاله مستشـفى الأطفال فوراً دون إنتظار وتعريضه لضوء أصفر أو أزرق.

شـكل بيديـه الصغيرتين كأنهما لصبي ما يشـبه الكرتين وقربهما إلى صـدره قائـلاً لزاهدة التـي أغمضـت عينيها وأحنت رأسـها خجلاً. وسليم وأمه يراقبان بحذر:

"يجب أن تُرهقي نفسـك في إرضاع المسـكين خـلال هذه المرحلة حتى لو تطلب الأمر إضافة رضعات من حليب مجفف".

ثـم وضـع إصبعه على أنفه وفكر قليلاً قبـل أن يتذكر: " من ماركة كيكوز أو نيدو".

فقالت الحاجة غنية بانفعال رافعةً يدها إلى فوق:

"لقد قلت هذا منذ البداية" .

(زاهدة)

أدخلـوه صندوقاً زُجاجياً مضاءً بمصبـاح أزرق في غرفة الحضانة بمستشـفى الأطفـال. ثم حقنوه بالمغـذي في ظاهر يَـده وخلطوا معه دواءً فنام وغطوا عينيه بقطعة قماش، ربما بسبب الضوء. كان مستلقياً عـلى ظهره بوداعة وقد باعد بين رجليه وأرجع يديه إلى الخلف وبطنه الضئيـل يرتفع وينخفض بإنتظام، وعلى صدره شـيئان ملصقان إمتد منهما سلكان إلى خارج الصندوق أحدهما أزرق اللون والآخر أسود. لم يكُـن قد ذاق طعم النوم منذ أيام. وأشـاح بوجهه عن صدري كأنه عـدوه. حتـى الحليب الـذي أرغمتهُ عـلى إبتلاعـه خرج بعدهـا قيئاً وإسهالاً.

"قـد يمكث حليبي في جوفه وهو نائم" فكرتُ في ذلك عدة مرات وحاولـت إخراجه من الصندوق راغبة في إرضاعه. وكانت المُمرضة السـمينة تزمجـر كلما شـاهدتني بتلك الوضعية، تتجـه نحوي مسرعة كأنهـا تتدحرج فتشـتم وتسـب وظيفتَها وكل مـن لا يلتـزم بالنظام. فأخـرج بهـدوء دون رد. وأعـود مـرة أخـرى حالما يتوارى جسـدها الضخـم في واحدة مـن الردهات لأدخل غرفـة الحضانة وأظل قريبة مـن صغـيري. في ذلك الوقت تراءت لي صـورة الطفل الذي حلمت به يوم الإجهاض الثاني وظهر طيفه على الجدران من حولي. لذا كنت خائفة ولا أشعر بالطمأنينة إلا وجابر في مرمى نظري.

عنـد الظهـيرة جـاء طبيب كبير في السـن يعـرج في مشـيته وخلفه طبيب آخر شابٌ طويلٌ، طفولي الوجه. راقبتهما من الخارج عبر نافذة الحضانة وهما يجولان بين صناديق الأطفال قرأ الأول في أوراق كانت بجوار الصندوق الذي فيه جابر. سمعته يقول بغضب:

"أي غبي أمر بوضع هذا الطفل هنا".

تجمدت في مكاني عند باب غرفة الحضانة لا أعرف ما يتوجب علي فعلـه، فلقـد ظننت بأنه يقصـدني أنا. بدا على الشـاب الارتباك وأخذ يتلفت حوله ثم خرج ومر من خلفي ينادي في الممر:

"الدكتور سامي يريد الجميع هنا حالاً".

ثـم عـاد يهـرول وخلفـه الممرضـون وقد خرجـوا مـن الردهات والغرف الأخرى ثم تجمعوا حولها ومعهم السـمينة سـليطة اللسان. وعنّفهم بشدة:

"أنتم مهملون وتستحقون الطرد لأنكم وضعتم طفلاً في شهره السابع مع حديثي الولادة".

بعـد قليـل أخرجـوا جابـرًا وأخـذوه إلى المختبر ليفحصـوا دمه. وتلك كانت المرة الثانية التي أشـاهد فيها الدماء تخرج من جسـد ابني الحبيب. أحسسـت بأن الإبرة تخـترق روحي وليـس ذراعه الصغيرة وصورة الطفل من الحلم تزداد وضوحاً. ووجهه جمالاً.

طلبـوا مني البقـاء والمبيت في المستشـفى لمراقبة وضعـه الصحي. أعطونا سريرا في ردهة طويلة بأسرة متقابلة تفوح منها روائح الأدوية والبول. أعادوا اِليه المغذي، كانت الإبرة ما تزال في ظهر يده اليسرى وعـلى قطعتها البلاسـتيكية الزهريـة لاصق أصفر اللـون. بعد دقائق أفـاق يصرخ متوجعـاً. ملت إليه لأرضعه لكن العجـوز التي رافقت صبيـاً غارقاً في النوم وعلى بطنه ضمادة في السرير المجاور لنا، قالت لي وهي تمد ذراعها نحونا:

"لا ترضعيه الآن لأنه يأخذ المغذي".

لم أعر أهمية لما قالته، أو بالأحرى لم أفهمه تماما. القمته ثديي، لكنه صرخ وأدار وجهه إلى ناحية العجوز، كأنه يستغيث بها لإنقاذه مني. وكمن تلقّى الإشارة وبدأ بالاستجابة لها، رمقتني بنظرة إشمئزاز وسحبت جسدها الضائع في ثوبها الأسود الواسع وأخذت تضرب بنعلها الأرض محدثةً جلبة قوية وتابعتُ صوتَ ابتعادها شيئاً فشيئًا في الممر خارج الردهة حتى أختفى.

كان سليم قد أخبرني عندما أوصلنا صباحا إلى المستشفى بأنه سيُنظِف فراش والده ويغسّله ويقرأ له القرآن قليلا عسى أن يرحمه الله من عذابه. وأنه سيعود عصرا لإصطحابنا للبيت. فلم نكن نعرف بأنني سأبيت ذلك اليوم في المستشفى. شعرت بالضيق لأنه سيضطر للمبيت وحده في غرفتنا تلك الليلة.

"أبو فلينة" إبتسمت عندما تذكرت هذا الاسم الذي أطلقته عليه يوم ظهوره الأول دون أن أعرف بأنه ابن عمي الوحيد. كان يمشي بسرعة في دروب القرية كأنه حصان في سباق. تدور قبعته الفلينية المقببة بين أكوام الحنطة والشعير في البيدر، ويلوح بياضها في البعيد وهو يمشي وسط حقل أبيه المجاور لحقلنا.

"أبو فلينة هذا، ابن عمك مجيد". قالت شقيقتي سعاد مشيرة نحوي بضفيرتها الطويلة. وذكرت بأن جارة لنا صححت معلوماتنا الخاطئة وإنه ابن عمنا وليس موظفاً من دائرة الزراعة كما توهمنا.

"إنه بمثل عمري، ابن عمي من لحمي ودمي" قلدت بصوت فيه ميوعة الممثلات في التلفزيون، فضحكنا ونحن نتلفت خوفاً من أن تسمعنا أمُنا أو زوجة أبي فردوس التي لا تحتفظ بسر أبداً. فلا جِد ولا مزاح بالنسبة لأبي في أي شيء يخص عمي وأسرته. وسبق له أن

حذرنـا بـأن ابن غنيـة موجود في القريـة وحلف بالطلاق إنه سـيقتل أيـة واحـدة منا تتحدث اِليه ولـو بكلمة واحدة. لكن هـذا لم يمنع ما كتبـه القدر الذي بدأ يوم جمعتنا الصدفة عيناً بعين وروحاً بروح. كان دوري في حـث الحمـير على السـير خـلال عودتنا من نهار جمـع التبن الطويـل والمُرهـق. وكنـت أعاني من بطئهـا وأغني لهـا والعصا بيدي وشقيقاتي مع فتيات من القرية يرددن خلفي بكسل. فإذا بلحظة تشبه ومضـة البرق التقت فيها نظراتنا وبذات السرعة أرتد فيها وجهي إلى الناحية الأخرى. لكن شـيئاً مني ظل هناك يُحدق في عينيه المندهشتين وقطرات العرق الصغيرة المنزلقة على خديه. وقلبي يخفق مثل الطبل.

شـكوت بعدهـا مـن سرعـة الحمـير. ورحـت أتوسـل في سري حـدوث شيء ما يجعلنا نتوقف هناك، لكي ألتفت وألقي نظرة أخرى على أبي فلينة دون أن ينتبه أحد إلى ذلك. سـعاد كانت تراقب وقصت عـلى واجدة فيما بعـد كيف تابعني ابـنُ عمي غير شـاعر برتل الحمير والفتيات يمر من أمامه. وأضافت أشياء لا أدري إن كانت قد حدثت أم لا. وهي توقفي عن الغناء وتعثري مرتين وسقوط العصا من يدي. وهكذا صرت علكة بأفواههن.

عـادت العجوز ومعها ذات الممرضـة التي وضعت لجابر المغذي. أمسكت وجهه وأدارته يميناً ويساراً ثم قالت بعصبية:

"أعطيناه المغذي لكي لا يصاب بالجفاف".

اعتقـدت بأنهـا تُحدث المـرأة العجوز، فقـد كانت خلفهـا مباشرة وتوافقها بحركات من رأسها.

"حتى لو شرب الحليب فأنه سـيطرحه. الولد يعاني من شيء ما في بطنه"قالـت الممرضة وهي تدقق في كيس المغـذي المعلق فوق السرير

ثم أمسكت رسغ جابر الأيسر بإصبعين وأخذت تنظر في ساعة يدها لثوانٍ ثم غادرت.

لم يكفَّ عن البكاء، ولم أكن أستطيع حمله والسير به كما اعتدت في البيت بسبب أنبوب المغذي المربوط بيده. غطت العجوز في نوم عميق وصدر عنها صوتٌ يشبه الصفير بينما الصبي والذي كان حفيدها على الأرجح يستيقظ ويغفو بسبب شخيرها وضجيج بكاء جابر وأطفال آخرين في الردهة. والأمهات مثلي حائرات بإنتظار مرور الساعات الثقيلة والكئيبة.

تحول أبو فلينة إلى حديث قتلت به شقيقتاي سعاد وواجدة أوقات فراغِهن الطويلة، وتجنبتا إشراك الكبرى ميعاد التي تشبه المرحوم أبي، نسخة منه لكن بدون شارب وبِلا عِقال. توجه الأوامر ولا تبتسم إلا نادراً وردودها على مشاكساتنا كانت جارحة أحيانا. لذلك كنا نتداول أسرارنا الصغيرة فيما بيننا ولم نلجأ إليها إلا عند تفتيشنا عن حلول لمشاكلنا وتوسيطها لقضاء حاجة ما لدى أبوينا.

"كيلو غرام من القمح أثقل أم كيلو غرام من الفلين". سألت واجدة فردت عليها سعاد:

"الجواب عند خبيرة الفلين زاهدة".

ثم سألتها سعاد:

"هل الفلين نبات أم جماد؟"

قالت واجدة وهي تختنق من الضحك:

"'إذا كان قبعة فيكون جماداً".

وهكذا طاردتاني في أرجاء المنزل لمواصلة لعبةٍ تمادينا فيها يوم

خرجنا سوية في صباح باكر بحجة إلقاء نظرة أخيرة على الحقل، مدعيات بأننا نسينا مذراةً وأكياساً وتعمدنا حين داهمتنا العاصفة الترابية تغيير خط سير عودتنا لنمر بجوار خيمة أبي فلينة.

كاد قلبي يتوقف حين كشف الغبار عنه فجأة حاملاً بيده حقيبة سفر، وكأنه ينتظرنا هناك منذ أيام. فقدت السيطرة على رجليّ وأحسست برجفة تسلَّقتني. شيء مني أراد البقاء لكن الخبيثة سعاد ألحت في ذكر اسمي وقالت هامسة في أذني وهي تجرني مع واجدة:

"حتى لا يَخلِط بيننا".

وصل سليم بعد صلاة العصر. كان مستعجلاً وعيناه محمرتان. أخبرني أن عمي يحتضر وأنه ترك معه عدداً من أصدقاء الجامع يقرؤون له القرآن. وغادر مسرعاً حين علم بمبيتنا كي لا تفوته لحظة أبيه الأخيرة.

سمحت لي فرصة رفع أنبوب المغذي عن يد جابر السير به في الممر وهذا ما جعله يهدأ قليلاً. الطفل في حلمي كان يتبعنا، تنقل من جدار إلى جدار ومن نافذة إلى أخرى. وظهر ذات مرة على الأرض أمامي فأحسست بانقباضة في قلبي وراودني شعور لطالما حاولت تجاهله، وهو أن فقدان جنينين وما يعانيه ابني كله بسبب غضب والدي لأنني خالفت أوامره وقبلت بزواج أقسم بأنه لن يتم في حياته أو بعد مماته.

تسبب نهيُ زواجي بسجني في المنزل تسع سنواتٍ وكان سكان القرية جميعهم، بل وحتى في القرى الأخرى البعيدة يأتون على ذكر أسمي في أحاديث مجالسهم خلالها. فاتهمني والدي بأنني تسببت له بالعار، ونادراً ما تحدث لي أو حتى نظر في وجهي. وكان يتساءل بين فترة وأخرى متحدثاً إلى الأخريات في المنزل وبصوت عال لكي أسمعه:

"لم ابـن غنية الأهبل إختارهـا هي بالذات وليس سـعاد مثلاً التي بمثل سـنه. هل رآها في مكان مـا، هل كلمته، أم هي خطة أبيه الخائن الخسيس، النذل، الطامع في اللقب والأملاك".

كانت زوجة أبي العقربة فردوس تراقبني في داخل المنزل وتحسب عـليَّ خطـواتي في الحديقـة والباحـة. وأمـي يأكلها الحـزن لأنني أكبر أمامها سنة بعد أخرى بينما شقيقاتي الثلاث تزوجن وامتلأت منازلهن بالأطفال.

مرت السـنوات وبـدلاً من أن أكرهه لتسـببه بسـجني، كان حبي لأبي فلينـة يـزداد. ليـس له كشـخص بنحو كامـل، لأننـي لم أكن قد سـمعت حتى صوته. بل لإصراره على الفوز بي واستعداده للتضحية بنفسـه من أجلي. ويوم كان أهلي يتحدثون عن وقوفه مسـلحاً بوجوه المتقدمين لطلب يدي، أسهر ليلتها حتى الصباح مليئة بالفرح والأمل والخوف.

غفـوت لبعـض الوقت وأفقت عـلى صراخ جابر. حملتـه وأخذته مجـددا إلى الممر. لا يعـرف المرض ليلا أو نهـاراً، صيحات الألم كانت تصـدر مـن جميـع الردهـات وكثيرات كـن يجبـن الممـرات بأطفالهن لإسـكاتهم أو منحهـم دقائق نـوم تريحهم من أوجاعِهـم. انتبهت إلى القمـر المكتمل عـبر إحدى النوافـد، لم أكن قد رأيته بهـذا الكمال منذ سـنوات. في قرية النور وبعد زواج آخر شـقيقاتي سعاد، كنت أترقب مـن نافذة غرفتي في الطابق العلوي ولا سـيما في أشـهر الصيف نموه ليلةً إثر ليلة. يكبر ويسـتدير ليضيء باحتنا وأسـطح بيوت الطين أمام منزلنـا والأرض الممتـدة خلفهـا والملتحمـة في البعيـد بالأفـق، كُنت أتسـلى بمروره وأخفف من وحدتي بتخيل أن بوسعه رؤيتي وسماعي وأن سليمًا يراقبه أيضاً من مكان ما ويفكر بي في تلك اللحظة.

في ذلك الصباح وصلت الممرضة الغاضبة على الدوام أولاً. وضعت كيس مغذٍ جديد وربطت أنبوبه بيد جابر. بعدها بقليل جاء الطبيب سامي يعرج وخلفه الطبيب الشاب وثلاثة آخرون تجمعوا وراحوا يتحدثون باللغة الأنكليزية. هز بعصبية أوراقاً كانت في يديه أمام وجوههم. بعدها طلب مني الاقتراب وقال لي وعينه على جابر الذي كان يتلوى باكياً على السرير:

"هذا لا ينفعه أبداً. ابنك مصاب بداء الثلاسيميا ويحتاج إلى التزود بالدم حالاً".

لم أفهم ما قاله. ولم أكن أريد ذلك حقيقة. فقد شاهدت في الوجوه المتسمرة بي أن الأمر أكثر من مجرد (أبو صفار) ودعوت في سري أن يأتي سليم لنجدتنا. وقفت بلا حراك أراقب معهم الممرضة وهي تزيل أنبوب محلول المغذي عن الكانيولا الزهرية. وحين لمحتُ عينيه الخائفتين تفتشان عني أجهشت في بكاء خرج صوته نحيباً من أعماقي وطفل الحلم يملأ رأسي وأخذ يطوف سابحاً في الهواء فوقنا.

وصل سليم بعد ساعة. شاهدته يكلم الطبيب الأعرج في مدخل الردهة. وضع يداً على جبهته وأخرى على خصره. يفعل هذا عندما يتلقّى أخباراً سيئة وبدلاً من أن يأتي إلينا توقف لحظات بعد ذهاب الطبيب ثم تبعه إلى الخارج. حملت جابرًا وذهبت مسرعة للحاق به فوجدته جالساً على كرسي في الممر وعيناه ممتلئتان بالدموع. قال بحزن:

"جسمه غير قادر على صنع الدم ويجب إعطاؤه كيس دمٍ هذا اليوم لكي تتوقف آلامه".

قلت بلا وعي متجنبة طفل الحلم الذي ظهر على الحائط فوق رأسه:

"خُذ دمي".

سـحب كم قميصه الأيسر إلى المرفق قبل أن ينهض متثاقلاً ويقول بتصميم:

"أنا السبب في هذا وعليه أخذهُ مني".

لم أكن أتحمل مزيداً من الغموض، طلبت منه متوسلة بأن يشرح لي ما قاله الطبيب. فحاول أن يطمئنني:

"الأطباء يُخطئون كثيراً، سنجري له فحوصاتٍ في مكان آخر".

سألته وأنا أرتعش:

"ماذا يعني ثلاسيميا؟".

أخذ نفساً عميقاً ووضع يده على جبهته:

"مرض وراثي والمصاب به يحتاج إلى تزودٍ مسـتمر بالدم. في الأقل مرة واحِدة في الشهر".

"كيف يعني مستمر"

ضربتني أحرف كلماته كالمطارق:

" يعني مدى الحياة".

شعرت بطفل الحلم يذوب متسرباً بين ذراعي، وبدلاً من سخونته أحسست بماء بارد كالثلج ينسكب على رأسي.

مشى سليم خطوتين أمامي. سمعته يقول مغالباً بكاءه:

"توفي أبي".

(سليم)

خلال عملية نقل الدم لجابر في المستشفى، تخلى سليم في دورة المياه عن تماسُكِه الذي أظهره أمام زاهدة. فأجهش بالبكاء متنقلاً بالحزن بين والِده الذي أدركه الموت أخيراً بعد صراع مريرٍ مع المرض. وابنه الذي سيتعين عليه العيش طِوال عمره وصخرة الثلاسيميا فوق رأسه، تهدد بسحقه في أية لحظة.

كان صوت الطبيب سامي ما زال يتردد في ذهنه:

" ليس أمامك سوى تزويده بالدم مرة واحدة كل ثلاثة أسابيع أو أربعة في أقصى حد، وبعد فترة حقنه بدواء جديد اسمه ديسفيرال تحت الجلد معظم أيام الأسبوع بواسطة مضخة خاصة. يجب حدوث هذين الأمرين مدى الحياة. منع الدم والدواء عنه يعني إعدامه".

تذكر كيف سأله وهو يفرك جبينه بإنفعال:

"أليس من الممكن وجود خطأ ما، فلقد أكدوا لي أنه مجرد (أبو صفار) وسيزول بسهولة".

قاطعه الطبيب بهدوء:

"نتائج التحليلات المختبرية والفحوصات السريرية تؤكد وبنحو قاطع إصابة ابنك بمرضِ فقرِ دم البحرِ الأبيض المتوسط الذي يُعرف بالثلاسيميا".

"من أين جاء هذا المرض؟ "

"إنه وراثي. أنت وزوجتك تحملان سمته وهذا يعني إحتمال 25٪

في كل حمل ولادة الطفل مصابا بالمرض وهذا ما حدث معكما".

"لم أسمع بأن أحداً من أقربائنا أصيب بهكذا مرض" .

"ربما يكون هنالك حاملون للمرض ويكفي إقترانهم بآخرين يحملونه لتظهر الإصابة في الأبناء. الوالدان يتحملان مسؤولية ذلك بسبب عدم إجرائهما فحصاً طبيًّا قبل الزواج".

عاد ليسأله ولكن بنبرة توسل هذه المرة:

"ألن يشفى منه أبداً؟".

"لكي يظل على قيد الحياة يجب أن يحصل على الدم وإفراغ جسمه من الحديد المتراكم. لكن هنالك فرصة واحدة لا غيرها. ولأكون صادقاً معك، هي غير متاحة حالياً أو لنقل صعبة جداً بسبب ظروف البلاد".

تحركت شفتا سليم لكن صوته كان قد ضاع. فتابع الطبيب وهو يمسك بذراعه ليخفف عنه الصدمة:

"أن تُجرى له عملية زراعة نخاع عظم في الخارج".

****

بعد صلاة المغرب التي أُختتم بها يوم عزاء الشيخ مجيد الثالث، عُقِد في جامع الحي اجتماعٌ طارئ افتتحه الإمام شجاع بدعاء طويل هيأه مسبقاً لتدعيم فرضيته بوجود خطأ في تشخيص أطباء المستشفى وسط تأييد المصلين الذين بقوا جالسين على سجاد الأرضية بنفس الوضعية التي أنهوا بها الصلاة وبينهم سليم. في حين أعلن بشير الحلاق عن تحفظه وحاول بيان رأيه، غير أن الإمام الذي كان قد

سحب الكم الأيمن لردائه وجلس على ركبتيه، تلا بصوته الجهوري:

"وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا".

هز الجميع رؤوسهم بخشوع وواصل الإمام بصوت أعلى:

"قال النبي بأن لا داء إلا ونزل معه دواء. علِم به من علِم وجهل به من جهل".

وما أن أكمل الحديث حتى أخرج وبحركة آلية قطعة سواك صغيرة من جيبه، مرر رأسها على أسنانه بسرعة ثم أشار بها إلى المعشب ملا خليل، فنهض وسار خطوات مترددة قبل أن يقف إلى جوار الإمام ويقول:

"نحن بإذن الله من العالمِين وسبق لي معالجة مثل هكذا حالات بأعشاب مستوردة خصيصاً من الصين".

فأكمل بشير الحلاق الذي كان مطرقاً برأسه:

"الشعبية !"

تابع المعشب وفي يده كيس صغير فيه كبسولات:

"هذه تركيبة من عشرة منتجات عشبية صينية استخلصت العناصر الفاعلة منها ووضعت في هذه الكبسولات التي يطلق عليها الشن جواكسن، يتناول المريض أربعا منها يومياً وعلى مدى ثلاثة أشهر وهي فترة العلاج الكاملة".

اعترض أيوب البقال:

"الصغير عمره سبعة أشهر لن يستطيع بلع هذه الكبسولة".

دارى المعشب الحرج الذي وقع فيه بضحكة وسعل مرتين قبل أن يعود للجدية التي بدأ بها:

"يُفـرغ محتوى الكبسـولة للرضيع في كوب ماء أو حليب ويسـقى منه. وستجدون بإذن الله زيادة في نسبة الهيموگلوبين وتحسناً ملحوظاً في إعادة نسخ الحمض النووي وتعويض الخلل الجيني إلى حد ما. وإن نسـبة التعـافي من المرض قد وصلت إلى 90 % مـن الأطفال المصابين بعـد تخلص الكبـد والطحال مـن تضخمهما بإنخفاض نسـبة الحديد المترسب فيهما وغيرهما من الأعضاء الداخلية".

قال الإمام شجاع:

"سبحان الله. أطلبوا العلم ولو في الصين".

فأكمل بشير الحلاق بنبرة ساخرة وهو ينظر إلى أصابعه هذه المرة:

"الشعبية !".

طلب أيوب البقال الأذن بالحديث فتذرع الإمام بقرب موعد أذان العشاء، لكنه لم يأبه ووقف بجسده الضخم ولحيته الطويلة الكثة التي تـكاد تخفـي ملامح وجهـه وقال بصـوت رقيق لا يتناسـب مع هيأته الخشنة:

"أتفـق معكم بأن الأطباء عجزوا حتى يومنـا هذا عن إيجاد علاج لأمـراض كثـيرة مسـتعصية ويُضطِـرُّون عبـاد الله إلى التعايـش مـع أمراضهم مثلما يحاولون مع ابن أخينا سليم".

إنتظر قليلا حتى يفرغ المستمعون من تأييدهم له.

"لكنني أختلف في توصيف العلاج. وأشير إلى ما قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم".

فرددوا سوية ومعهم أشخاص آخرون جلسوا في أماكن متفرقة حولهم الصلاة على النبي.

" إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. وقال أيضاً أغلب الموتى من أمتي بعد قضاء الله وقدره من العين".

فقال الحلاق بشير وهو يقاوم ضحكته:

"الشعبية".

تأفف الإمام ثم خرج الكلام من بين أسنانه:

"أستغفر الله".

كور البقال يديه:

"حبة من البنجر الأحمر. وحبة أخرى من التفاح".

فكر قليلا يراجع المعلومات في ذهنه:

"توضعان بقشرتيهما في خلاط كهربائي ويضاف إليهما كأسان من ماء زمزم. وبعد الخلط جيداً وتصفية العصارة، تحلى بعسل البرسيم ويسقى منه المريض بمقدار ملعقتي طعام يوميا وبأذنه تعإلى سيبرأ من العين التي أصابته وتسببت له بالثلاسيميا".

"وكيف هذا، أثابكم الله وإيانا؟". سأله الإمام الذي كان قد وقف أمام مكبر الصوت وعينه على الساعة الجدارية الكبيرة أمامه:

فشرح البقال:

"ماء زمزم لطرد الشيطان وفك السحر وإصابة العين. بينما البنجر والتفاح والعسل تحوي الحديد والفيتامينات فيأخذ الجسم حاجته منها ويخزن الحديد في الكبد وفي العظام التي هي مصنع لكريات الدم البيضاء والحمراء، هذا ما تعلمته من أحد المشايخ العارفين رضوان الله عليهم".

وضع الإمام يده على أذنه اليمنى وصرخ بأعلى صوته:

"الله أكبر الله أكبر ....".

****

أنفق سليم شهرين آخرين من العناد. جرب خلالهما أنواعاً مختلفة من الأعشاب بناءً على خبرات معارفه في الجامع ونصائح تبرع بها لوجه الله مصلون عابرو سبيل سمعوا بمرض ابنه. وجد قسما منها في سوق العطارين بالمدينة وإضطر للسفر إلى أماكن بعيدة لجلب القسم الآخر. لكن تلك الوصفات جميعها لم تمنح الصغير جابر ساعة هدنة واحدة من وجعه ولم تمنع شحوبه وتغير لون بوله الذي أفزع زاهدة ودفعت الحاجة غنية لاستخدام خزينها المعرفي في مكافحة الجن وفك حالات التلبس. وعندما توقف الصغير عن الحركة والبكاء وأصبح يصدر صفيراً متقطعاً، دار به سليم عيادات الأطباء المتخصصين وترك عينةً من دمه في جميع مختبرات المدينة. وكانت الإجابات متشابهة، كأنها مستنسخة من مصدر واحد. فاستسلم لها أخيراً وألقى بالمنديل الأبيض راضخاً أمام تلٍ من أوراق الكشف السريري والنتائج المختبرية لحقيقة أن ابنه الوحيد مصاب بمرض الثلاسيميا وأن عليه تسخير ما تبقى من عمره ليؤمن له الدم ودواءً يخلصه من

تراكم الحديد في أعضائه الداخلية.

هنالك في مكان سحيق داخله، خبأ يقيناً تاماً بتحمل وزر ما يحدث لابنه وقبله للجنينين اللذين سقطا من بطن زوجته، وأن الماضي يلاحقه بغية الانتقام منه وسيظل مستهدِفاً إياه بامتحانات إلهية نتائجها الإيمانية تعتمد على صبره ومطاولته والرضوخ لمصائب الحياة لتنقيته من الذنوب ومكافأته بالجنة. لذلك أوكل مهام متابعة أرضه وتلك التي ورثتها زوجته من أبيها فضلاً عن المواشي إلى قرويين مقابل نسب في الأرباح. وقام بزيارة تفقدية أولى لمركز الثلاسيميا في مستشفى الأطفال من أجل التعرف على المكان الذي سيتواجد فيه مرة واحدة في الأقل كل شهر على مدى سنوات مقبلة عديدة.

مدَّ رجله اليمنى فاستقبلته رائحة جعلته يضع يده على أنفه ويتراجع خطوتين إلى الوراء. أخذ نفساً عمقاً ثم مد رجله اليسرى داخلاً المركز الذي كان عبارة عن ممر يفتقر للنظافة، أسرته وكراسيه متقابلة وعليها أطفالٌ مربوطةٌ أذرعهم بأنابيب تزودهم بالدماء. منهم من كان غارقاً في النوم وآخرون تعلقت نظراتهم بالسقف حيث مراوح بدت من الأتربة التي غيرت لونها أنها متقاعدة منذ زمن بعيد.

شرح له طبيب المركز المتخصص واسمه زهير ما يتوجب عليه فعله بعبارات سريعة تضمنت مفردات إنكليزية عاد في كل مرة أمام حيرة سليم إلى ترجمتها. كان يضع قلم الحبر الجاف بين أصابعه مثل السيكارة وعلى قبة صلعته التماعات مصابيح السقف.

"عليك أولاً تسجيل بيانات ابنك لدينا في المركز ثم تفتح حساباً خاصاً به في مصرف الدم. تودع فيه ما تحصل عليه من دماء المتبرعين،

وكل كيس سـيقابله رصيدٌ محفوظ مقداره أربعة أكياس تجلب واحداً منها الى هنا كل ثلاثة أسابيع لنفرغه في جسمه".

تناول الطبيب كراساً ملوناً من رفٍ على الحائط خلفهُ، وقرأ:

" يُنقـل الـدم بنحـو دوري للمريـض كل ثلاثة إلى أربعة أسـابيع. بمقدار سـتة إلى ثمانية ملليليترات دم لكل كيلوغرام من وزنه، ويجب أن لايتجاوز عمر الدم المنقول عن ستة أيام والنقل الدوري يحافظ على مستوى عالٍ من الهيموگلوبين لكي يصل الأوكسجين لإجزاء الجسم بشكل أفضل فيحافظ على النمو الطبيعي للطفل ومنع التغيرات التي تحدث في عظام الجسـم. وحماية القلب من مضاعفات فقر الدم ومنع تضخـم الكبد والطحـال. ويحتاج المريـض إلى كريات الـدم الحمراء فقط، لذا يجب أن يرشح الدم المنقول من الكريات البيضاء والصفائح الدموية".

وبعد انتهائه من القراءة وضع الكراس تحت يده، ثم قال:

"ولأن الـدم لا يفرز في مؤسسـاتنا الصحية ويُعطـى كما يتم التبرع به. يعاني مريض الثلاسـيميا عندنا من أوجاع في مختلف أنحاء جسمه بعد تزوده بالدم أو حتى خلال ذلك وهذا أيضاً سبب غالبية المشاكل التي يعاني منها المصابون"

طرق الطبيب بالقلم على المنضدة مهيئاً سليمًا لسماع أمر آخر مهم:

"بالنسـبة إلى ابنـك فلابـد من تزويـده بالدم مرة واحِـدة كل ثلاثة أسـابيع. وبعد سنتين أو أقل وبسـبب تراكم الحديد في جسمه سنُقرر إعطاءه دواءً لسـحبه خمس مرات أسـبوعياً في أقل تقدير وسنعلمكم كيف تفعلون ذلك في البيت بأنفسكم".

كانت يد سليم على جبهته فاعتقد الطبيب بأنه غير مبالٍ:

"أنتم محظوظون لأن هذا الدواء واسمه ديسفيرال قد وصل البلاد منذ فترة قصيرة فقط. يسميه بعض الزملاء بالمغناطيس لأنه يرتبط بالحديد ويطرحه عبر البول. نصف مليون طفل كانوا يموتون سنوياً في العالم جراء إصابتهم بالمرض قبل إكتشاف هذا العلاج. فلم يكن أمام ذويهم سوى إعطائهم الدم وترقب موتهم المحتوم".

ثم كرر ما قاله الأطباء الآخرون بأن كريات الدم الحمراء في جسم جابر تتكسر وهو ما يؤدي إلى تقلص فى كمية الهيموگلوبين، وبالتالي حدوث نقص في الأوكسجين الذاهب إلى أعضائه الداخلية فيعاني تعباً من أقل مجهود عضلي ويظهر الصفار فى عينيه وعلى جلده ويتغير لون بوله. ولأن هذا النقص مزمن سيؤدي أيضاً إلى زيادة الطاقة الانتاجية للنخاع العظمي فى جسمه لسد العجز الناقص عن تكسر كريات الدم الحمراء فتتحول معظم العظام لما يشبه المصانع لإنتاج خلايا الدم فتصبح بمرور الأشهر والسنوات هشة وتكبر وتتشوه عظام جمجمة رأسه وإطرافه. ويتكدس الحديد فى خلايا الجسم فتقل كفاءة قلبه وقد يصاب بالسكري والعقم وتليف الكبد على المدى الطويل.

قال سليم وعيناه على قلم الطبيب:

"صحته كانت جيدة وهذا كله ظهر عند بلوغه الشهر السادس. ألا يعني هذا شيئاً؟".

أجاب الطبيب زهير بهدوء:

"سبب عدم ظهور المرض عند الولادة مباشرة هو ما يسمى

الهيموگلوبين الجنيني الذي يبقى في جسم المولود حتى الشهر السادس ثم يختفي ليظهر الهيموگلوبين المعطل المصاب بمرض الثلاسيميا".

تأمل الطبيب في لحية سليم ورأس قطعة السواك الظاهرة من جيبه الصدري. قال بنبرة تعاطف:

"يبدو أنك رجل مؤمن ولهذا سأكلمك بكل صراحة. أنت وزوجتك تحملان المرض وقد أورثتما الإصابة به لابنيكما وعليكما التعايش مع مرضه ومساعدته قدر الإمكان لإبقائه على قيد حياة لن تدوم طويلاً على أية حال".

غرقت عينا سليم بالدموع، كان يُريد أن يقول بأنه المجرم الوحيد في الحكاية وإن زاهدة المظلومة وجنينيها الساقطين وجابرَ مجردُ ضحايا عناده وجنونه. سأل الطبيب وهو يشبك أصابع يديه:

"كيف لن تدوم طويلاً".

عاد الطبيب ليطرق بالقلم على المنضدة:

"إنه مرض جيني مزمن. إذا استمر تزويده بالدم وسُحِب منه الحديد بنحو منتظم، ممكن أن يعيش حتى يبلغ السابعة عشرة من العمر أو الثامنة عشرة على أبعد تقدير" .

(زاهدة)

لم يكتفِ الثلاسيميا بتعذيب ابني والعبث بجسده المسكين فقط، بل إضطرني للمشاركة في تعذيبه وتشويهه بإبرة الدواء. وما جعلني أشعر بحرقة وألم دائمين في صدري هو أن الأوجاع التي قدر له تحملها جراء كل تلك الإبر التي نُخِر بها ومضاعفاتها لم تكن لغرض معالجته من مرضه وإنما لكي يبقى أطول فترة ممكنةً لقمة سائغة له.

بعد بلوغه سنتين وخمسة أشهر أخبرنا الأطباء بأن الحديد المتراكم في جسمه سيقتله إن لم نعطه دواءً يُخرجه مع البول اسمه ديسفيرال بواسطة مضخة حقن خاصة يُمكِنُها ضبطُ وقته وكميته المطلوب تدفقها من سرنجة تُركب بداخلها عبر أنبوب ينتهي بإبرة تغرز في بطنه أو كتفه أو فخذه خمس مرات في الأسبوع. وقالوا بأن الساعات العشر، التي قرروا أن يُحقن بها في كل مرة، فترة طويلة وقد تحدث خلالها مشاكل بفعل الحركة النهارية. لذلك نصحونا بأن نضع له الإبرة ليلاً ونرفعها عنه صباحاً. ووعدوا بأنه سيعتاد عليها ليلة بعد أخرى. ولأن سليمًا كان يقضي ساعات من النهار في الجامع وأخرى في المستشفى ومصرف الدم ومختبرات الفحص وعيادات الأطباء أو بحثاً عن متبرعين بالدم. لم يكن أمامي إلا قبول تولي أمر الدواء بنفسي. وراجعت على مدى ثلاثة أسابيع مستشفى الأطفال وبقيت فيها من الصباح حتى المساء لأتعلم كيف أستخدم حقنة الدواء وأجربها عمليا على جابر، وأعرف أي المواد الغذائية مفيدة له، وتلك التي لا يستطيع تناولها.

لا أدري من أين أتتني قسوة إدخال الإبرة في جسم ولدي الحبيب.

فقـد كنت أتجنب وأنا طفلة صغيرة، النظر إلى أمي عندما تخيط الثياب أو تطـرز أغطية الوسـائد. وبكيـت بحرقة ذات مرة عـلى دميتي حين أعـادت لهـا ذراعها المقطوعـة بالإبرة والخيط. فبمجـرد رؤيتي لإبرة وهي تُغرز في أي شيء كان يتولد لدي شـعور بأن هنالك ألمًا ما، حتى وإن كان هـذا الشيء الـذي غرزت فيه مجرد قطعة قماش. وتسـبب لي ذلـك عندما كـبرت بصعوبة كبيرة في تعلـم دروس الخياطة والتطريز المنزليـة الالزامية. إلى أن وجدت طريقتي الخاصة والمضحكة بتحديد موضـع مـرور الخيـط ثـم أقـرِّبُ رأس الإبـرة وأغمض عينـي لحظة إدخالها.

في الأيـام الأولى كان الممرضـون يفعلـون كل شيء بأنفسـهم، يجلبـون مسـحوق دواء الديسـفيرال وماءً مقطـراً يُسـتخدم في إذابته وسرنجـة وأنبـوب إطالة ومضخـة الحقنـة وكحولاً لتطهـير موضع الإبرة ولاصقاً. أعادوا أسـماءها أمامي وكرروها بصبر مع وظيفة كل منهـا حتى طُبِعت بـرأسي. لكنني لم أكن أسـتطيع التوقف عن البكاء وأنا أستمع لصرخات الاسـتغاثة التي أطلقها جابر خلال وبعد زرع الإبرة فيه. ولهذا جعلوني أشـاهد كيف يحقِنون أطفالاً آخرين بالدواء وكانت المشكلة ذاتها أنني لا أتحمل رؤية الإبرة وهي تُغرز في الجلود.

في بداية الأسبوع الثالث نفد صبرهم معي. فتغيرت النبرة اللطيفة والمتعاونـة للمُمرضـين وكذلك الأطباء إلى تأنيـب، لأن رفضي حقن جابر بنفسي يعني بقاءه في المستشـفى خمسـة أيام في الأسبوع من أجل الحصـول عـلى الـدواء. وقد تنتقـل إليه عـدوى أمـراض جديدة من باقي الأطفال لضُعف مناعة جسـمه. بمعنى أنني قد أتسـبب بموته. هكـذا قالوها بوجهـي صراحة وأعادها سـليم المتحالـف معهم على

أسماعي مرات كثيرة. وعندما رضخت، كان عليّ تعلم كيف أسحب الماء المقطر بالسرنجة وأحقنها في قارورتين فيهما مسحوق دواء الديسفيرال (500 ملغ) في كل واحدة منها. وأرجُّهما جيداً للحصول على محلول بلون مائل قليلا للأصفر، ثم أسحبه بواسطة السرنجة ذاتها من القارورتين وأربِطها بأحد طرفي أنبوب الإطالة المطاطي وأملأُ الحيز الفارغ منه بالمحلول كابسةً على السرنجة برفق قبل أن أضعها في مضخة التنقيط وأثبتها بواسطة شريط أسود. بعدها يأتي دور المهمة الأصعب وهي مسح موضع الإبرة بقطن طبي غُمس في كحول مطهِّر. وثني جلد جابر بيدي قبل غرز الإبرة التي تسمى فراشة بنحو عمودي، بحيث تكون أجنحتها على سطح الجلد ومن ثم تثبيتها بشريط لاصق. فعلت ذلك أخيراً وبذات الطريقة القديمة التي واصلت بها الخياطة والتطريز، حددت الموضع وأغمضتُ عيني لحظة دخول الإبرة. وللتأكد من أنني فهمت جيداً ما يتوجب علي فعله، جعلوني أحقنه في اليومين الأخيرين مرة في فخذه والأخرى قريباً من كتفه. وعلى سبيل الإحتياط خصصوا يومين آخرين لتعليمي كيفية سحب الدم وحفظه في الكيس الخاص وكيفية إعطائه بالوريد. وأعطوني كيسين غير مستخدمين لأحتفظ بهما في المنزل لمواجهة أية حالة طارئة تستوجب التبرع الفوري من أي شخص يتوافق دمه مع صنف دم جابر. على أن أبدلهما في حال عدم إستخدامهما بكيسين جديدين كل عدة أشهر لضمان صلاحيتهما.

لم أكن قد سمعت باسم الثلاسيميا قبل وصولهِ الى بيتنا. لكن خلال تلك الأسابيع الثلاثة التي قضيتها في المركز بدا لي أن العالم كله مصاب بالمرض. عشرات الوجوه الشاحبة غالبيتها لأطفال صغار

معاقبين أبدياً مثل نور عيني جابر بالمرض ومجبرين على تحمل آلام الإبر في أذرعهم وأيديهم. يذهبون ليأتي في اليوم التالي آخرون وفي أعين أولياء أمورهم خيبة أمل لقلة حيلتهم. كانوا مثلنا أو بالأحرى صِرنا مثلهم، يركضون معظم الوقت لتأمين الدم والتخلص من الحديد وإجراء الفحوصات وقضاء الوقت بالانتظار. تساءلت في سري وأنا أتابع ذلك الشرود الذي يغرقون فيه والذي أصبح سمةً ملازمة لي أيضاً بعد ذلك:

"ترى ما الذي يمنحهم قدرة التحمل ليواصلوا بهذا الشكل. هل هي ذنوب إقترفوها من قبل كما فعلت أنا بمعصيتي لوصية أبي ويدفعون ثمنها الآن؟ أم لأن الأطباء أقنعوهم كما فعلوا معنا بأنهم يتحملون سبب معاناة أبنائهم عندما نقلوا لهم مرضاً كان في الأصل مختبئاً في أجسادهم؟".

علمت أن للبعض ثلاثة مصابين وحتى أربعة، يعيشون معهم في نفس البيت وتحت سقفٍ واحدٍ ومع ذلك يحاولون قدر الإمكان الاستمرار في حياتهم والإبقاء على الأمل حتى وإن كان مستحيلاً. وهذا تحديداً ما جعلني أقضي الساعات التي كان ينام فيها جابر جائلة بين الأسِرة والكراسي في قاعة التزود بالدم. أنصت إلى قصصهم التي سبق وأن حكوها مئات المرات لغيري ومع ذلك يذكرون تفاصيلها كأنهم يفعلون ذلك للمرة الأولى. أحفظ عن ظهر قلب نصائحهم الثمينة بناءً على تجارب معايشتهم لمرضاهم. وهو ما أفادني كثيراً بعد ذلك اضافة إلى الدروس التي كنت تلقيتها من العاملين في المركز. فتعلمت مثلاً عدم تكرار الحقن في موضعٍ واحدٍ مِراراً لتجنب الالتهابات وأن أضع قطعة ثلج ملفوفة بمنديل على المكان

قبـل الغرز لتخدير المنطقـة بالتجميد قبل إدخال الإبرة في الجلد. وإذا كانت الإبرة مسـتقيمة يمكن وضع قطعة من القطن تحتها مثل وسادة ثـم تُثبت بلاصق فيُعطـي ذلك زاوية مريحة للإبـرة ولا تضايق جابرًا عند نومـه. وعبثاً حاول الأكثر خِبرة من الأمهـات وقتها إفهامي بأن اسـتخدام نفس الكمية من الدواء لمدة أطول من التي يحددها الأطباء يزيـد مـن فعاليتـه في طـرد الحديد ولـن تتكون كتـلٌ سـيئة ناتجة عن الديسفيرال المركز تحت الجلد وسيقلص في ذات الوقت يوماً أو اثنين من أيام الحقن الأسـبوعية الخمسـة المرهقة. نعم، هذا كثير على إمرأة شـبه أمية مثلي لم تكمل سـنة دراسـتها الابتدائية السادسـة. لكن الأم التي يفقد ولدها شـيئًا من عافيته، يمنحها الله قوة إضافية لمسـاعدته. هذا ما أخبرتني به الأمهات.

ثم وضعن قدمي على طريق الأمل وأرشدنني بكلمات بسيطة غير معقدة كالتي يتحدث بها الممرضون والأطباء إلى مكافأة كبرى يمكننا جنْيُهـا إن حرصنا ودون تأخير على تعويض جسـم جابـر بدماء بدلاً من التـي يفقدهـا. والمداومة على الـدواء وإعطائه حامـض الفوليك والكالسـيوم كل يـوم. وإجـراء فحوصات دورية للتأكد من سـلامة الكليتين والكبد والسمع والبصر ومعرفة مخزون الحديد ومتابعة نموه وزنا وطولا كل ثلاثة أشهر. وقلن بأن من شأن كل ذلك إبقاء جسده سـليماً قدر الإمكان، ومن يدري فقد يحصل يومـاً على متبرع بالنخاع ومكان ما تجرى له فيه عملية زرعه ويشفى من مرضه إلى الأبد.

في المنـزل كان عـليَّ مواجهة صعوبـات كثيرة بعضهـا لم يخطر على بـالي وأنـا في المستشـفى. فلـم يكـن من السـهل القيـام بتهيئـة الحقنة وربطهـا بالمضخـة دون رقابـة خبير."هـل درجة حرارة الميـاه المعقمة

مناسـبة؟". "كيف أعرف بأنها مناسـبة؟". "هل غسـلت غطـاء قارورة الـدواء المطاطـي جيداً؟". "هـل كبسـت بـما يكفـي لدفـع الـدواء في الأنبوب؟". "هـل تعمـل المضخة بشـكل جيد". "هل أدخلـت الإبرة كثيرا؟". "هـل هو يتنفـس؟". راودتني الكثير من الأسـئلة التي كنت أجد إجابـات سريعة عنها وأنا هناك، لكن في المنزل كان علي الاعتماد على نفسي، خصوصاً مع إلتزام سـليم بعـادة النوم مباشرة بعد عودته من صلاة العشـاء. وتـذرع حماتي بعدم تمكنها من رؤيـة جابر مربوطاً بأنبوب وإبرة في جسده.

أصبـح في ذلـك الوقـت كبيراً على المهـد لذا تخلصنا منه واشـترينا سريراً خشـبيا صغيراً الصقتـه بجهتي من السرير وأحطته بوسـادتين ليـلاً لكـي لا يُقلب نفسـه. لكن أن أضـع إبرة في بطن إبنـي وأدير له ظهـري لأنـام، كان أمـراً بغايـة الجنون وفـوق مقدرة إحتـمالي. ولهذا أصبـح النوم لسـاعتين متتاليتين حُلماً بالنسـبة لي. صحيح أنني لم أكن أنـام بنحـو متواصل منـذ أن ألمَّ بصغيري المرض. لكن بـدءاً من تلك الأيـام تعـيَّن عـليَّ مراقبتهُما هـو ومضخة الديسـفيرال، فصـار القلق يوقظني في الساعة الواحدة مرات ومرات.

(جابر)

لا أذكـر أول مـرة غُرزت فيها إبـرة بجلدي. فكل مرة بالنسـبة لي هي الأولى والشـعور ذاتـه لا يتغير، وخزة في الجلـد والقلب بالوقت عينه. لسـنوات طويلة وجسـمي كُلهُ مباحٌ لجوع الإبر، تحرثه في رحلة تفتيشـها غـير المنتهية عن وريدٍ لسـحب الدم أو لضخـه فيه أو لإيجاد ممـر لدواء الديسـفيرال. وهم يحصلـون دائما على ثقـوب لإبرهم وإن لم يجـدوا مواضـع لها في ذراعي أو فخذيّ أو بطني أحدثوها في رأسي. ويبـدو أنني اكتشـفت مبكراً بأن البكاء ومقاومـة الأطباء والممرضين وإظهـار علامـات الخـوف والألم أشـياء غـير مجديـة ولـن تفضي إلى النتيجـة المسـتحيلة التي أريدهـا وهي الخلاص. لذلـك دربت نفسي عـلى الانتقـال بذهني إلى مكانٍ آخرَ لحظةَ تُطبـل الأصابعُ على موضع الوريد أو شعوري بلسعة برد السائل المطهر على جلدي. مكان سري بعيـد عن الأعين أفصح فيه عن وجعي بالحـزن الذي أريد، بينما يظل جسـدي بـين أيديهم مثل جذع شـجرة ميتة لا تحس بـشيء حتى وإن دُقت بألف مسـمار. هذا هو السر الحقيقي وراء ظهوري كمن لا يبالي بـالألم عندمـا أزرق بالإبر وليسـت الجملـة الببغاوية"إنها مجرد شـكة صغـيرة وينتهـي كل شيء" التـي يرددهـا الجميع بنحو غبـي وموحد في المستشـفيات والمختـبرات وعيـادات الأطباء. حتى أمـي تقولها لي قبل أن تحقنني بالديسـفيرال، لكن الفـارق أن ملامح وجهها تنقبض وتنطفئ نظرتها لي ما أن يدخل رأس الإبرة في الكتلة الجلدية المتشكلة بين إصبعيها كأنها تتلقى الألم بدلاً عني. تسألني بعد أن تبلع ريقها:

"هل أوجعتُك؟".

أظل مختبئًا هنالك في البعيد أذرف دموع الألم والخوف والاحتجاج. تتأمل ابتسامتي الصغيرة المعلقة على وجهي قبل أن ترد على نفسها:

"ابني شجاع لا خوفٌ عليه".

ثـم تدير وجههـا لتخفـي عني خيطـي دموعها. وأسـمع صوتها المتكسر متوجها نحن الباب:

"الله يشفيك".

****

تختلط الوقائـع مع أخيلة الطفولة حين تصحبني الذاكرة إلى عالمي وأنا بسن الخامسة. سحابةٌ من روائح المطهرات وبول الأطفال وقيئهم تطـوف فـوق رؤوس عـشرات إمتـلأت بهم قاعـة مركز الثلاسـيميا في المستشـفى، أكثـر مـكان موحـش زرتـه وكرهته في حيـاتي. أطفالٌ رضـعٌ وفتية وفتيات مـن حولي في وجوههم صفـرة ليمونية. توقفت حركاتهـم عنـد جلـوس أو اسـتلقاء كالمحبوسـين داخل صـور. بينما تهبـط على أذرعهم الممدودة بيـأس أنابيب منتفخة بالدماء مثل ثعابين شرهـة، تراقبها أعـين الآباء والأمهات بحرص وأجسـادهم متحفزة على الدوام لإستقبال كارثة ما.

أبي يقـف إلى جانـب سريري الحديـدي ويداهُ في جيبي دشداشـته البيضـاء القصـيرة ووجهـه الملتحي المليء بالشـيب يقابـل كيس الدم المعلق. يذكر الله بصوتٍ غير مسموع ورأسه يتحرك للأعلى والأسفل فيبدو كمن يعدُ القطرات المنزلقة بتتابع إلى ذراعي. أسأله وأنا أحاول من الأسفل العثور على عينيه المحجوبتين بغابة لحيته:

"أين هو الله؟".

يتوقف رأسه عن الحركة. ينحني واضعاً يده اليسرى على طرف السرير ويقرب وجهه الحزين مني فتفوح رائحة السِواك:

"إنه أقرب إليك من هذا".

ويشير بإصبعه إلى مرفقي. لا أفهم إن كان يقصد الأنبوب أم الإبرة المدفونة تحت اللاصق. ولا شك بأنها إبتسامتي غير المسيطر عليها التي جعلته يُمسِك بمرفقي الآخر ويقول:

"إنه قريبٌ جداً منك، فقط كلمه وسيسمعك".

أنظر إلى السقف وأسال مجدداً:

"هل يُحبني الله".

يجيب بترتيل كأنه في صلاة:

"يُحبُك أكثر مني ومن أمك".

فأغمِضُ عيني وأسأل الله:

"لماذا إذن لا تُشفيني؟".

****

احتجت لزمن طويل كي أفهم بأن نوبات الألم التي تضرب رأسي وظهري وبطني وعظامي بعد إنتهاء عملية نقل الدم أو خلالها. وتلك السخونة التي تبدأ من أذنيّ وتمتد لوجهي ثم تنسكب على جسدي كله ليست مجرد حساسية بسبب عدم فلترة الدم وفصل أجزائه كما قال الأطباء. بل كان أمراً يشبه حلول شيء من روح المتبرع في

جسـدي. فـأرى بعـد زوال الألم جانباً مـن حياته وتجاربـه، أحلامه، أفراحـه وأحزانـه، لكننـي لم أكن أسـتطيع وأنا بتلك السـن الصغيرة شرح ذلـك بالكلمات. وعندما كبرت صار هذا متعتي الوحيدة وسراً لم أفشِه سوى لشخصٍ واحدٍ لم يمكث في عالم الأحياء طويلا.

كان أبي هـو مـن يتـولى شـؤوني خـارج المنـزل، يأخـذني لإجـراء الفحوصـات المختبرية وكشـوفات الأطبـاء الدورية وتلقـي الدم أو التفتيـش عـن متبرعين به. وكان يندهش حـد الصدمة عندما أقول له واحـدة من تلك الأشـياء التي من المسـتحيل أن يعرفهـا طفل محدود العـالم مثـلي. بدأ ذلك يوم كنا جالسـين في جامع النبـي يونس بانتظار صلاة الظهر لكي يطلب أبي من المصلين التبرع لي بالدم. فالبلاد كانت تعيش أيام الإحتلال الأمريكي الأولى ولم يكن في مصرف الدم مخزونٌ كافٍ. لـذا كان أبي يصطحـب المتبرعين معه إلى هناك أو للمستشـفى لنقل الدم مباشرة إليّ بعد فحصه. قلت والكلمات تخرج من فمي دون أن أعرف ما تعنيه:

"أجـزاء القـرآن ثلاثون وسـوره 114. وعـدد أحزابـه 60، وآياته 6348 بـما في ذلك البسـملات التي تعـد آياتٍ وعددهـا 113. أطول سـورة هي البقـرة وأقصرها الكوثر. آية الدين هي الأطول في سـورة البقرة والتي بدورها الأكثر طولاً من كل السـور. وأقصر آية هي ألم. وذُكِر اسمُ الله 2697 مرة".

عندمـا كررت عليـه حرفياً ما قلته، حملني عـلى كتفه وأخذني فوراً إلى جامـع الحـي. كان الإمام شـجاع متكوراً مثل كـرة عملاقة يحاول فـك شـفرة قراءة شيء مـا في ورقة، لأنه قد نسي جلـب نظارته الطبية

في ذلـك اليوم من البيت. جذبني وأجلسـني في حجـره. وطلب مني ممازحـاً واللعـاب يتطاير من فمه الكبير أن لا أتبول او أتقيأ على ثيابه. وبعد أن مسحت بيدي لعابه من وجهي أعدت له مثل ببغاء مطيع ما ذكرته لأبي وأضفت قارئاً ما تيسر لي من سـورة الكهف. رفع ذِراعيه لتفوح رائحة عرقه القوية التي تشـبه رائحة مبيضات الغسيل السائلة التـي كانت تضيفهـا أمي إلى طسـت الملابس في الحـمام. دعا ووجهه ناحية الثريا الكبيرة المعلقة بسلسلة طويلة إلى القبة:

" يـا من تأخذ بمقدار وتعوض بما هو أفضل. تعز من تشـاء وتذل من تشاء".

دخل بعدها في نوبة بكاء رجتني مع كرشـه بعنف فركضت إلى أبي واختبـأت خلـف ظهره وكان هـو الآخر يهزه البـكاء فبكيت بدوري دون أن أعرف ما يجري.

في المـرة الثانيـة، كنـا نمـر مشـيا عـلى الأقـدام فـوق جـسر المدينة الحديدي القديم، ذكرت بلا وعي بأن ملكاً اسمه غازي إفتتح الجسر سـنة 1934. وقد اسـتغرق بناؤه ثلاث سـنوات وصُب حديده الذي يشبه قفصاً كبيراً في بريطانيا وشُحن بالباخرة ووصل إلى هنا عبر ميناء طرطـوس السـوري. أوقفه الذهـول منتصف الجسر وراحـت عيناه تتنقلان بيني وبين أعمدة وسقف الجسر الحديدية. كان في صوته شيء من الخوف عندما سألني:

"كيف عرفت هذا؟".

كنـت أتابـع لحظتها فوضى النـوارس وزعيقها في السـماء ولم تكن لدي إجابة في الأصل.

قرفص على الأرض واستند بظهره على سياج الجسر. أراد قول شيء، لكنه تراجع. فرك جبهته وسألني متأتئاً:

" هل يظهرون لك أم يكتفون فقط بالتحدث إليك".

****

لم تكن أمي تفهم كثيراً من الأشياء التي أقولها وأنا أدور في البيت مثل قط تائه. حتى التي كانت واضحة المعاني بالنسبة إليها أو التي نقلها إليها أبي بكثير من التوجس، لم تعرها أهمية كبيرة، لقناعتها التامة باستحالة صدورها عن طفل مثلي لم يتعلم بعد القراءة والكتابة. وفسرتها لجدتي في حواراتهما اليومية لقتل الوقت على أنها مجرد أحاديث التقطتها أسماعي وأنا مع أبي خارج البيت. إذ كانت مؤمنة بأنني عبارة عن جهاز تسجيل بشري يمشي على قدمين، لإمتلاكي موهبة حفظ أسماء الاشخاص والأماكن وقدرة ذاكرتي على تخزين أي حوار يجري ضمن حدود نطاق سمعي حتى إن كان همساً.

لكن في صباح ذلك اليوم الذي كانت تنتُفُ فيه ريش مؤخرة دجاجة غارقة في ماء قدر ساخن بالمطبخ إنتبهت إلى أنني أكلم الأطباق والملاعق التي ألعب بها بلغة أخرى ليست عربية. وفيها الكثير من حرفي(الثاء والخاء)، تشبه الأغنية التي كنت أرددها قبل يومين وأنا شبه فاقدٍ للوعي بعد نهار طويلٍ قضيته في مستشفى مدينة قرقوش المسيحية حيث تبرعوا لي بالدم هناك.

كان عمودُ بخار القدر يحول بيننا حين سمعتني أذكر اسم المسيح، فهرعت إلى جدتي في الصالة والريش يتساقط منها. وحين دخلتا ممسكتين ببعضهما وتُرددان سويةً أدعية الخوف. وجدتاني فوق

الـدولاب ويـداي المتشـابكتان قريبتـان مـن وجهي، أقـول مُغمض العينين بصوت فيه غلظة:

"لتكن مشـيئتك. كما في السـماء كذلك عـلى الأرض. خُبزنا الذي للغد أعطنا اليوم. وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تُدخلنـا في تجربة. لكن نجنا من الشرير. بالمسـيح يسـوع ربنا لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين".

سألتها جدتي وهي تشير للقِدر:

"هل سميت باسم الله قبل أن تملئيه بالماء الساخن؟".

أجابت أمي بحيرة:

"لا أعرف أنا أبسمل دائما".

قالت جدتي بحماس وهي تترنح في مشيتها نحو الباب:

"راقبيه جيداً، لدي علاجه".

إرتفـع بعد لحظـاتٍ صوت عبـد الباسـط عبد الصمد مـن جهاز التسجيل في الصالة بقراءة مجودة لسورة الجن. وأخذت جدتي القرآن مـن كيس قماشي أخضر اللون معلق على جدار غرفتها وجلبته لتضعه على رأسي في المَطبخ وأمي خلفها وفي يَديها عودا بخور يتصاعد منهما خيطا دخان.

وحـين وصـل أبي ظهراً كانت أمي قد أشـعلت للتو عـود البخور العـاشر وجـدتي تـرش التواليت بالماء الممـزوج بالملح وأنـا في المطبخ أحـاول إنقـاذ الدجاجة الغريقة. ضـم إليهما جهوده لطرد الشـياطين والجن الكافر من البيت من خلال قراءة المعوذات متنقلاً من غرفة إلى

أخرى وسبابته مرفوعة أمامه.

وقبـل أن يمـدوا أيديهم لطعام الغداء قُلتُ فجأة وأنا أشـبك يدي مجدداً والصقهما بجبيني:

"يـا ربنا أنت المنبع الدائم لجميع الخيرات إليك نتوسـل بأن تبارك وتقـدس لنـا هـذا الطعام الذي نسـتلمه مـن وجودك لكي نسـتعمل مأكلنـا بتعقـل كما أنـك تتوقع ذلـك منا. سـاعدنا لنعترف بـك دوماً كالأب السـماوي صانع كل الخيرات وأن نطلب قبل كل شيء الغذاء الروحي الكائن في كلمته المقدسـة لكي تتغذى أرواحنا أبدياً بيسـوع المسيح مخلصنا. آمين".

ظلـوا يراقبون بصمـت التهامي فخـذ الدجاجة مـع رقبتها والرز الذي في الطبق. وتابعوا بدهشة وقوفي الإحتفالي بعد آخر لقمة وكيف رفعت ذراعي إلى الجانبين وقلت بخشوع:

"سـبحوا الرب يا كل الأمم. حمدوه يا كل الشعوب. لأن رحمته قد قويت علينا وأمانة الرب إلى الدهر. هللويا".

كررت مرة أخرى وأنا أضُم يدي إلى صدري:

"هللويا".

قال أبي وقد جمدته الصدمة على كرسيه:

"زاهدة. أبنك تمسح!".

****

في المساء شـكَّل أصدقاء أبي من مصلِّي الجامع صفين متقابلين على الأرض في صالة الضيوف. وفي الوسط تماماً كان رأسي في حجر الإمام

شـجاع، يقرأ عليّ الرقية الشرعية ولعابه ينهمر مثل المطر. وجلس أبي عند قدمي يراقب بتركيز ويداه على ركبتيه كأن شـيئاً ما سـيخرج مني في أية لحظة. كانت أمي قد ألبسـتني دشداشـة العيـد الفائت القصيرة ذات النقـوش المذهبـة عند نهاية الكمـين والرقبة، فبدونـا جميعاً بزي موحـد قصير لعند السـاق مع إختلاف بسـيط يتعلـق باللحية وقطع السواك التي كانت تخرج بالتزامن أحيانا من جيوب الصدر والجانبين وتمرر على الأسنان مثل أقواس الكمان في حفل موسيقي.

قـال الإمـام بعـد انتهائه بأننـي أصبحت نظيفـاً ولن يصـدر عني مـا يريب بعـد الآن. وهذا ما حصـل لاحقا وبنحو حـرفي. ليس لأن جسـدي تحـرر من إحتـلال الجان وكُنِسـتْ منه الشـياطين كما توهموا وتفاخـروا فيـما بينهم على مدى سـنوات لاحقة، بل لأنني اكتشـفت درسي الحياتي الأول بأن الكلمات أكثر شيء يخشاه الناس، لذا تعلمت إبقـاء كل مـا أعرف في جـوفي وصِرت أقـضي منذ ذلك اليـوم معظم الوقت مع نفسي.

طلـب الإمامُ طاس مـاء ليقرأ عليه ويُرش منـه بعناية فائقة في كل شـبر من المنزل. حركـتُ رجليّ على الأرض مثل مقص مسـتفيدا من المساحة التي تركها أبي الذي نهض لجلب الماء فارتفع ثوبي كاشفاً عن شـيئي. في تلك الأثناء زحف الحلاق بشير على يديه وركبتيه مثل دبٍ نحوي. أمعن النظر قليلاً قبل أن يُعلن بصيحة أجفلتني:

"هذا الولد ليس مختوناً".

(سليم)

أزاح الاحتلال الأمريكيُّ سِتار الحِصار الاقتصادي السميك الذي كان مفروضاً على البلاد لزمن طويل وفك قيود النظام المنهار عن المجتمع، كاشفاً عن جوع شعبي لأي شيء يأتي من خلف الحدود. فتوسع استخدام الانترنيت وأطلِقت خِدمة الهاتف الجوال واعتمرت أسطحَ المنازل قبعاتُ الستلايت المقلوبة. وأخذت مع دفق المعلومات تنمو الآمال بوصول اكتشافات وعلاجات طبية جديدة لأمراض كثيرة. وبدأ الحديث عن مستشفيات إيطالية وأخرى هندية تستقبل المرضى الميؤوس منهم وتعيدهم أصحاء إلى أوطانهم. في غضون ذلك واظب سليم على جولاته المكوكية اليومية بين العيادات ومختبرات الفحص والمستشفى ومصرف الدم ومركز الثلاسيميا، يرشِق الجميع بالأسئلة ومعه سجل صغيرٌ يحمله أينما ذهب، يدون فيه ما يقبض عليه من أجوبة. فعل ذلك لأشهر عديدة دون أمل محدد يلاحقه وإنما مجرد سعي لإيجاد وسيلة يخفف بها المرض عن ابنه، مؤمناً بمقولة زرعها الإمام شجاع في حقل إيمانه الواسع وهي:

"أقدار الله أحب إلى التقي الصالح من زوال إبتلائه طمعاً بالرضا والخلاص بالجنة".

لكن حين قابل ثائر إبراهيم في مركز التزود بالدم شعر بوجود خلاصٍ دنيويٍ أيضاً واستمع للمرة الأولى إلى حديث فيه فرصة نجاة للمريض. بدلاً من مفردات التعايش والتحمل والصبر المحبطة التي سمعها أينما ذهب.

كان قد عاد للتو من صلاة ظهر مطولة أداها بمفرده في الحديقة

الخارجيـة للمركـز فوجـد السريـر المقابل الـذي اسـتلقى عليه جابر للتزود بالدم قد شـغلته فتاةٌ ومعها والدها الذي عرف بأن لديه صلة بجمعية الثلاسـيميا وصادفه مـرات عديدة، لكن لم يكن قد دار بينهما حديث من قبل.

سأله ثائر بلطف عن عُمر جابر. فأجابه:

"سبع سنوات".

"إبنتي أكبر منه بسنتين".

حاول أن يظهر للفتاة إبتسـامة مجاملة غير أنها كانت مستغرقة مثل ابنه في شرودٍ عميق وعيناها على شيء ما في السقف.

قال ثائر بخيبة:

"لكـن كما تعرف فإن البِنت المريضة في مجتمعنا ليسـت كالولد على أية حال".

بدا الإنفعالُ على وجهِ سليم بسبب جو الحسد الذي لاح له. لكن الرجل اقترب بهدوء ومد له يده:

"ثائر إبراهيم رئيسُ جمعيةِ الثلاسيميا".

ثم تابع وهو يضغط بقوة على يد سليم:

"أصبحـتُ كذلـك في الإنتخابـات الأخيرة التي جـرت قبل أيام. قبلها كُنت نائِباً للرئيس".

"لم تسـجله لدينا في الجمعية؟ "سـأل مشـيراً لجابر. فرد سليم ويده على جيبه الصدري للتأكد من وجود قِطعة السِواك:

"لستُ بِحاجة إلى مساعدة مالية من أية جهة".

"مساعدة المرضى الفقراء وهم الأغلبية بطبيعة الحال جزءٌ من عملنا. لكن هذا ليس كل شيء. لدينا مهامٌ أخرى كثيرة لا تتعلق بالمال".

عاد ليجلس على طرف سرير ابنته. وضع يديه على ركبتيه وتابع يقول:

"نُطالب الجهات المختصة بتوفير خدمات صحية أفضل لمرضى الثلاسيميا. وإيجاد برنامج للوقاية مثل الفحص قبل الزواج. نشن حملات إعلامية للتوعية من المرض. ونعمل على تطوير عمل بنك الدم وتشجيع المجتمع على التبرع. وبدأنا ما يمكن أن تسميه حُلم الأهالي الكبير".

إنتظر قليلاً حتى يرى تأثير ما قاله في سليم الذي كان قد بدأ يستمع باهتمام:

"أن نرسل عدداً من المرضى إلى أوروبا لإجراء عملية زراعة نخاع العظم وبأسرع وقت ممكن".

"هل يُمكِن هذا؟ "سأله سليم.

"حصلنا على منحة من مؤسسة اسمها (آي أم إي) لإرسال ستة مرضى إلى إيطاليا لإجراء عمليات زراعة نخاع العظم".

ثم أمسك بيد الفتاة وقال بِحنان:

"ستذهب مريم قريباً لإجراء عمليتها هناك".

إرتفع صوت بُكاء طفلٍ من الجهة الأخرى، ثم ظهر يركضُ عارياً

في ممر الأسِرة والكانيولا في يده وأمه تصرخ في إثره. تابعهما ثائر بإبتسامة:

"وابنك أيضاً سيخضع لهذه العملية يوماً ما والفرصة كبيرة".

"أخبرني الأطباء بإستحالة ذلك. جابر ليس لديه أشقاء ليتبرع أحدهم له. وإيجاد متبرع من خارج العائلة يُشبه إستخراج إبرة من بحر، هكذا قالوا لي".

"كُلنا سَمِعنا هذا الكلام من قبل. لكن من يدري فقد يكون العثور على متبرع أسهل مما تظن. حاول فقط أن تعثر عليه وستجده، أنا واثق من ذلك".

نظر رئيس الجمعية إلى جابر الذي كان قد رفع ذراعه التي فيها أنبوبة الدم وأخذ يُحرك أصابِعهُ بالتناوب:

"تبدو صحته جيدة. وهذا يعني إحتمالية نجاح عالية جداً لعملية زرع نخاع العظم. لقد بذلتَ جهداً كبيراً لتمنع تدهور حالته. ما عليك فعله الآن هو أن تضيف إلى ذلك جهد البحث عن متبرع".

عادت المرأة والولدُ على كتفها يرفس الهواء بقدميه محاولاً الإفلات. قال سليم ويده تفرك جبهته بحدة:

"سأفعل أي شيء لكن كيف؟".

"الخطوة الأولى أن تملأ استمارات في الجمعية تدون فيها المعلومات الخاصة بابنك. الأعضاء أولياء أمور لمصابين بالمرض أيضاً، وقد تحصل منهم على نصيحة أو معلومة مفيدة. وإذا وجدت متبرعا ستكون لديك أسبقية في الحصول على واحِدة من المِنح التي تقدمها

جهات إيطالية وستساعدك الجمعية في تغطية النفقات إذا لزِم الأمر".

سـحب سليم سجله من تحت رجلي جابر. قلب الصفحات بكثيرٍ مـن الإرتباك. ثم دون شـيئاً قبـل أن يُعيد غلقه ويضعه جانباً. سَـمع رئيس الجمعية يقول بود:

"كل الـذي مـررت به أنـت وزوجتك، مررنـا به نحن أيضـاً. إننا نعيش المأساة ذاتها، كُلنا".

ثم أشار بيده إلى باقي الأسِرة قبل أن يكمل:

"ليـس لدينا سـوى الأمل والإصرار وأياً كانـت النتيجة في النهاية سنكون عِندها قد فعلنا ما بِوسعنا".

تجـاوب معه سـليم بنظرةٍ لِلأعـلى ثم بدعاء قصير. فاسـتغل ثائر انفتاحـه النفسي هـذا وشرع يخبره عن قصة مرض ابنتـه ليُحفزه. بينما كانـت الفتاة وجابر غير المكترثين بـما حولهما يتابعان واحدة من أخيلة الصحو التي يُدمِنانِها.

"كنـتُ أعمـلُ صائِغاً للذهـب وأعيشُ حياةً سـعيدة مـع زوجتي وطفلتي سـارة وهاجر. واسـتمر هذا حتى ستة أشهر من ولادة ابنتي الثالثـة مريم قبـل أن تظهر عليها أعراضُ المرضِ ويسـتقِرَ تشـخيصُ الأطباءِ بعد تخمينات كثيرة على أنها للثلاسـيميا الوراثي. وبسبب قلة خِـبرة البعض منهم حوَّلـوا الفتاة إلى حقلِ تجـارب وأعطاها أحدهم عقاقـير ضـد الأنيميـا فـزادت حالتها سـوءاً. فقدت ثقتي بهـم جميعاً ولجـأت إلى ذاكـرة العجائز وخـبرة العطارين وأدعية شـيوخ الدين، لكـن كل ذلـك لم يوقِـف تدهور صحـة مريم التي توقفـت عن النوم وحتى البكاء".

مرر سليم السواك على أسنانه بسرعة وأعاده إلى جيبه، ثم قال مؤيداً:

"تقريباً نفس ما حدث لنا".

"مرت الأيام والأسابيع على ذلك النحو وأُصيب قلبُها بالتضخُم وعِظامُ جسمها بالترقق والتشوه. وعانت من إلتهابات رِئويةٍ وإنخفاضٍ حاد في مستوى الهيموگلوبين في جسمها فاضطررت للقبول بِواقع الأمر وبدأتُ بإعطائها الدم مرة واحدة كُل ثلاثة أسابيع هنا في مركز الثلاسيما والذي كان قد أنشئَ حديثاً. ونقل الدم كان الإجراء الوحيد الذي يُمكن القيامُ به، فدواءُ الديسفيرال لم يتوفر إلا بعدها بسنتين".

أيدهُ سليم مجدداً بإشارة من يده. فتابع رئيس الجمعية بتأثر:

"كان حُكمها قاسياً بالنسبة لها ولنا جميعاً. وأصبحتُ وزوجتي من روادِ المركز نتصنع التكيف مع الواقع، غير أن عقلي كان رافِضاً ومنشغلاً بالبحث عن بديل. وبعد تغير النظام السياسي في العراق في سنة 2003 وتوفر وسائل الاتصالات والمعلومات وجدت نفسي أمام عالمٍ جديدٍ. نقَّبتُ فيه عن علاجٍ نهائي لابنتي. ولاحت ضالتي حين قرأتُ عن عمليات زراعة نخاع العظم بشرط وجود متبرع به يكون مطابقاً نسيجياً بنسبة مائة في المائة مع المريض".

سمعا صوت بُكاء الطِفل ذاتِه مرة أخرى، لكن أمه هي التي ظهرت وكانت تُحدِث نفسها بصوت مُرتفع وانحنت بحثاً عنهُ تحت الأسِرَّة. فرك ثائِر لحيتهُ الخفيفة ثم رسم على وجهه إبتسامة:

" كانت تِلك بذرةُ أملٍ سرعان ما كَبُرت نبتتها بتوافقنا أنا وصديق

لي هـو والِد مريـض أيضاً على تأسـيس جمعيةِ للثلاسـيميا في مدينتنا. وبعـد فترة وجيـزة إلتحق بنـا (450) من أولياء أمـور مرضى آخرين شـكلوا الهيـأة العامـة وتمكنّـا من تحقيـق الكثير خـلال فترةٍ قياسـيةٍ. حصلنـا على مقـر للجمعية وجمعنا تبرعاتٍ كثيرة لمسـاعدة المحتاجين بتوفـير الدواء والتبرع لهم بالدم. خاطبنا جهـاتٍ دولية وحصلنا على مِنح علاجية من إيطاليا كبادِرة حُسـن نية تمهيداً لاتفاقيات مسـتقبلية بين المستشفيات هناك والمؤسسات الصحية العراقية".

صمت لحظاتٍ، وشع وجهه بالأمل حين قال:

"أما على الصعيدِ الشخصي أصبح حُلمي بعلاج ابنتي قابِلاً للتحقق بعد أن أكد الفحصُ تطابقاً نسيجياً بين مريم وشقيقتها سارة. وكل ما علينا فعله الآن هو إنتظار فرصة للسفر وإجراء العملية".

(جابر)

في سنوات الدراسة الابتدائية الأربع الأولى لم أكن أبالي كثيرا بوقاحة التلاميذ وقلة أدبهم ولا للفارق الكبير بين جسدي الهزيل المتعب وأجسادهم المعافاة وحركاتهم الشيطانية السريعة. لم أكن أشترك في ألعابهم ولا أضحك على نكاتهم أو أشتكي لأحد من تصرفاتهم وهذا ما جعلني هدفا سهلا لحماقاتهم ولعبتهم الجماعية المفضلة في الإستراحات بين الدروس. الصور التي بقيت صامدة في ذاكرتي عن تلك الفترة ترصدهم يتجمعون لمشاهدتي وكأنهم أمام مخلوق غريب في متحف التأريخ الطبيعي.

"أنفه يشبه أنف القرد".

يتذكر أحدهم:

"شمبانزي".

يقولونها سوية:

"شمبانزي".

وينخرطون في نوبة ضحك.

يقول آخر:

"جلده مثل جلد الضفدعة".

يجن جنونهم من الضحك. يصدرون نقيقاً موحداً ويتقافزون بين المقاعد وفوقها. ثم يأخذون قسطًا من الراحة بعد أن يهدهم تعب السخرية مني. ينشغلون بشيء آخر غيري. يتدافعون، يشتمون

بعضهـم البعـض بكلـمات يجربونها للمـرة الأولى ولا يعرفـون معاني أغلبها. يُخرجون أطعمة من حقائبهم، يأكلونها وهم يراقبونني. يقول أحدهم بعد ابتلاعه لقمة كبيرة:

"براطمه مثل براطم الجمل".

يضحكون بشدة، لكنهم لا يعرفون كيف يقلدون صوت الجمل. فيخلطـون بينه وبـين صوتي الحصان والحِمار. يَقترب مني أشـطرُهم. يقِفُ بجِواري فنشـاهِد سـويةً لبعض من الوقت حفلة الاستهزاء بي. ثم يسألني بودٍ ووجههُ الأبيض مستديرٌ نحوي:

"كم تستطيع البقاء دون ماء؟".

****

في الصـف الخامـس، تجنـب بعضهـم الإقـتراب منـي. وتحولت سُـخريتُهم القديمـة إلى اشـمئزاز وأحيانـا إلى حُزنٍ لأنهـم علموا من ذويهـم بأن أصحـاب الجلـود الضفدعيـة لا يُعمِرون طويلاً. وشـاع في المدرسـة بـأن عدوى مرضي المُميـت يُمكن أن تنتقِل بسـهولة مثل الأنفلونزا وأن مكاني الطبيعي هو الحجرُ في المستشفى وليس المدرسة بحسـب شـكاوى تقـدم بهـا لـلإدارة أوليـاء أمـورٍ قلقون مـن خطرِ تواجدي بين أبنائهم.

وخـلال درس العلـوم في الصـف الـذي أنـا فيـه أو الصفـين الآخرَين(ب و ج) كان هنالك وعلى الدوام زُحام سبّاباتٍ مرفوعة في الهواء والكثير من الأسئلة في رؤوس أصحابها التلاميذ بشأن حالتي. وكان المعلِمُ يُجيب عنها بعد أن يرسم بالطباشير صورةً مفترضة لي على السـبورة ويحاول دون جدوى التوضيح بأنني لا أختلف عنهم بشيء

سـوى عدم مقدرة جسـدي على إنتاج حاجته من الدم وطرح الحديد المتراكـم في أعضائـه إلى الخارج. أما في درس الديـن، فقد كُنت عبارة عـن فزّاعـة تخويف ومثالًا واضحًا يشـير له المعلم باسـتمرار لغضب الله في حال لم يلتزم المسـلم بالصلاة وخالف أوامر والديه ومعلميه في المدرسـة. وهكذا بقيتُ طوال العام الدراسي منبوذا وجالسا لوحدي عـلى الرحلة المزدوجـة الأولى الملاصقـة للجدار جهة اليسـار. أقضي وبتواطؤٍ من المعلمين ساعات الدروس اليومية المملة غارقاً في عزلتي وشرودي أو مُستسـلِما لنومٍ عميقٍ تعويضاً عن سـاعات النوم الليلية التي شطبها الديسفيرال.

كُنـت أرى دهشـة تقـتربُ مـن الصدمـة في وجـوه المعلمين وهم يُسـلمونني نتائِج الامتحانـاتِ التحريرية الشـهرية وغالبيتها بدرجة كاملة. فلم يكُن متوقعاً من شـكلي الموحـي بغباء تام تحقيق أي نجاح وكانوا غير متأكدين أصلا من اسـتماعي لدروسـهم. وهذا ما دفعهم إلى فرض رقابة خاصة وشـديدةٍ عليّ خِلال فترة الامتحانات النهائية. فتشـوا ثيـابي جيداً قبـل كل إمتحـان. دققـوا في حذائـي وطلبوا مني خلع جواربي وسـلطوا ضـوء مصباح صغير داخل فمـي وفي فتحتي أذني وأجلسـوني بمفـردي على مقعـد مواجه للسـبورة وخلفي معلم متأهـب لقطع أي امداد غـش متوقع. وكانت النتيجـة أنني حصلت في تلـك السـنة على علامات نجـاح كاملة في جميع الدروس بإسـتثناء مـادة الرياضة التـي كانت ثانوية ومجرد مربع في قائمـة النتائج توضعُ فيهِ الدرجة بحسـب مِزاج معاون المدير، الذي كان يشـغل في الوقت ذاته وظيفة معلم مادة الرياضة والتي كانت في الحقيقة ملغية. ويكتفي خلال الـدروس الأخرى التي يغيـب عنها معلموهـا بإلقاء كرة قدم

وسـط حشـد من التلاميذ في السـاحة، فيطارِدونها بصخـبٍ وأراقبُ أنـا مـن بعيد موجتهم البشريـة تتحرك يميناً ويسـاراً، وفي رأسي تدق مطـارق تحذير أبـويّ من مغبة اللعب بكرة أو بدونها، لأن أي كسر في عظامي الأسفنجية الهشة يعني عوقاً دائماً.

كنت ألمس الدهشة أيضاً في وجوهِ التلاميذ عند عودتي إلى المدرسة بعـد يوم غياب قضيته لإجـراء فحوصات أو المكـوثِ مثل قرادة بلا حراك في مركز الثلاسـيميا ليمتص جسـمي ما في الكيس المعلق فوق رأسي حتـى آخـر قطرة. فلقـد كانت وفـاتي أول شيء يخطـر في بالهم عندمـا تقـع أعينهم على مـكاني الفارغ. والسـؤال الذي يشـغل بالهم طِوال اليوم هو:

"هل سيذهب إلى الجنةِ أم النار؟".

أصدقـاء أبي في الجامـع كانـوا أيضـاً منشـغلين بأمر دخـولي الجنة وكانوا يَستشهدون بي خلال حلقات الذكر كامتحان مكافأته الأكيدة فـردوس أعلى لأبي. وطمأنوه بحضـوري مِرارا بأن كل يوم أبقاني فيه على قيد الحياة أحتُسِـب إرتفاعا بمقدار درجة لمكانتهِ في السـماء وأنني بفضـل صبره وقبولـهِ بقضاءِ الله وقـدرهِ أصبحتُ سـبباً للتكفير عن ذنـوب أعدادٍ لا حصر لها من المتبرعين بالدِماء. لكِنهم كانوا يختلِفون دائماً في تحديد وضعي وأنا في البرزخ أو الجنة.

وقبل أيام قليلة من قيام قوة تابعة للجيش الأمريكي بإنزال جوي وإعتقالهـا الإمام شـجاعًا وفقدان باقي رواد الجامـع للحاهم كإجراء إحـترازي طُبـق في المدينـة بأسرهـا تضمن أيضـاً تطويل الدشـاديش وتقليـص فتحات الأرجل خـلال أداءِ الصلوات في الجوامع. أقيمت

في صالة ضيوف منزلنا حلقة ذكر ما بعد العصر التي كانت تتنقل بين البيوت داخل الحي بدلاً من إقامتها في الجامع بسبب عيونِ المخبرين السريين.

كان معهم شابان غريبان عن المنطقة يتحدثان الفُصحى. عاملاني فور أن شاهدا غرابة شكلي على أنني جثة، كل ما تحتاج إليه هو التكفين والدفن. فقال أحدهما وكانت ملامحِه دقيقة ولحيتهُ مجرد نتف شعر أنني من أهل الجنة بإذن الله وأنه سمع كثيراً عن أخذِ أبي بالأسباب في علاجي مع أنه يعرف بأن أمر الله سابق وأنني سأموت قبل إشتداد عودي. أيده الآخر، وكان حاجباه كثين مُتصلين ولحيته سوداء فاحمة، ثم سألني عن عُمري وهو يدفع برأسه إلى الأمام ويُعيدهُ إلى الخلف مع كل كلمة يقولها كأنه يطبعها في الهواء. وحين أخبرته بأنني في الحادية عشرة إرتفع حاجِباهُ رُبما دهشة من مقدرة شخص مثلي على الكلام. إلتفت إلى الباقين:

"إتفق أهل العلم على أن مصيرَ أطفالِ المُسلمين إذا ماتوا بعد نفخ الروحِ وقبل البلوغ هو الجنة، كرامةً من الله تعإلى لهم ولآبائهم".

أكمل الشاب الآخر مباشرةً:

"أما حالهم في البرزخ فالثابت أنهم بمجرد موتهم يُنقلون إلى الجنة، وأن أرواحهُم تتنعم فيها برعاية من أبينا إبراهيم عليه السلام".

إعترض ملا خليل المعشب:

"النبي ذكر بأن أرواح ولدانِ المؤمنينَ في أجوافِ عصافيرَ تسرحُ في الجنةِ حيثُ شاءت، فتأوي إلى قناديلَ مُعلقة في العرش".

ساد الصمتُ لحظاتٍ. ربما كانوا يُراجعون معلوماتهم بشأن مصيري بعد الموت. ضرب بشير الحلاق أرض الغرفة بكفه وقال:

"ذهب أهل العلم من الصحابة والتابعين إلى أنَّ من مات من أطفالِ المُسلمين قبل بلوغ سن الحلم".

ثم دقق فيّ قليلاً قبل أن يواصل:

"يكونون خدماً لإهلِ الجنة، يطوفون عليهم بالشرابِ والطعام والنعيم، وأولئك هم المذكورونَ في قولهِ تعالى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ".

تمتم بعدها محاولاً التذكُر:

"هذه من سورةُ المائِدة"

بدا الغضبُ على الإمام شجاع. وجلس على ركبتيه:

"بل هي من سورة الواقعة يا حلاق".

سحب الكم الأيمن وذكر بنبرة تحدٍ:

"إذا قامتِ القيامة وبُعث الخلق من قبورهم، بعث الأطفال أيضا على حال طفولتهم وصغرهم الذي ماتوا عليه، فيشفعون لآبائهم ويُدخِلونهُم الجنة رحمةً من الله لهم".

رفع أبي يديهِ إلى حدودِ وجههِ وقال بصوتٍ خافت:

"إن شاء الله".

"ماذا ترى إذن أخي سليم؟"

سأل الشاب ذو اللحية المنتوفة.

فأجاب أبي وكفاه مازالتا مرفوعتين:

"أرى ماذا؟".

فسارع الإمام شجاع على القول:

"أن يمُـن الله عـلى جابِر بشـهادةٍ تُصيـب الكُفارَ المُحتلـين بمقتل، فيضمِن الجنةَ لنفسِه ولكم الشفاعة بإذنه تعالى" .

****

بعـد أن زجـت القـواتُ الأمنية العراقيـة الفتية ومعهـا الأمريكية بالسـلفيين المتشـددين الميئوسِ منهم في المُعتقلات، كشـف الآخرون عن كامـل وجوههم بحلق اللحـى وكان أبي واحداً منهم. إسـتقبلته جدتي يومها عند باب الحمام بالقبلات معبرة عن فرحة استعادته. بينما تغير مزاج أصدقاء والدي في الجامع نحو الجانب الصوفي الذي رعته الدولة وشـجعت عليه. فتبدلـت ملامحِهم القديمـة الغاضبة بأخرى مُبتسـمة على الدوام. كانوا يتجمعون مسـائي الإثنـين والخميس بعد صلاة العشـاء في الجامع وبأيديهم سبح طويلة تمتد أمامهم على سجاد الأرضيـة يذكـرون الله ويـدورون برؤوسـهم وبعضهـم يمـشي على تلك الحالة ويصابون برجفة شـديدة فيسـقطون على الأرض مغشـياً عليهـم ويعـودون لما كانـوا يفعلونـه بعـد أن يسـتعيدوا وعيهم دون تلقي أية مسـاعدة. وذات مرة إنضم إليهم غرباء، شـعورهم مرسـلة ويمشـون على رؤوس أصابعهـم. فجأة خلعوا قمصانهـم وأخرجوا أسـياخاً وخناجِر وراحوا يُدخِلونها في بطونهم ورؤوسـهم ويخرقون بهـا خدودهم. حدث ذلك أمامي وبقيـت بعدها في السرير ثلاثة أيام متواصلـة صريع حمـى الخوف لا أقـوى على إغماض عينيّ خشـية أن

يظهروا لي ويثقبوني بأسياخهم وخناجرهم.

أيوبُ البقال أصبح شـيخ الطريقة ولا يدخل أحدٌ المكان دون أن يطبـع قُبلة على يده. وكان هذا أسـوأ الأشـياء المفروضة عـليَّ بعد إبر الدم والديسفيرال، إذ كُنت أشعر على الدوام وأنا أنتظر دوري خلف أبي. بأن البقال سيُصاب بتلك الرجفة المجنونة وسيأخذ سيخاً طويلاً من أحد أعوانه ويُدخله بطني. وكان هذا كابوسـاً ظل معي لأشـهر، ولم يتوقـف إلا بعد أن تبرع لي بالدم واحِدٌ من ضاربي الأسـياخ. كان الوضع الأمني متدهوراً وخزائن مصرف الدم فارغة. فأخذه أبي معنا إلى مركز الثلاسيميا مباشرة بعد أن لبى في الجامع نداء التبرع وصنف دمه مثلي +A. بقيتُ بعدها وعلى مدى ثلاثة أسـابيع متتالية أذكُر الله بـلا توقـف حتى وأنا غـارق في نومي، على وجهي إبتسـامة العُشـاق وأصـاب بـين حين وآخـر بنوبـات جعلتني أقـوم بحركات جسـدية متواصلة تشـبه الرقص عالجتها أمي بإلقائي على الأرض ودفني تحت الوسـائد والأغطية حتى يعود إليَّ رشـدي. متعتي الأكبر خلال تلك الفـترة كانت بتـولي وضع إبرة الديسـفيرال بنفسي. كُنـتُ أفعل ذلك بمهـارة، بينـما أمـي تراقبني ويدهـا على فمها غـير مصدقة بالنشـاط الطـارئ على كتلة ابنها الجسـدية الصفـراء المتهالكة. ودعت أبي ذات ليلة لمشـاهدة طقوسي في أخذ الدواء، ومـا أن لمحني بعينيه المتورمتين مـن النوم وأنا أغـرِز الإبرة في جلدي ورأسي يتحـرك مثل مهفة حتى رفع يديه قائلا بصوت باكٍ:

"اللهـم اجعلـه ذخـراً لنـا وفرطاً وشـفيعاً مجابـاً. اللهـم أعظم به أجورنـا، وثقل بـه موازيننا وألحقه بصالح سـلف المؤمنين واجعله في كفالة إبراهيم عليه السلام. وقِه برحمتك عذاب الجحيم".

(سليم)

توالت الأخبار من إيطاليا تُبشرُ بنجاح عمليات زراعة نخاع العظم التي أجريت في مشفيي توفيكاتو في روما وسان روفائيل في ميلانو لمصابين أرسلتهم جمعية الثلاسيميا التي تمكنت أيضاً من الحصول على موافقة الجهات الصحية في مقاطعة سردينيا على إستقبال آخرين لإجراء المزيد من العمليات، وهو ما فتح أبواباً واسِعةً من الأملِ أمام المرضى الذين لم تتمكن ترسبات الحديد بعدُ من أكبادهم وقلوبِهم وما زال طحال الكثيرين منهم في مكانه. وعثروا بمعونة من الحظ على متبرع بالنخاع متطابقِ، وذووهم يعدون الساعاتِ والدقائق بإنتظار موعد إقلاع طائرة الخلاص.

وقع سليم تحت تأثير الأخبار السعيدة وبدأ البحث عن مُتبرِع بنخاع العظم لجابر. كتب في سجله أولاً ولدواعٍ جينية بناءً على نصائح من الأطباء، أسماء شقيقاته وشقيقات زاهدة وأبنائِهن والأخوال والخالات وأبناء عمومة أبيه وفروعهم الذين شكلوا جيشاً وزعتهم حربُ الحياة في عموم البلاد. وبعد خيبات نتائج الفحص المتلاحقة أضاف أسماء جيرانهم وأصدقاء الجامع وراغبين بسلام روحي أو بفتح أرصِدة صدقات دنيوية جارية عثر عليهم خلال جولاته اليومية متنقلاً بين الجوامع والمساجد والكنائس.

كان عليه أن يشرح لكل واحدٍ سبب الفحص ويطمئِنه بعدم وجود أي تأثير جانبي في حال تبرع بخلاياهُ الجذعية إن كان هنالك تطابق. ثم يأتي الجزء الأصعب ويشبع فضولهم بسرد تاريخ مرض جابر منذ ولادتِه وحتى آخر كيس دمٍ حصل عليه. وليحصل على تواصُل قلبي

مع الغُرباء، تحديداً كان يبدأ حملة الإقناع بقصة المرض. يُعيد تفاصيلها في كل مـرة مثل أغنية يحفظها ثـم ينتقل إلى باقي الفقرات. وما أن يجد الموافقـة حتى يأخذ المتبرع إلى مختبر الفحـص وبعد حصوله على عينةٍ مـن دمائه، يقـوم بوضعها في ثلاجة صغيرة مـع مكعبات ثلج لضمان عدم تلفها ويُرسـلها بيد معتمـد مقابل أجر إلى مُختبر مُختص بالفحص النسـيجي في بغداد وينتظر أسبوعاً أو أكثر للحصول على إجابة. فعل ذلـك عـشرات المرات على مدى أشـهر عديـدة، وأحيانا كان يرسـل عينات عدة دفعةً واحدةً، وكانت المحصلة دموعاً كثيرة ذُرفت تعاطفاً معه، وفي ذات الوقت حُزمة سَمينة من نتائج الفحص غير المطابقة.

أرخـى مع آخـر نتيجة سـلبية تلقاها حِـزام تشـدده الديني وطبق قاعدة"الضروراتُ تُبيح المحظورات" فقام بشراء هاتفٍ جوال يقتصر استخدامه على التواصل مع المختبر في بغداد لمعرفة النتائج سمعياً قبل أن تصل إليه ورقياً مع المعتمد لكسب الوقت. وإرتاد مقهى قريباً من المستشفى يعرض فيه هاربون من الفقر دماءهم وأعضاءهم الداخلية للبيع. لازم المكان من الصباح حتى المسـاء طوال أسـابيع. قضى أول أسـبوع منهـا محاولاً إثبـات عدم خطورته على السـوق غـير المرئية في المـكان. وأنـه ليس عينـاً للشرطة أو عضـواً في واحدة مـن الجماعات المسـلحة المنتشرة في الشـوارع. وبعد أن ظهروا له واحداً بعد الآخر. دخل معهم طرفاً مرناً في مفاوضات عرضٍ وطلبٍ سريعة أجراها مع خمسة أشـخاص أرسل عينات دمائهم سوية. ودون أن ينتظر الإجابة عنها أرسـل عينات سـتة آخرين عـلى ثلاثِ مراحـل. وحين تلقى في آخر يوم إتصالا مُحبطاً بشـان آخر نتيجتين. صعد على مائدة في وسـط المقهى وأخذ يطرق بملعقة صحن الشـاي للفت الانتباه. وحين تأكد

مـن أن الوجـوه جميعها تتابع حركته المجنونة، أعلـن عن مكافأة مالية مِقدارهـا عشرون مليـون دينار لمُتبرعٍ يتوافق نُخاعـه مع جابر مائة في المائة. وصاح بأعلى صوته:

"الحاضِرُ يُبلغ الغائب والموعِد هُنا يوم غد".

وبعـد أن دفعه صبـي المقهى إلى الخارج مهدداً إياه بعصا المكنسـة الطويلـة. سـار سـليم يُكلم نفسـه قاطعاً الشـارع بهدوء نحـو الجهة الأخـرى والمركبـات تحـاول تفادي صدمـه. وما أن وضـع قدمه على الرصيـف حتى عاد يركض نحـو المقهى. صعد على المائدة ذاتها بقفزة سريعة وسط ذهول الجالسين. صاح وهو يشد قبضتيه:

"خمسون مليون دينار لمن يتبرع لابني".

ثم جلس على ركبتيه خائر القوى يتوسل:

"سأبيع كُل شيء أملكه. أرجوكم لا أرُيده أن يموت".

(جابر)

في الصفِ السادس الإبتدائي صار لديَّ أول صديق حقيقي، إسمه وليد. كان قد انتقل مع أفراد عائلته الصغيرة للسكن في الحي المجاور لحينا قادمين من بغداد. وعلى الرغم من أن التوزيع على الصفوف يكون بحسب الحروف الأبجدية. وكان يفترض إلحاقه بالصف(ج) لأن أسمه يبدأ بحرف الواو، غير أن المدير صاحِب الكرش الكبير والخدين المنتفخين مثل كرتي عجين جعله في صفي وأجلسه على المقعد المجاور لي. وقدمه يومها للصف بكلمة موجزة قبل بدء درس الرياضيات:

"زميلكم الجديد وليد كامل عزيز إنتقل إلى هنا من مكان بعيد ومن الجيد وجوده في صفكم لكي لا يشعر جابر بالوحدة".

كنت الوحيد الذي فهم على الفور ما يعنيه المدير. إذ كان وليد معلقاً على عكازين بسبب شلل الأطفال الذي عطل نمو رجله اليمنى. ووجوده معي على رحلة واحدة وفي ذات الصف يعني نشوء علاقة صداقة مؤكدة بيننا، وفقاً لقاعدة (العاهات تتجاذب). وعملياً هذا ما حدث بعد ذلك بالفعل. أصبحنا صديقين مقربين وتجاذبت عاهتانا.

بِخلاف استسلامي التام لواقع فرضه عليّ مرض الثلاسيميا بقوانينه الصارمة التي يعني خرق أي منها موتاً محتماً. كان وليد متمرداً على إعاقته ويسخر منها بنفسه بهدف إخفاء الفوارق بينه وبين أقرانه، أو في الأقل التقليل منها لتبدو مشاجرات فرض الهيبة الطفولية التي دخلها طِوال تلك السنة متكافئة. لكِنها في حقيقة الأمر لم تكن كذلك

مطلقاً. فنحافته المفرطة التي جعلته مِثل مِسطرة دقيقة وتلك النظارة الطبية الكبيرة سوداء الإطار التي أكلت نِصف وجهه وصوته الذي يشبه صوت طفل قد فُطم للتو، لم تكن سوى أدواتِ تمويهٍ ولم يكُن التلاميذ المُتنمِّرون عاثرو الحظ في مدرستنا يَكتشفون ذلك إلا بعد فوات الأوان ووقوعهم في مصيدته. فقد كان العكازان يرتفعان أولاً ويبلغان حدود السقف فيبدو وليد مثل فرس نبي عملاق في وضعية انقضاض ويتحول صوت الطفل مع بدء الإشتباك إلى ما يشبه النباح الجنوني المتواصل. ثم يحدث كل شيء بسرعة خاطِفة. يُسمع قرع ضرباتِ العكازين على الرؤوس ومعها صيحاتُ الألم ونداءات الاستغاثة. وما أن يجد الضحايا فسحة للهرب عبر الباب المواجِه للساحة مباشرة، حتى ينطلق بأثرهم على قوائمه الثلاث ورجله الميتة خلفه مثل ذيل قصير.

سرعان ما أصبح وليد درعي الحصين في المدرسة. وخارجها تعديلاً على قانون تقييد الحرية الذي كان قبل ظهوره غير قابل للخرق في معظم الأشياء الطبيعية التي يفعلها الصبية الذين في مثل سني. فسُمح لي وللمرة الأولى بحياتي السير وحيداً لشارعين كامِلين من أجل الوصول إلى منزله وقضاء ساعات ما بعد صلاة الجمعة في مساعدته على صنع أكياس ورقية صغيرة إنتزعها من مجلات وكتب قديمة. كانت تملؤها له أمه ببذور عباد الشمس فيبيعها كل يوم أمام باب منزلهم الصغير المستأجر تخفيفاً من حالة الفقر الشديدة التي عانت منها عائلته بعد أن أودعت السلطات قبلها بسنوات ولأسباب مجهولة أباه معتقلاً لم يخرج منه أبداً. واضطرت أمه إلى بيع خُبز التنور للناس والخدمة في منازلهم. وإنتقلت من بيت لآخر يطاردها غلاء

المعيشة في العاصمة قبل رحيلها عنها مع وليد وشقيقتيه الأكبر منه إلى الموصل وتبيع خبزها في سوق المدينة القديمة.

سـمح لي أبواي في العطلـة الربيعية بجولات صغـيرة داخل الحي برفقـة وليد الذي تحـول لمهنة بيع الخضار على عربة دفع خشـبية جال بهـا صباحاً بالقـرب من بيتنـا وابتعد بعدهـا لوحده يطـوف الأحياء المجاورة حتى المساء. كان يقفز على رجله السليمة ويداه تقبِضان على العربة وصوته الذي بالكاد يُسمع يردد كلمتين لا غيرهما:

"خيار... طماطم".

لم أشـكل أيـة إضافـة إليه باسـتثناء فائـدة قدمتُهـا في الإمتحانات الشـهرية التي اعتمد بها عليّ في سـنة زمالتنا اليتيمـة. ماعدا ذلك كان وليـد في تلـك الفترة هو مخلِّصي من السـجن المنـزلي الخانق، والوحيد القـادر عـلى إخراج الضحكـة المختبئة في جوفي ونافـذتي الخاصة على عالم حجبه عني المرض وتشـدد عائلتي الديني الذي حَرمت بموجبِه التلفزيون والراديو والأنترنيت وتعليق الصور لأنها أشـياء تتدخل في شؤون الخالق.

أخبرني ذات مـرة بأنه يحلم أن يُصبِح طياراً. أضحكني ذلك كثيراً لأننـي كُنت أعتقِـد بأن الطياريـن يَمتلِكـونَ قُـدراتٍ خارقة تجعلهم يتمكنـون من التحليق في السـماء بطائرات تجر خلفهـا خيطي دخان. وأخرى شبحية تظهر وتختفي، ولا يفصح عن وجودها سوى ما تلقيه من قنابل.

لكِنـه أصر عـلى حلمـه وأخذني معـه في رحلات جويـة إلى أماكِن بعيـدة جداً فـوق الغيـوم. كل شيء فيهـا مُختلف عن مكاننـا. أرضها

القطنية التي يمكن الإمساك بها، أشكالُ الناسِ، لُغاتهم، أطعمتهم، مركباتهم، ثيابُهم، مبانيهم، حتى حيواناتهم. سألته وأنا أدخل الحُلم بكامِل دهشتي:

"هل نجِد هنا علاجاً لنا؟".

رفع بإصبعه الرفيعة نظارته إلى أعلى أنفه. إتسعت عيناهُ وهو يقول:

"كل ما يُمكِنُك تخيُله قابلُ للتحقُق هُنا".

"هل يمكن أن أعيش ذات يوم بدون نقل دم وحقنِ الديسفيرال؟".

"سيحدث هذا. وأنا سأمشي على قدميّ ولن أحتاج إلى عكازين أو إلى طائرة".

ثم أشار إلى خيطين بيضاوين متوازيين مرسومين على صفحة السماء. وعندما عدت ببصري إليه كانت يداه تنسحبان للتو من مسح دموع تسللت من تحت عدستي نظارته.

****

جرب وليد، مِهناً شاقةً عديدةً قبل أن يقتنِع في نهاية مطاف تجربة كل منها بأنها لا تتوافق مع بُنيتهِ الجسمانية غير المكتملة. لكن لم يمضِ وقتُ طويلُ حتى وجد الوظيفة التي خُلقَ من أجلها حين قبِلهُ مجمعٌ تجاري للألبسة الرجالية بوظيفة مسائية كبائع في قسم الثياب الداخلية. تمكن خلال أسابيع قليلة فقط من تحويل المكان إلى مسرح يجذِب الزبائِن لإطلاقه أسماء ترويجية مُضحكة على السراويل، إخترع قِسما منها والأخرى وصلت أسماعه أيام تجواله الخائبة مع الخضار في

الشوارع. لتُصبح فيما بعد ماركاتٍ رائجةً ومطلوبةً في السوق بأسره.

إصطحبني معه ذات يوم إلى محل عمله. وكان داخل معرضٍ واسعٍ ومزدحم للألبسة الرجالية. عبارة عن زاوية من الرفوف وصلت لحدود السقف إمتلأت بألوان وأشكال مختلفة من السراويل المستوردة وعلى أغلفتها الأنيقة صورٌ لرجالٍ مفتولي العضلات بسراويل بدت مرسومةً على أجسادِهم. أجلسني على كُرسي صغير بلا مسندين وبدأ عرضهُ اليومي وتجمهر العديدُ من الشُبان لمشاهدته.

استند على عكازه الأيمن ورفع سروالاً قطنيا أبيض اللون فوق الرؤوس. وصاح بأعلى صوته:

"هذا اسمه (يسترني)".

ضحك البعض بشدة. وسأله أحدهم:

"لماذا سمَّيته (يسترني)؟".

فقال وهو يشير ناحيته بالسروال:

"لأنه فضفاض، يصِل إلى حدود الرُكبة ويستِر العورة".

دار بخفة على رجله السليمة وأخذ مجموعة أخرى من السراويل وراح يُعرِف بِها:

"هذا اسمه (يريحني) ملمسه قطنيٌ ناعِمٌ ويتكيفُ بحركة مطاطية مع المؤخِرة. وهذا (يدوخني) لكونه وعلى العكس من (يريحني) ضيقٌ ويَضغطُ على الأردافِ بشدة في أول يوم استخدام. لكن إطمئنوا يُمكنكم التعود عليه بمرور الأيام. أما هذا فاسمه (يسليني) مصنوعٌ من القُطن المِصري، سيشعر مرتدوه بِبرودةٍ تُخفف عنهم

حرارة الصيف وعرقه الذي لا يُحتمل".

مشى يدق الأرض بعكازيه ثم بشطحة نعله الوحيد وإختفى لوقت قصير خلف أعمدةٍ من الثياب على نضد في الجهة الأخرى، بينما كان الزبائِنُ يتابعونَ بإهتمام ووجوههم باسمة تفاصيل العرض الحي. عاد ومعه مجموعة أخرى من السراويل. قال بأن لديه تشكيلة كاملة من ألوانها. ثم اتخذ شكل وقفته الأولى شارحاً التفاصيل والكل من حوله يضحك حتى العامِلون معه في الأقسام الأخرى الذين سبق لهم وأن شاهدوا العرض مرات كثيرة:

"(يساعدني) سِروالٌ عَمليٌ مُزودٌ بسحاب من الأمام لِتسهيل قضاء الحاجة. والآخر (يهويني) مصنوعٌ من البولستر وفيه فتحة أمامية تسمح بالتهوية. ويوجد لدي (يحيرني) تصميمهٌ غريبٌ بعض الشيء فلا هو بقصير ولا هو طويل ولكنكم ستحبون إرتداءه. والأخير (يضيعني) قريب الشكل من (يسترني) لكنه يحتوي على جيب صغير يكفي لإخفاء أوراق نقدية او أشياء ثمينة صغيرة".

ثم اختتم العرض بإعلان تحمس له الحضور:

"أشترِ ثلاثة من أي نوع وادفع ثمن اثنين فقط".

****

بحلول الخريف أفشيتُ لوليد بسري. كُنا جالسين على الرصيف أمام منزله بعد عودتنا من جولة تسكع قصيرة كما اعتدنا عصر كل جمعة وهو يوم عطلته. وكنتُ حزيناً لقرارهِ الاستمرار بالعمل وإضطراري للذهاب وحدي إلى المدرسة المتوسطة. قلت له بأنني أحصل مع الدم على ذاكرة المتبرع وأستطيع الشعور مثله والقيام بما يعرفه خصوصاً

في الأسـبوعين الأولين ثم يأخـذ ذلك بالتلاشي تدريجياً في الأسـبوع الثالـث ولا يبقـى منه سـوى ذكريات بعيـدة عندما أتـزود بالدم مرة أخـرى، ليبـدأ الأمـر مجـدداً لكن مع شـخص آخـر. قلت هـذا دفعة واحدة وبنبرة واثقة. وربما شكَّل ذلك خروجاً عن نطاق بلادتي، لأن وليدًا نهض ووقف مع عكازيه على إسفلت الشارع أمامي مباشرة، ثم مال نحوي يسألني بلكنة مضحكة:

"ومن تكون هذهِ المرة؟ ".

فأجبت مقلداً زملاءنا المشاكسين:

"جابر جلد الضفدعة. الصف الأول متوسط".

فكر قليلاً ثم قال بجدية:

"هذا يعني أنك لم تشـاهد كل تلك الأفلام السينمائية التي حدثتني عنهـا ذات مرة. ولم تقـرأ كتاب ألف ليلة وليلة. ولا تعرف شـيئاً عن محركات السيارات والرسم على الزجاج. ولم يحدث أن سبحت في نهر دجلة من بداية المدينة حتى نهايتها".

هززت له رأسي. فسألني بالجدية ذاتها:

"لكنك لا تنسى ما تسمعه أو تشاهده أبداً".

أجبت بخجل:

"لا أعرف، ربما أنسى بعض الأشياء".

سأل مجدداً:

"والمتبرعون؟ ".

"بمجـرد أن يسـير دم المتبرع الجديد في جسـمي يحتل مكان الأول الذي يتحول كل شيء عنه إلى ذكريات. مثل ذكرياتي".

فقال مُعترفاً:

"عـلى أيـة حال، أنـا لم أكن أصدق كل مـا تقوله عن الأشـياء التي تدعي بأنك فعلتها".

وقبل أن يُكمِل، رفع عكازه الأيمن إلى الأعلى وصاح محتفلاً:

"في الأقل أنت حِمارٌ مثلي في الرياضيات والعلوم واللغة الإنكليزية. ولم يكن أنت الذي يُساعِدنا في الإمتحانات ".

وعاد ليقول مازحاً بعد استراحة صامِتة:

" يجب أن أقنع مديري الغني بأن يتبرع لك بالدم. فتعرف أين يُخبِّئ نقوده ونصبح أثرياء".

(سليم)

وضع سـليم يده على جبهته محاولاً التذكر عندما سـأله ثائر رئيس جمعية الثلاسـيميا عن أعداد العينات التي أرسـلها للفحص. وأجاب غير متأكد:

"ربما أكثر من مائة وخمسين".

"أعـرف أشـخاصا أجـروا أضعـاف هـذا العـدد مـن فحوصاتِ التطابُق النسيجي ولم يَجِدوا تطابقاً كاملاً".

وتابع ثائر بِثقة:

"وربـما لـن يجـدوا حتى لـو أجـروا مليون فحـص. فمـن الناحية الوراثيـة الناس مختلفون عـن بعضهم ماعدا التوائـم المتطابقة. وإن لم يكن للمريض توأم، فعليه التفتيش عنه أرجاء العالم وقد لا يجده أبداً".

فكر سليم بعبارة أرجاء العالم قليلا قبل أن يسأله:

"ألا يمكن وبطريقة ما إيجاد متبرع من خارج البلاد؟ "

شرح له ثائر صعوبة الأمر لكون العراق ليس عضوا في بنك نخاع العظـم الـدولي. وقبلها لم تقم المؤسسـة الصحية فيه بتأسـيس سـجل وطنـي للمتبرعين. لذا يعتمد أهالي المصابـين بالمرض على إمكانياتهم البسيطة في غالب الأحيان ويعولون على إيمانهم في الإستمرار والكثير من الحظ.

"أنا أعول على إيماني بالله، وليس هُنالك ما يُسـمى حظ أو صدفة. كل شيء مكتوب على جبين الإنسان منذ ولادته وحتى مماته".

قـال ذلك للإفلات من قيد الإحبـاط ومازالت كلمتا أرجاء العالم تدوران في ذهنه.

إزدحـم مقـر الجمعية في ذلك اليـوم بأولياء أمور مـرضى يُحدِّثونَ معلوماتِهم ويأخذون حصصهم من جرعات الأمل بعد عودة مرضى آخرين معافين من إيطالياً مع المتبرعين لهم وكلهم أشقاء. وكانت من بينهـم مريم التـي أجريت لها عمليـة زرع النخاع في مستشـفى مدينة بيـزارو. فقرر والدها تعبـيراً عن إمتنانه، تسـخير المتبقي من عمره في خدمة مرضى الثلاسـيميا وتوفير الدعم اللازم لهم. وكان هذا سـبب استدعائه لسليم ذلك اليوم.

"الفرصة سانحة الآن أمام إبنك لإجراء العملية". قال ثائر مضخماً صوته ووضع أمامه قائمة بأسماء ثلاثين مصاباً بالمرض وترتيب جابر الثالث والعشرون. ظل يتابع تأثير المفاجأة على سليم الذي قاوم عبرة البكاء بصعوبة وهو يُشـاهد اسـم إبنه وتحتهُ خطٌ أخضر. فرك جبهتهُ بإصبعين، ثم رفع يديه معلناً عجزه.

"سـليم، لقد كُنت هناك في ايطاليا خلال الأشهر المنقضية وعشت تجربة إجراء العملية لإبنتي وشـفائها من مرضها. هو أمر تحقق وليس مجرد أمنية أو حلم. وهذا يعني بأنه سيحدث لإبنك أيضاً".

لم يجد ما يقوله فعاد ثائر ليؤكد له:

"سنرسـل هـذه الأسـماء إلى إيطاليـا مع السـير المرضية. وسـتقرر المستشفى هناك من تجرى لهم العمليات ضمن الحصص المقررة حالياً في المنحة وسـينتظر الباقـون مواعيد تُحدد لاحِقاً. هم سـيختارون بلا شـك مـن لديهم متبرعـون جاهزون ولكن هـذا إجراء قـرره أعضاء

الجمعية لتجد الفرصة متاحة وتستغلها مباشرة حين تجد متبرعاً".

وتابع تفاؤلـه وأخبره عن التقرير المفصل الذي كتبه الطبيب زهير وتوقـع فيـه بناءً عـلى حالة جابـر الصحية نسـبة نجاح كبـيرة لعملية زراعـة النخـاع في حـال أجريـت له خلال فترة قريبة بسـبب سـلامة أعضائه الداخلية وعمره المناسب. وإن الجمعية مستعدة لإستحصال الموافقات الرسمية وتأشيرات السفر إلى إيطاليا وتوفير تذاكر الطيران ذهابا وإياباً لشـخصين مرافقين مع جابر. وتأمين السكن المناسب لهم بالقرب مـن المركز العلاجي هناك والتعاقد مع مترجم يتواجد طوال فترة العلاج التي قد تسـتغرق سـتة أشـهر وربما تطول أكثر من ذلك. إضافـةً إلى تأمين عـودة ثانية للمركز العلاجي هناك بعد سـنة واحدة من إجراء العملية للتأكد من نجاحها.

في تلـك الأثنـاء كان ذهن سـليم يمرر وجـوه من يعرفهـم، فربما شـطب النسـيان أحدهم ولم يطلب منه شيئا من نخاعه وأحس بذلك الانقِباض في صدره كُلما حاصره تأنيب الضمير المزمن.

"أنـت لا تفهم يا ثائِـر، لقد فعلتُ ما بوسـعي. تَحدثت إلى كثيرين جـدا. ذهبـت إلى كُل الأماكِن التي أسـتطيعُ الوصـول إليها لكن بلا فائدة".

أشار إلى الورقة بعينين دامعتين:

"هـذا لا يُفرحني. بل يقتلني لأنني لم أسـتطع إيجاد متبرع، وها أنا أتحمل سبب عدم شفائه بعد أن كُنتُ سبباً في مرضه".

ضم ثائر يديهِ إلى صدره وقال بصوته المعتاد كأنه نائم:

"الحلُ بيديك أنت وليس بأيدي جميع من طلبت مساعدتهم".

"كيف؟ "سأله سليم وكفه ملصق بجبهته.

نهض رئيس الجمعية ومشى خطوات دار بها حول مكتبه، ثم جلس على الكرسي المقابل له وقال وهو ينظر في عينيه:

"كان والدي الذي علمني مِهنة الصياغة يقول لي حين يضيع مني شيء خلال العمل وأعجز عن إيجاده. فتش أولاً في المكان الذي أنت فيه، فلربما يكون بين يديك دون أن تدري".

ثم سأله وهو يُطبق كفاً بكف:

"هل فكرت بإنجاب طفل آخر".

(جابر)

"لا شيء يقتل السيد حازم". همست جدتي وتلفتت خوفاً من أن يستمع جنيٌ ما إلى تلك النميمة وينقلها بسرعة البرق للعراف خارق القدرات، كاشف سر الموت ومحدث المعجزات. كان يفوح منها خليط من روائِح دهن"فيكس" والشاي المهيل وصابون لاكس. وتستعد للدخول في غيبوبة صلاة العصر.

وضعت يدها بِرفقٍ على كتفي ومالت برأسها نحوي فطغت رائحة الشاي:

"أعرف كثيرينَ من أهل الإيمان يقسمون بالقرآن أنهم شاهدوه ميتاً مراتٍ عديدة. وأنهم صلوا عليه في الجوامع والمساجد وساروا في جنازاته وأهالوا بأيديهم التُراب على قبوره. وحضروا مجالس العزاء على روحه. لكنه وسبحان الله القادر على كل شيء يعودُ مرة أخرى سالماً معافى".

إرتسمت على وجهي الإبتسامةُ غيرُ المسيطرِ عليها المعتادة. عدتها جدتي سخرية من كلامها. ألقت سبحتها الطويلة بعنف في حجرها وارتفع صوتها الغاضب:

"أنت أحمق ولا تعرف شيئاً عن هذه الحياة".

لاح رأس أمي من فُرجة بابِ المطبخ. وضعت سُبابتها على فمها مشيرة إلي بالتزام الصمت وعدم الرد. لم تكن لديّ عملياً أيةُ نيةٍ لقول شيء حتى وإن لم يكن عقل جدتي قد تبخر بسبب الشيخوخة وحفنات الأدوية التي تتناولها. فلقد كُنتُ مشغولاً بحاسة الشم المتضخمة فجأة لدي ومستمتعاً بمقدرتي الفائقة على فرز الروائح

وتحليلها، البعيدة منها والقريبة. ومنح بعضها أسماءً لم أكن حتى قد سمعت بِها من قبل. وكان هذا الشيء الأكثر وضوحا الذي أنتقل إليَّ من آخر كيس دم حصلت عليه. إذ لم أستطع معرفة تفاصيل كثيرة عن المتبرع، لأن ذكرياته وبخلاف الآخرين كانت مثل ضبابٍ كثيفٍ بلا وجوهٍ ولا أشكال. روائح فقط، لا غير.

رجع لصوت جدتي أُلفته وكأنها تذكرت فجأة بأنني شخص نِصفُ ميتٍ ولا يمكن الاعتداد بتصرفاتي.

"السيد حازم رضوانُ الله عليهِ ورث كراماته عن والده قُدس سِره الطاهر. وأهمها حصانة من الله وحِرزٌ من القتل. فهو من نسل لا يموت الواحد من أبنائه إلا بأمر من الله وهو مطمئن هانِئ في فراشه".

سمِعتُ أمي تسعُل في المطبخ. بينما كانت جدتي تبلع ريقها للمواصلة:

"الأكبر مني سناً أخبروني بأن والِد السيد دوخ الدولة العثمانية وأتلف أعصاب السلطان شخصياً. الذي احتار في كيفية التخلص منه. إذ لم ينفع معه الشنق بالحِبال وتركه معلقاً في المشانق حتى تتخطف الطيور لحمه وتتساقط عظامه فتتلقفها الكلاب السائبة ولا يظل منه سوى جمجمته وشيء من عموده الفقري. ولم تجدِ محاولات تسميمه وحز رقبته بالسيفِ ودفنه في قبر من القير الساخن أو إلقائه من فوق جبل نفعا. كما لم تكن لتقِف بوجهه قضبان السجون ولا جدرانها. وعندما أدرك السلطان عجزه عن قهره، أصدر بدهاء ومكر السلاطين عفواً عنه وأمر بمنحه قصراً كبيراً في الإستانة. لكنه رفض الأعطية وآثر البقاء في الموصل حتى قضى الله أمره. ودخل قبل ذلك في خلوة استمرت أربعين ليلة هدته لتوريث علمه وطرقه الحافظة

للـروح والبـدن إلى واحد من بين أبنائه العشرة دون غيره وهو السـيد حازم" .

بصقتْ جدتي في ثوبها فثارت رائحة بخور الحلتيت وحلقت معها روائح أعشـاب السدر والعوسـج وكف مريم وشيء قليل من رائحة النفتالين. استغرقت في دعاء صامت نصف مغمضة العينين والسبحة تـدور بين أصابعها وتتدفق منها رائحة الصابون. فتحت عينيها فجأة كأن شـيئاً مفزعـاً أيقظهـا مـن نـوم عميق وانتبهـت إلى أننـي مازلت موجودا بجوارها أتشمم الهواء وأصدر صوتاً يشبه المواء. مال رأسها مجدداً نحوي:

"هـذا وليٌ مـن أولياء الله الصالحين. ويعـرفُ الكثيرينَ من أولئك الذينَ لا يجوزُ لنا ذِكرُ أسمائِهم وقد يساعدون في شفائك".

"مـن هم؟" سـألتها دون اهتمام وأنا أدير قبضة يـدي أمام وجهي بينما كان ذهني منشغلاً بمتابعة الروائح المنزلية.

فأجابت بحماسة فاترة:

"الأفضل منا. الذين يروننا ولا نستطيع رؤيتهم".

بعدها بأيام، كُنتُ أسـير خلف أمي ممسِـكاً عباءتها وجدتي تقودنا متمايلـة بين صفين متقابلين من نسـوة غطين وجوههن وجلسـن على أرضيـة ممر ضيـق وطويل ينتهـي بباب غُرفـة العراف حـازم المؤصد والمطلي بلون أخضر فاتح ولا يسمح بتجاوزه إلا بعد إظهار قصاصة ورقية تُسلم في الخارج مكتوبٍ عليها وبخط رديء رقمٌ يحدد تسلسل كل زبونة. وكان رقمنا واحدًا وعشرين.

راقبتنـا العيـون بتوجس ونحن نفتِـشُ عن مكانٍ شـاغر. فمعظم

المتواجدات وبحسب نميمة هامسة من جدتي لأمي، جئن للاستنجاد بقدرات العراف الخارقة لعلاج قلبي يعيد الصفاء بينهن وبين أزواجهن أو يعيد بها الحياة لأرحامهن الميتة أو لتوسيع أسِرة العانسات منهن. وأيةُ وشاية بتواجدهن السري عند العراف قد تتسبب لهُن بمشاكل عائلية وخيمة العواقب.

كُنت الذكر الوحيد في المكان. وما أن وجدنا مكاناً نجلس فيه حتى حشرتني جدتي بينها وبين أمي دفعاً للحرج الأنثوي الطاغي. ثم رشقت جارتها بأسئلة تعريفية، مما أضفى جواً من الطمأنينة تحررت به الوجوه من المناديل وأطراف أغطية الرؤوس ومدت ثرثرة ما قبل وصولنا خيوطها مجدداً ولم توقفها مؤقتاً سوى الفتح المتكرر لباب غرفة العراف وخروج نساء مشين في الغالب مسرعاتٍ وأعينُهن في الأرض، تلاحقهن روائح البخور والزعفران. أو دخول أخرياتٍ وعلى وجوههن لهفة كأنهن سيواجهن ضريحاً مقدساً في الداخل.

اختنق الممر بالروائح وقضيتُ الوقت بأسره أفك حصارها عني وأربط كل رائحة بصاحبتها من خلال نظراتٍ سريعة خاطفة ألقيها أمامي أو من جهة جدتي اليمنى وأمي من الجهة الأخرى. روائح دماء الحيض والعرق وقطرات البول وحبيبات البراز العالقة في الثياب الداخلية كانت الأكثر وضوحاً وإنتشاراً. وبدرجة أخف روائح الأفواه والحناءِ وطلاءِ الأظافِر ومساحيق التجميل والغسيل وزيت الطعام ووقود التدفئة ومعطرات الجسم والبهارات.

حافظت الروائح على نسق ثابت بخطوط متوازية، تكبر وتصغر بحسب قوتها. بدأت من مصدرها وصولاً لأنفي. لكن ما أن فُتح أيٌّ من بابي الدخول إلى الممر أو غرفة العراف حتى مزجها تيار هوائي ودفعها متداخلةً لتدور مرتطمة بالجدارين والأجساد. ارتفعت

وانخفضت بعنف قبل تقلص امتداداتها وعودتها إلى حالتها الأولى. وعدت أنا إلى سكينتي، مُغمض العينين وأرنبة أنفي تنقبِض وتنبسط وفي رأسي عالم من الروائح والصور والأحلام.

كانت جدتي قد زارت العراف قبلها بيوم وأخذت معها قميصي الأبيض ليبيت عنده ويجري عليه فحوصات روحانية قبل معاينتي المباشرة. وقالت بأنه سيضع اليوم حداً لمرضي اللعين بعد سنواتٍ من الاتكال على الأطباء الحمقى وعلمهم الدنيوي عديم الجدوى. وحذرتاني هي وأمي بشدة من إعلام أبي بأمر زيارتنا تلك، لكون الإمام شجاع وغيره من أصحاب الدشاديش القصيرة قد غسلوا دماغه وسيصف ما فعلناه بالكُفر.

لم أكن أفهم وأنا في تلك السن الصغيرة ماذا تعني بالضبط كلمة كُفر. ولم أسألهما كيف غُسِل دماغ أبي ولماذا يفعل أصدقاؤه في الجامع ذلك. كل ما فكرت به في ذلك الوقت هو التخلصُ من إبرتي الديسفيرال والدم. وراودتني أفكار حُلمية بأنني أجري سريعاً خلف كرةٍ في ساحة المدرسة وأقود دراجة هوائية في شارعٍ طويل بعيدٍ عن بيتنا. وتصالحت مع وجهي في المرايا وفي عيون النَّاس وبدأت أنظر إليها مباشرة دون خجل. وعندما حان دورنا للدخول إلى غرفة العراف، شعرت مع الاقتراب من الباب الأخضر ذي المقبض الذهبي المعقوف بأنني على بعد خطوات من العالم السحري الذي تحدث عنه وليد وقال بأن أحلامنا يمكن أن تتحقق فيه. وتضخم بداخلي أمل خروجي منه ولداً آخر بجلد صاف وأوردة مليئة بالدماء وعظام سليمة غير قابلة للكسر.

قُلت لأمي بفرح وأنا أحرك رأسي بسرعة محاولاً التخلص من الروائح التي تلاحقني أن الله قد استمع إلى دُعائي الليلة الفائتة

وسأشفى اليوم. لكِنها جرتني معها للداخل دون أن تنطق بشيء محاولةً البقاء ضمن مسار جدتي التي سبقتنا ووجدناها أمامنا تتعوذ من الشيطان بصوت خافتٍ وجسدُها منحنٍ بتحية للعراف ضخم الجثة الجالس في نهاية الغرفة على كرسي خشبي وذراعاه على مسنديه المرتفِعين وأمامهُ طاوِلة دائرية مُنخفضة مكسوة بطبقة من الرمل.

كانت الغُرفة مستطيلةً وواسعة وقليلة الإضاءة بنحو متعمد. إذ كانت ستائرٌ سميكة تغطي النافذة الوحيدة على جهة اليمين وفانوسٌ نفطي صغير معلقٌ على الجدار جهة اليسار لم يكن ضوؤه المحتضر كافياً للكشف عن كامل محتويات الغرفة. حتى أن ملامح العراف غابت لحظة أغلقنا الباب خلفنا، لهذا بقيت جدتي على إنحناءتها لبعضٍ من الوقت قبل أن يصدر عنه ما يشبه صوت جرش القمح ويأذن لنا بالجلوس على أريكة تُقابله.

إستقبل أنفي سريعاً روائح الحلتيت والسدر وكف مريم والعوسج ذاتها التي كانت تفوح من جدتي قبل أيام في المنزل. ومع تكيُف عينيّ على العتمة النسبية وإتضاح الرؤية شيئًا فشيئًا كنت قد أحصيت روائح أخرى عديدة، الزعفران أكثرها حدة ثم الزعتر والكمون والقرنفل والبيبون وعرق السوس وروائح عرق أجساد بشرية ميزتُ عدداً من صاحباتها اللواتي رأيتهن جالساتٍ في ممر الإنتظار بالخارج.

حرك العراف ذراعه اليمنى مشيرا بها نحوي ثم سمعت صوته ثقيل النبرة يقول لي:

"سأخلِّصك من مرضِك يا بن زاهدة".

في أثناء ذلك وصلتني رائحة عرق تحت إبطه، فأجبرتني نتانتها على حبس أنفاسي لحين إنتهاء غارتها. ردت جدتي بتوسل:

"إن شاء الله بفضل علمك وبركات أهلك الصالحين".

أخذ من فوق الدولاب بجواره عصًا صغيرة بحجم قطع السواك التي كان يضعها أبي وأصدقاؤه في الجامع بجيوبهم. ثم أخذ يرسم أشكالاً بها على الرمل فوق الطاولة وتمتم بكلمات غير مفهومة. استغرق ذلك دقائق عدة. توقف بعدها وأخذ يتأمل تلك الأشكال ثم بدأ رأسه الحليق الذي يشبه بيضة عملاقة يميلُ إلى الخلف وأصبح وجهه متهدل الخدين ناحية السقف كأنه يُتابع شيئاً ما لم يكن بمقدورنا رؤيته. أفزع المشهد أمي وجدتي فرددتا أدعية طرد الشياطين وأمسكتا ذراعيّ بقوةٍ، كل واحدة من جهتها. بينما كنتُ أمشط بأنفي الهواء بحثًا عن أية رائحة مصدرها السقف.

احتلت الجدار خلف العراف عشراتٌ من التمائم متنوعة الأشكال والألوان عُلِقت بنحوٍ عشوائي تخللتها خناجرٌ وسيوفٌ. وفي الوسطِ تماماً سبحة كبيرة خشبية الخرزات. فيما عدا ذلك لم يكن في الغرفة أثاث سوى كرسي العراف وطاولته ودولابٍ بمِجرين وأريكتنا. إضافة إلى صندوقٍ خشبي بحجم تابوت موضوع على الأرض جهة الفانوس. لهذا كانت الأصوات تتضخم وتسهم في إضفاء جوٍّ من الرهبة يزيدُ وقعها مع كل صوت يصدر عن العراف أو حركة يقوم بها.

زقزق الكرسي بعنف لحظة أن مال وأخرج من المِجر الأعلى للدولاب قميصي. غطى به الأشكال التي رسمها على الطاولة ثم وضع كُمًّا على كُمٍّ. أجفلت من صوته عندما بدأ بقراءة سورة الإخلاص. كان ينظرُ إلى القميص كأنه يكلمه ويعيد مرارا وتكرارًا كل آية يتلوها. تفاعلت جدتي مع الموقف وأجهشت في البكاء دون أن أدري على وجه التحديد هل فعلت ذلك متأثرةً أم خائفةً من الجثة

الحية المتحركة أمامنا والتي لا يمكن لشيء أن يقتلها أبداً.

نهض فجأة بعد أن دفع كرسيهُ إلى الوراء فأحدثت أرجله الخشبية باحتكاكها في الأرض ضجةً تناقلت الجدران صداها وجعلت أمي وجدتي تصرخان وتداريان بعد ذلك خجلهما. جدتي بتسبيح متواصل وأمي بصوتها المرتعش طالبةً مني عدم الخوف.

أمسك كُمي القميص بيديه، رفعهما أمامه وردد كلمات غريبة قبل أن يقول بصوت أقرب للشخير:

"إن كان به من المرض سببه الجن فحرِكوا قميصهُ. وإن كان ما به من العين فلطِّخوه بالطين. وإن كان علاجه بالطب فدعوه".

قال ذلك ثلاث مراتٍ وفي المرة الأخيرة بدا القميص وكأنه يرقص، فتخيلتُ نفسي أتحرك بداخله ورجلاي تتأرجحان في الهواء. ترك القميص يسقط على الطاولة بينما ظلت يداه مرفوعتين. قال ورأسه النابت من بين كتفيه مباشرة دون رقبة يعود مرة أخرى إلى الخلف ناظراً بعينيه الكسولتين إلى السقف:

" ابن زاهدة ملبوسٌ منذ أن كان في رحِم أمه. ومازال الجن يدخلون جسده مع كل إبرة دم و..."

حاول العراف تذكر الكلمة الأخرى، فقالت جدتي منفعلةً:

"ديسفيرال".

"سأوصِد أبواب جسده، ولن يقدر الجِن بعد الآن إمتصاص دمائه. وخلال أيام قليلة سيُصبِحُ متورِّد الخدين ولن يحتاج أبداً إلى دواء".

رفعت أمي كفيها ودعت:

"يا رب".

زقزق الكرسي مجدداً عندما أخرج من المِجر السُـفلي وعاءً نحاسياً فيه بخور هندي ثم أشـعل عودَ ثقاب وألقاه بداخل الوعاء. تابع نمو خيط الدخان حتى ارتفع ثم أمسك قميصي من الياقة بإصبعين ورفعه فـوق الوعاء فانقطع خيـط الدخان للحظات ثم عاد ليتشـكل داخل القميـص وخرج من جهـة الرقبة. قال بهدوء وكأنـه في صلاةٍ كلمات بلغـة غـير مفهومة. غـير أنه فقـد أعصابه فجـأة وأخذ يـصرخ معنفاً القميـص وهزه بعنـف قبل أن يرميه عـلى الأرض أمامنا فرفعت أمي وجدتي أقدامهما كأن أفعى ستمر من تحتهما.

أخذ من المِجرِ السُـفلي أيضاً كيس قـماش بني اللون بحجم الكف لُفت فوهته بخيط أسـود وقال: "نظفته من دخلاء الجن وحصنتهُ من شر الأنـس. وما عليكما سـوى إحراق شيء مـن هذا الخليط مرتين في اليوم صباحاً ومساءً ولأسبوعين متتالين" .

وأشار إلينا بالكيس. فقلت بلا وعي وأنفي إلى الأعلى:

"فيـه قرنفـل ومسـك وحرمل وشـذاب وحبـة سـوداء ولبان مر ورمادُ سيكارة وجرشُ كبريت".

فتحت الدهشـة فمه وعينيه على وسـعها وأخـذ يتنقل ببصره بيني وبين الكيس المهتز في راحة يده. سألني وقد تغير صوته، أصبح رفيعاً:

"لأي قبيلة تنتمي. مُسلم أنت أم كافِر. كم مضى عليك في جسده".

نهضـت جـدتي فزعة. ابتعدت خطـواتٍ هاربةً منـي قبل أن تلطم صدرها بقوة وتقول للعراف مستنجدة:

"عرفت هذا منذ أول يوم. لم يكُن (أبو صفار) أبداً ولا ثلاسـيميا.

إفعل شيئاً أرجوك ".

ضمتني أمي إليها مثلما اعتادت حين كان الوجع يعصر جسدي بعد عودتي من التزود بالدم أو عندما كانت تصيبني تلك الحالة النادرة من جنون الإحتجاج على المرض فأصرخ وأبكي وأضحك في الوقت نفسه. سألتني هامسة بأذني محاولة التحقق من شخصيتي:

"ماذا تناولنا على العشاء يوم أمس؟".

خدرتني رائحتها وقطعت صلتي بالمكان والروائح الأخرى، فلم أجب بشيء. وضعت يدها على فمي لتخفي إبتسامتي الظاهرة في غير أوانها. وسألت العراف بقلق:

"هل نُشعل الخليط داخل البيت أم في الحديقة أو السطح؟ ".

رد العراف وهو يلقي بالكيس في الدرج:

"علي إخراج الجني منه أولاً".

جعلني أستلقي على بِلاط أرضية الغرفة مباعداً ما بين رجليّ ويداي فوق بعضهما على بطني. وجلس هو عند رجلي اليمنى وفي حجره علبة ثقاب وسكينٌ صغيرة مطوية. وأمي وجدتي وقفتا قرب الباب تراقباني بصمت كي لا تفسد عملية إفراغي من الجن.

قرأ المعوذات وآية الكرسي بصوت مسموع ثم غاب صوته لدقائق قبل أن يقول وهو ينظر إلى أصابع قدمي:

"كما آمنا بوجودكم من غير أن نراكُم، أقسم عليك أن تخرج الآن الآن الآن وليس بعد حين ".

ألح في تكرار الجملة. وفي كل مرة كان صوته يزداد إرتفاعاً وتحولت نبرته إلى وعيد بحرق الجني وهو في جسدي. ثم فتح السكينة ووجه

نصلها نحو أصابع قدمي وهدد:

"سأقتلك إن لم تخرج من الأصبع الكبير حالاً".

رفعتُ قدمي في الهواء ليتسنى لي رؤية الأصبع بوضوح ولا يفوتني مشـهد خـروج الجني منه. فإبتسـم العـراف لهذا التجاوب. وأشـعل عـود ثقاب لوح به مهدداً الجني بالحرق هـذه المرة. فأعدت قدمي إلى الأرض بينـما أشـعل هو عوداً ثانيـاً وثالثاً ورابعـاً وعندما يئِس نهض بتثاقل شديد وهو يقاوم ثقل جسده. ذهب إلى صندوق الخشب وعاد منه وبيده عصاً رفيعة وطويلة. اقترب من رأسي ثم قال وهو ينهج:

"سأضرِبك حتى ترضخ لِلأمر وتخرُج صاغراً ذليلاً".

صاحـت أمـي وهرعـت محاولـةً إيقافـه، لكـن جـدتي لحقـت بها وطمأنتهـا بأن الضرب لن يكون في جسـمي. ضربني أولاً في فخذي اليـسرى، صرخ، شـتم الجني ثم ضرب بطني وكتفـي اليمنى. لم أجد للتخلص من الألم سـوى الذهاب إلى مـكاني السري الذي أفصح فيه عـن ألم الإبـر. فكان يـضرب في قطعة القـماش المستسـلمة التي صار عليهـا جسـدي في تلـك الغرفة بينـما كُنـت أذرف دموعـي في المكان الآخـر وأتابـع بخيبة كبيرة طائـرة وليد المُبتعـدة بدخانها صوب عالمه الذي يمكن أن تتحقق فيه كل أحلامنا.

(زاهدة)

إنقطع الكثيرون عن زيارتنا منذ إكتشافنا لمرض جابر. جاراتنا اللواتي كُن يطرقن الباب صباحًا مساءً، يَستعِرن الأشياء ويستدِن المال ويفتحن أكياس همومهن ويفرغنها عندنا. أصبحن يتجنبن حتى النظر إلى باب منزلنا خوفاً من أن ينتقل لإطفالهن مرضُ ابني المسكين الذي لا يوجعُ سواه في هذه الدنيا. كذلك فعلتْ شقيقاتُ سليم وتذرعن بحجج صعوبة الحياة وضيق الوقت وغيرها من الأكاذيب التي لم يكن لها وجودٌ قبل الثلاسيميا. وأظن شقيقاتي كن سيفعلن ذات الشيء لو أن حماتي تخلت عن كرهها لأهلي وسمحت بزيارتهن لي. أنا لست متضايقة من ذلك على الإطلاق، فقد كرِهتُ ومنذ البداية تلك النظرة التي أشاهدها في الوجوه عندما يعرف أصحابها ما يعانيه ابني. يقولون كلماتِ تعاطفٍ منافقة أو أدعية لا تبتعد كثيراً عن حدود الشفاه. وأنا واثقة من أنهم يشكرون الله في قرارة أنفسهم على أنهم سالمون معافون مما أبتُلي به غيرهم. كما أنني لا أتحمل أن يقوم أحدٌ ما مهما كانت درجة قرابته مني بالثناء على ما أقوم به اتجاه فلذة كبدي. أشعر حينها بالنقص وبالمديح شتيمة وقلة إحترام. وبعد مرور سنوات على مرض جابر أصبحت لا أطيق أي سؤال يتعلق بحالته، وفي المرات القليلة جداً التي رافقته فيها للتزود بالدم في مركز الثلاسيميا بدلاً من سليم تصنعتُ الإنشغال لكي لا أقع في شباك الأمهات الثرثارات اللواتي يطرحن الأسئلة بلا توقف ويردن بإلحاح معرفة كل شيء عن وضع ابني، ماذا يأكل ويشرب، وما هو لون بوله وكيف ينام ويأخذ حامض الفوليك وهل يُصيبه الديسفيرال

بالخمول والشعور بالتعب والإرهاق وفقدان الشهية؟. ومتى يُجري الفحوصات وما أسعارها وأسماء المختبرات والأطباء والعناوين، يسألن عن كل ذلك معتقداتٍ أن من حقهن الحصول على أجوبة لمجرد أن جابرًا مريض مثل أبنائِهن. لست جاحِدة، صحيح أنني تعلمت منهن الكثير قبلها بسنوات بداية معرفتي بالمرض. لكنهن يكررن نصائحهن ويعاملنني كأنني أم قليلة الفهم ولا تعرف كيف ترعى ابنها.

الإبقاء على بابنا مؤصداً علينا منحني شيئاً من الطمأنينة أيضاً. فالناس بطبعهم يعشقون نقل الأخبار السيئة وسماعي بأي حالة وفاة على سبيل المثال يُذهِب عن عينيّ النوم يوماً أو اثنين. وأنا بدون ذلك أصلاً تبقيني الوساوس متيقظة الحواس لكي لا أغفل عن جابر ولا حتى للحظة واحدة. فطوال وجوده في المنزل لابد أن يكون أمام عيني وأستمع إلى صوته عندما يكون صاحياً. وكنتُ أوصله بنفسي إلى باب المدرسة صباحاً وأعود لأنتظره هناك ظهراً وأعيده إلى البيت. وفي الليل، أظل متنقلة بين غرفة نومنا، سليم وأنا، وغرفته المجاورة التي أستقل بها منذ الخامسة من عمره بطلب من طبيبه ليحصل على مساحته الخاصة مع تلك الأبرة الملعونة في بطنه ومضخة الديسفيرال. القلق لا يمنحني وقتاً للراحة مطلقاً ويبقي الخوف في رأسي من أن يكون قد حدث له شيء سيِّئ دون أن أدري. ألم أكن أحمله بين ذراعي ليل نهار من قبل دون أن أنتبه إلى الثلاسيميا التي تسللت اليه؟.

أرتعب حد الصراخ عندما أجده مستلقياً على بطنه خلال ساعات النهار أو في ليلتي استراحته من حقنة الديسفيرال. لأنني أتخيل في لحظة خاطفة الإبرة وهي مندسة أعمق من جلده. ولا أهدأ إلا عندما

أتحسس بطنه بيدي ويستيقظ لينظر في عيني ويقول لي أنه بخير. وفي الليل أتأكد في كل مرة أتفقده فيها من درجة حرارته وتنفسه ولا أغادر إلا بعد أن يحرك شيئاً من جسمه. فأنا أعرف جيداً بأنه لن يشتكي مهما توجع وعصره الألم من الداخل ويا ليته كان قد ورث هذا فقط مني دون مرضه الظالم.

حتى الديسفيرال الذي هو علاجه الدوائي الوحيد أصبح بمرور الأيام يتسبب له بمعاناة تظهر غثياناً وحمى وتورماً في الأنف والعين واللسان والحلق وإسهالاً ومغصاً وصفيراً عند التنفس وإحتقاناً حول مكان الإبر. وحالماً أرصد أياً من ذلك أوقِف حقنه ليومين او ثلاثة حتى يشفى أو تخف حالته. ولهذا يعشق جابر تأثيرات الدواء الجانبية ومضاعفات إستخدامه لأنها تمنحه إجازة من وخز الإبرة المكروه.

يوم صلى سليم صلاة الاستِخارة وأخبرني بأن الحل الوحيد لتخليص ولدنا من عذابه هو إنجابنا لطفل آخر لم أفكر بادئ الأمر بأنني جاوزت الخامسة والأربعين وأن الحمل قد يسقط بداء القط مثلما حدث مرتين ولا بالإحتمال الكبير أن يولد الطِفلُ مصاباً هو الآخر بالمرض وكل ما يتبع ذلك من مشقة وأحزان. بل أحسست وبمجرد تفكيري بالأمر أنني أمٌ مقصِرة في أداء واجبي لأنني سآخذ من ابني المريض ما يستحق من رعاية وأمنحها لغيره.

لكن سليمًا أصر ووضعني بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن نتوكل على الله ونرى ما كتبه من خير أو سواه في حمل رابع أو نستمر على ما نحن عليه وننتظر حتى يموت جابر دون أن يستمتع بيوم واحدٍ من حياته التعيسة. ولأن أم المريض لديها أملٌ دائم بشفائه، قبِلت بالأمر

حاملةً بولد أو بنت تكون أو يكون سـبباً في اسـتعادة ابني بمنحه نخاع العظم وإجراء عملية زرعه في إيطاليا.

أن ينتفِـخ بطنـي بحمـل جديد وأنا بتِلك السـن كان يشـبه وضع المـرء لفوهة بندقية تحت ذقنـه ويطلق النار. وهذا ما وقع، ضغطنا"أبو فلينة وأنا" على الزناد. ولم يكن أمامي والأيام تمر سوى سماع توقعات الطبيبـة وكشـفها الخارجـي عليّ مـرة واحـدة كل أسـبوعين. بعد أن حذرني سليم من الفحص بجهاز السونار كونه حرامًا، لأن الله وحده يعلـم مـا في الأرحام. ثم سـار كل شيء على ما يرام وإنقضت أشـهر الحمل التسعة كاملة.

(جابر)

حدث تغيير كبير في بيتنا وفي حياتي. حصلت على شقيق.

غابت أمي قبلها بيومين مع بطنها المنتفخ مثل بالون. وعادت تحمله مقمطاً بين ذراعيها وأبي خلفها يحملُ مهداً خشبياً. استقبلتهما جدتي في الصالة بلا إكتراث أو حتى تمتمة بدُعاء. ألقت نظرةً سريعة عليه قبل أن تصيح رافعةً يديها:

"إيثار".

ثم سارت بهدوء سلحفاة متوجهة نحو غرفتها وصوتها بالكاد يُسمع:

"على اسم جدي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته".

وبسبب تطبيق حالة التعتيم المضادة للحسد وحشر الأنوف، التي شملت الجيران وأصدقاء أبي في الجامع ومعظم أقاربنا. وكذلك القلق المستمر الذي أصيب به الجميع في المنزل من حدوث شيء ما، كنت الوحيد الذي أعلن الفرحة لمجيء إيثار. وبقيت على مدى أيام عدة أصنع له قوارب وطائرات وحيوانات ورقية. لونتها بيدٍ خبيرةٍ وعلقتها بتناسق فني على جدران الغرف والصالة والمطبخ وسط دهشة الجميع من تلك الموهبة المفاجئة.

لازمتُ أمي كظلها حين كانت ترضعه وتحممه وتجول به الصالة أو تهزه في المهد لينام وكنت أقوم بهذه المهمة الأخيرة أحياناً إضافة إلى مراقبتي له في الأوقات التي يُحرر فيها من القِماط وتبدأ يداه ورجلاه بالدوران مثل المراوح.

كان بمثابة ثقبٍ واسعٍ أحدِث في جدار وحدتي، حتى وإن كان مجرد قطعة لحم زاعقةً ملفوفة بالقماش. والاعتناء به واللعب والحديث معه لساعاتٍ من الأشياء النادرة التي لم تتضمنها قائمة المحرمات والممنوعات التي فرضت عليّ بسبب المرض. لكن ومع مرور الأيام بدأت المحبة الطاغية من ناحيتي اتجاهه تتحول إلى شفقة وحزن، لأن وجوده في هذا العالم أقتصر فقط على مهمة واحدة وهي إنقاذي. ووعيت أكثر إلى حجم المجازفة التي قُذِف إليها رغماً عن إرادته، فإما أن يعيش سليماً معافى مثل باقي البشر أو يُصبح مثلي وعاءً مثقوباً لا يمتلئ أبداً مهما أفرِغت فيه من دماء.

بمجيء إيثار اكتمل أيضاً طوق الحصار الذكوري على حياتي وارتفعت جدرانه بنحو أكبر. فباستثناء أمي وجدتي لم يكن هنالك تواصل بيني وبين أية أنثى. أبي كان يقول بأن صوت المرأة غير القريبة إلينا ورائحتها عورة والنظر في عينيها إثم كبير ومصافحتها أكبر حرام ولهذا أدخلني مدرسة ذكورية حتى أمسك جمرة ديني من الصِغر. وكنت أسمعهم في الجامع يقولون بأن أكثر أهل النار هم النساء. لهذا كبرت وأنا أتجنب النظر في أعينهن مباشرة ولا أرد على تحياتهن أو أسئلتهن. عماتي في زيارتهن الجماعية الوحيدة التي أذكرها إعتقدن بأن نقل الدم المستمر يسبب الخجل وطلبن من أمي معالجتي لكي لا أصبح مخنثاً. جدتي شمس وخالاتي اللواتي التقيت بهن مرتين متباعدتين في القرية توصلن إلى أن مشكلتي عقلية ولم يستبعدن أن تكون هي الأخرى وراثية منقولة لي من أبي وجدي. أما الممرضات والطبيبات في مركز الثلاسيميا والمختبرات فقد كن يتعاملن معي بمهنية ويؤكدن لبعضهن بعد سلسلة من الأسئلة الكشفية غير المستجابة من قبلي،

أنني أعاني من ضَعفٍ في السمع والبصر وهو واحِدٌ من مضاعفات دواء الديسفيرال الشائعة.

وبإستثناء وليد، لم أقل لأحد بأنني أخشى أن تُلسط عليّ تلك النظرة الساخرة المتفحصة لبشرتي الضفدعية المرقطة وعظام وجنتي البارزتين وفتحتي أنفي المنسحبتين وأسناني الخارجة من فمي والتي منحتني منظر غبي لا يتوقف عن الابتسام. ولطالما كرِهت النظر إلى ما يفترض أنها نفسي في المرآة، لكي لا أواجه كل ذلك. ورفضت إلى حد الاستلقاء على الأرض منح وجهي للحظة تصويرٍ فوريٍ من أجل معاملة تسجيلي في المدرسة. وقمت بعد إرغامي عليها بحملات تفتيش دقيقة في دواليب المنزل وتخلصت من أعدادها الاحتياطية التي عثرت عليها في صندوق ذكرياتِ أمي.

سمعت ذات مرة شابةً تسأل أمها عن سبب الإختلاف بيني وبين شقيقها المريض مثلي:

"لماذا وجهه أقل شحوباً وصفرة من وجه سمير؟".

فأجابت تندب حظ ابنها:

"لأن حبيب قلب أمه لديه زيادة في نسبة البليروبن بسبب التكسر الزائد للهيموگلوبين في جسمه أكثر من هذا".

كُنت مستلقياً على ظهري أعدُ القطرات الهابطة من كيس الدم في الأنبوب وأبي يصلي في مكان ما خارج المركز. بينما هما جالستان على حافة السرير المقابل تقضيان الوقت في مراقبتي بإنتظار إنتهاء الولد الذي يرافقانه من التزود بالدم.

سألت الشابة أمها مجدداً:

"لِمَ أنفهُ أقل تشوُّها؟ ".

"ربما لأن أنف سمير أكبر قليلا فيبدو مشوهًا. لكن أنف إبني أجمل حتماً ".

قالت الشابة مؤيدةً أمها:

"لقد ورثهُ منكِ فأكيد سيكون جميلاً" .

فرِحت الأم. وطبعت قُبلة امتنان على رأس إبنتها التي أبدت ملاحظةً:

"يبدو هذا الولد أكبر عُمراً كذلك. أنظري إلى رأسه، ربما هو في الثانية عشرة أو أكثر من ذلك بقليل".

ردت أمها بصوت مرتفع ربما لكي يسمعها آخرون غيري أيضاً:

"لا يمكن أن تحزري أعمار أبناء الأغنياء. صحتهم جيدة لأن كل شيء متوفر لهم. وربما تكون هذه آخر مرة ترينه فيها. فقد يذهب في أي لحظة لإجراء العملية، بينما نحن لا نملك أجرة العودة من هنا إلى منزلنا".

(سليم)

في مطلع شهر آب من تلك السنة وقعت معارك طاحنة في شوارع المدينة بين مسلحين والقوات الأمنية. وتواصلت على مدى أيام عديدة أصوات التفجيرات والإطلاقات النارية وزمجرةُ المركباتً العسكرية وأزيز الطائرات في السماء. وفُرِض حظرٌ عام على تجوال المدنيين ومركباتهم وأغلقت مداخل الجسور والشوارع الرئيسة، وإنتشر عناصر الأمن في الشوارع. اشتد خلال تلك الأيام شحوبُ جابر بسبب فوات موعد حصوله على الدم وعجز عن رفع رأسه من شدة الخمول. فخرق سليم الحظر ومشى على الرصيف محاولاً التحدث لجنود كانوا متأهبين بوضع قتالي خلف ساتر ترابي أقاموه على أسفلت مدخل الشارع. لكنهم منعوه من الإقتراب برشقة تحذيرية أطلقوها في الهواء ردتهُ إلى الداخل. فقد صوابه، أخرج رأسهُ من الباب وصرخ يُخبرهم أن ابنه يحتاج إلى دم ويجب أخذه الآن للمستشفى. وقبل إكتمال رسالته الصوتية مرت خطوط نارية بيض من فوق الجنود قادمة من المدخل الآخر للشارع ردوا عليها بوابلٍ من رصاص بنادقهم، أصابت إحداها زِر جرس الباب فانكفأ سليم للخلف وزحف على بطنه عبر الباحة إلى داخل البيت. وأضطر للمرة الأولى والأخيرة إلى سحب الدم من جسمه وإعطائه مباشرة إلى جابر.

أحضرت زاهدة واحدة من كيسي الطوارئ الفارغين اللذين تحتفظ بهما لإستخدامهما في مثل تلك الحالات. طلبت من سليم الاسترخاء على السرير ووضعت وسادتين تحت رجليه لرفعهما أعلى من مستوى رأسه ثم ربطت بمهارة الجزء العلوي من ذراعه اليسرى

برباط مطاطي ومسحت بالقطن المبلل بالكحول مرفقه. قربت رأس الإبرة من وريده الظاهر، عضت شفتها السفلى، أغمضت عينيها وأدخلت الإبرة.

عانى جابر من أوجاع في مختلف أنحاء جسمه وتلوى على سريره فيما اختبأت الحاجة غنية في غرفة نومها بذريعة الخوف من رؤية الدم. وإرتفع صوتها بين الحين والآخر قادماً من هناك تسأل عن مجريات الأمور. فيما جلست زاهدة على الأرض قرب السرير تراقب سليمًا وتُحرك بهدوء الكيس الذي بدأ ينتفخ. قال لها وهو يشد قبضة يده ويرخيها:

"ماذا لو لم أصرَّ على زواجي بك كل تلك السنوات؟ لماذا لم أفكر بأن الله يحذرني عندما رفض...".

أغمض عينيه لحظات وأكمل:

"عندما رفض عمي الزواج".

أراحت الكيس على رجلها وقالت متصنعة عدم الاهتمام بما قاله:

"دمُك حارٌ جدا !".

"أعلم بأن هذه وساوس الشيطان ولكنني أفكر في هذا بعض الأحيان. في رسائل الرحمة التي يوجهها الله إلى عبده. لكن المعاصي تجعل الواحد منا يجهل معناها. فماذا لو أنني فهمت لم سقط حملك مرتين متتاليتين. أما كان حُسن إيماني سيفتح لي هداية أن أجنب ابني المصير الذي تلقاه. وفوق ذلك نُجبر كالعميان على المشي في ذات الطريق بولادة جديدة".

تنفس عميقا:

"أدعو الله أن يكون من أبناء السلامة وعونا لشقيقه بإذن الله".

حرك ذراعه التي فيها الإبرة. وتتبع بعينيه الأنبوب المُحمر الهابط من السرير نحو الكيس الذي كانت زاهدة قد أعادته إلى الأرض:

"من أين له القوةُ لتحمل إبر أخذ الدم والدواء. أو التي يزرقونه بها للإلتهابات. سبحان الله المعين".

رفعت زاهدة الكيس، هزته ببطء ثم أعادته لمكانه:

"كلما وضعت له إبرة الدواء أدعو الله أن ينقل لي ألمها. فأنا أمه ويمكنني التحمل. أما هو فصغير ولن يقدر جسمه على كل هذه الأوجاع".

عطَّل البُكاء كلامها. صاحت الحاجة غنية من غرفتها:

"كم بقي على ملء الكيس. هل تشعر بالدوار يا سليم؟ إشرب عصير البرتقال".

مسحت زاهدة دموعها وقالت متحسرة:

"ليس هنالك شيءٌ أصعب من أن يكون للأُم ولدٌ مريضٌ وتعجز عن مساعدته ليشفى أو يخف ألمه. أنت محظوظ، لأنك في الأقل تفعل شيئاً مفيداً. ودمُك مثل دمه".

"كم أتمنى لو أن صحتي تسمح بأن أتبرع له بإستمرار. وأدعو الله أن يكون مفيداً هذه المرة لحين إنتهاء الحظر ونراجع طبيبه".

سألته:

"متى تسحب عينة من دم إيثار لفحص التطابق النسيجي. أخبرتني عاملة في مختبر الفحص أن بالوسع أخذها من الإنسان حتى وإن كان جنيناً غير مكتمل في بطن أمه".

وضع يده اليمنى تحت رأسه وأجابها:

"تحدثنا عن هذا مراراً، هم يقولون بأن هنالك إحتمال بنسبة 25 في المائة أن يولد سليماً. وذات النسبة من الإحتمالية مصاباً بالمرض. و50 في المائـة حامـلاً له وهذا ليس مرضاً ولن يحتاج إلى دم أو علاج، علينا إنتظار ما كتبهُ الله لنا".

قالت بِنبرة خوف:

"ولكن، ماذا لو لم يكن هُنالك تطابق؟".

ظـل سـليم صامتـاً وعيناه على مروحة السـقف التـي كانت تدور ببطء.

"أرجـوك لا تغضـب منـي "قالـت زاهـدة وهـي تشـبك يديهـا. وواصلت:

"إلتزمـت طِوال فترة حملي بكل وصاياك. ولم أجر فحص السـونار للتأكـد من وضـع الحمل وجنس الجنين لأنك قلت بـأن ذلك حرام. ورفضـتَ أيضاً فحص عينة منه وهو في بطني لنتأكد في الأقل إن كان هو الآخر ...".

رفع سليم رأسه وقال بغضب:

"وماذا كنت ستفعلين لو إتضح بأنه هو الآخر مريضٌ بالثلاسيميا، هل كنت ستُسقطينه. تقتُلين النفس التي حرم الله بغير حق يا زاهدة".

حركت كيس الدم مجدداً والدموع تتدفق من عينيها:

"كنتُ سأعرِف في الأقل بدلاً من هذا الانتظار والخوفِ الذي يكبرُ بداخلي ساعةً بعد أخرى".

ثم رجته:

"أصبح الآن في شهرهِ الثالِث، لنفحصه ونُرح أنفسنا من كل هذا القلق، فإن كان سليما وإن شاء الله هو كذلك، سنعرف أيضاً إن كان قادراً على التبرع لأخيه بالنخاع".

"لن نُجري أي فحص لإيثار قبل أن يتجاوز عمره المرحلة التي ظهر فيها المرض على جابر، سنترك كل شيء يجري بِعلم الله وإرادته وبركته".

صاحت الحاجة غنية:

"هل إنتهيتم؟".

(جابر)

وُسِّع المجمع التجاريُ، قِسم السراويلِ الداخلية الذي يُشرف عليه وليد ليشغل نصف مساحة الألبسة الرِجالية، ووفر له مُساعدين اثنين ومُجسمات بشرية بلاستيكية قائمة على قواعد مزودة بأربع إطارات صغيرة ليستخدمها في عرضه اليومي بدلاً من رفع السراويل بيديه.

شاهدتُه يوم دعاني لإفتتاح المكان بِحُلته الجديدة كم كان متألِقاً وسعيداً بعمله المزدهر. شرح للزبائن المتجمهرين بوجوههم المحمرة من الضحك مزايا السراويل التي على المجسمات فيما مساعداه يدفعان المجسمات جيئة وذهابا بنحو دائري وهو جالسٌ على كرسي دوار في الوسط تماماً، يدفع برجله الأرض فتتوافق حركته مع حركة المجسم. وفي السقف مجموعة من المصابيح مختلفة الألوان يضاء كل واحد منها بحسب لون السروال بإيعاز من وليد.

قدم في ذلك اليوم أنواعاً جديدة من السراويل بتصنيف موسمي غير مسبوق بحسب لافتة إعلانية مستطيلة عُلقت في مدخل المجمع. وحين مر مجسم عليه سروالٌ أحمر إنعكس على الرؤوس والوجوه ضوء أحمر وقال بأنه لماركة (سَحرني) وقماشه من القطن والبولستر يناسِب من يرغب الزواج خلال فصل الخريف وحتى الشتاء، لأنه مريح خلال الحركة وكذلك النوم. واستمر الضوء الأحمر لغاية أن ذكر اللون الأصفر كواحدٍ من ألوان تشكيلة (طمأنني) المصنوع من أنسجة خاصة تتحمل التعرق الشديد وسهلة الغسل وهو السروال الوحيدُ في العالم الذي يُعمر سبع سنوات كاملة من الإرتداء. وعندما ضرب برجله الأرض وصاح مثل ديك ووجهه صوب المصابيح في السقف:

"وهذا (أفرحني) الأخضر والأزرق".

أضاء مصباحان باللونين ودخل المساعدان بمجسمين عليهما سروالان بتصميمين مختلفين وبلونين أخضر وأزرق. ظلا يدوران حول وليد وهو يصف بلا توقف:

" قبل إنتاج هذا النوع كان رجال الأعمال في ورطة خلال شهر الصيف. لكنهم حصلوا أخيراً على جودة عالية في الصنع والمظهر والأداء وحتى السعر".

وبعد مرور عدد كبير من السراويل بمختلف الألوان والأشكال قدم في نهاية العرض مفاجأة الموسم. أضيئت المصابيح كلها في ذات الوقت الذي وقف فيه لإستقبال آخر مجسمين:

"مشدات من مناشئ عالمية يُمكنها تقليص أحجام مؤخراتكم بحدود الثلث. وأخرى ترتفع لتُغطي كروشكُم وتُقوِّض نموها. وهي مناسبة لجميع الأحجام والأعمار".

****

أخبرني ذلك اليوم ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل بعد نهاية يوم عمله الحافل، بأنه يحسدني لاستمراري في الدراسة وأنه سيفعل الشيء ذاته يوماً ما. وراح يتخيل مستقبلي الوظيفي:

"ستعمل مُمرِضاً تزرق الناس بالإبر وتُضمِد جراحهم".

قلتُ له بأنني أكره الممرضين والروائح التي تنبعث من ثيابهم وغُرفهم. وأنني أتمنى لو تصدر الحكومة قراراً تمنع بموجبه إستعمال الإبر بكل أشكالها وأنواعها واستخداماتها حتى تلك التي تستخدم في الخياطة.

ضحك وليد. وقف وصفق بعكازيه، ثُم قال:

" حسـنٌ، سـتُصبح شُرطياً تُكافِح الجريمة، تحمِل مُسدساً وتقبِض على اللصوص ولا تقف بسيارتك عند إشارات المرور".

"عظامي مثل البسكويت، سأتفتت بِلكمة واحدة".

ضحكنا سوية. وتذكر:

"أنـت محظـوظ. لأنك تسـتطيع الحصـول على وظيفـة جديدة كُل ثلاثة أسابيع من دماء المتبرعين. إنه أمرٌ ممتع جداً".

قلت له بأنني أعرف هذه الأيام المعجنات والحلويات من روائحها دون أن أراها. وأعرِف أسـماءها والخلطات التـي صُنِعت منها. فقال مُندهشاً:

"يبـدو أن صاحـب محل حلويات تبرع بالـدم فحصلت عليه. هذا غريـب لأن أشـخاصًا مثلـه يملكـون المـال لا يعطـون شـيئا بالمجان فكيف بدمائهم".

"نعـم، هو يملـك متجراً كبيراً ومشـهوراً وفروعـاً في مدن أخرى ويعمـل لديـه كثـيرون. يُتْقن صناعة أنـواع لا حصر لها مـن البقلاوة والكُنافة والكعك والسـجق والحلقوم والكليجـة والزلابية وحلاوة الطحينية واللوزينة والسمسـمية وكل الأشـياء الأخـرى طيبة المذاق الممنوعة عليّ".

وقلت مازحاً:

"ويجيد عمل البسكويت أيضاً"

"إذن ستزورني في البيت بعد غدٍ الجمعة لتصنع لنا كل هذه الأشياء

اللذيذة ونقضي نهاراً ممتعاً قبل أن ينشف دمك ولا تعرف الفرق بين البقلاوة والخُبز".

دخلنا الشارع الرئيس الفاصل بين حيينا. أعتاد هناك على فعل شيء مجنون مضحك قبل أن نفترق. لكنه في ذلك اليوم وقف على قوائمه الثلاث تأملني قليلاً ثم قال بنبرة قلق غير معهودة:

"أنت الوحيد الذي سأخبره بالأمر. حتى أمي لاتعرف" .

"ماذا حدث؟ "

قبل خروجي للعمل صباح اليوم عثرت على ظرف رسائل أبيض خلف باب المنزل الخارجي. وجدت بداخله ورقة مذكور فيها اسمي. ويطلب مني كاتبها عدم التشبه بالكفار وأن لا أمشي في الأرض فساداً".

"ماذا يعني هذا؟" سألته.

"أحدهم يريدُ مني التوقف عن عملي في بيع السراويل الداخلية " .

****

كان الإمام شُجاع قد خرج من المُعتقل قبل أيام قليلة وتغير مع عودته مزاج مُرتادي الجامع مرة أخرى فطالت اللِّحى وقُصِرت الدشاديش واتسعت فتحات الأرجل خلال الصلوات وتوقفت الملامِحُ مجدداً عِند لحظة الغضب. وتم حظر ضرب الأسياخ وحلقات الذكر والأدعية قبل الأذان وبعد الصلوات. وتحول الجِدارُ الخارجي للجامع إلى لوحةِ إعلانات علق فيها مسلحون مُلثمون كانوا يظهرون ويختفون مثل الأشباح بياناتِهم ووزعوها أحياناً بين

الناس لتأكيد وجودهم.

اصطحبني أبي إلى صلاة الجمعة التي كُنتُ أنام في العادة خلال خطبتها. جلسنا في الصف الأخير قرب الباب بانتظار أول ظهور للإمام شجاع بعد سنتين قضى الأولى منها في معتقل تابع للقوات الأمريكية ونقل بعد جلائِها عن البلاد إلى معتقل للجيش العراقي مكث فيه سنة أخرى. كان كرشُه قد اندرس مع خديه وبدا لي شخصاً آخر لولا أن سحبَ كُمَّ ردائه الأيمن وأطلق صرخةً ضخمها مكبر الصوت مثل تفجير معلناً حرب الله على عُملاء الإحتلال والمرتدين والساعين إلى إفساد العباد والبلاد. ثُم أمسك بمقبض سيفٍ كان في غمده وعدد حوادث تاريخية قام خلالها قادة يحملون ألقاباً حربية بقطع الرؤوس والأيادي والأرجل من خِلافٍ وصَلبوا ورجموا زُناةً وألقوا آخرين من فوق الجبال وأحرقوا وأغرقوا وشنقوا. ودعا إلى تطبيق كل ذلك لإعادة هيبة الدين. تخيلتُ الجثث الممزقة والرؤوس المهشمة والأطراف المبتورة فتشبثت بذراع أبي لأنني لا أعرف نوع الحماقة التي يُمكن للمرء إرتكابُها فيخضع لواحدة من تلك العقوبات المميتة. وحين عم الصمت وأخذ رأسه ينخفض ويرتفع شارباً الماء من كأس ثلاث مرات وعكست خلالها عدستا نظارته الطبية أضواء غابة المصابيح فوقنا، ظننت بأنه أخذ إستراحة من الغضب وسيعم السلام الجامع أخيراً. لكنه رفع سبابته اليمنى للإعلى وقرب فمه من مكبر الصوت ثم صاح يدعو الله ليضرب الظالمين بالظالمين ويُدمر ويقتل ويشرد ويُفقِر أعداء الدين ويُرمِّل نساءهم ويُيتِّم أطفالهم. كانت بعض الأصوات متجاوبةً مع الدعاء المخيف وتعلو بين جملة وأخرى كلمة "آمين "مطولة ومؤيدة للإمام. بينما كان أبي صامتاً ينظر

إلى النقش الملون للسجاد أمامه وأنا ملتصق به أُعاني من رجفة خوف أول خطبة يغلبني فيها الذعر بدلاً من النعاس.

في مدخل الجامع كان هُنالك ملثمان يحملان كيسين بلاستيكيين مليئين بالأوراق ينتظران خروج المصلين. تعمد أبي الإبطاء في المشي وما أن تشكلت حولهما مجموعتان من الفضوليين حتى جرَّني من يدي واجتزنا مُسرِعين الرصيفَ الموازي للجامع وعند عطفة الشارع المؤدي إلى بيتنا سمعنا صوتاً من الخلف يأمرنا بالتوقف. جمدني الخوف في مكاني وبدأت مخيلتي تُرتِبُ الاحتمالاتِ الأشد رُعباً وتُرجحُ أن يكون الإمام شجاع قد لحق بنا حاملاً سيفاً يقطِرُ دماً. حين التفتُ وحواسي مُتهيئة لرؤية ذلك المشهد، وجدت أحد المُلثَمين يَتراجعُ خطواتٍ ووجهه ناحيتنا ثم استدار وأخذ يركض عائداً نحو الجامع بينما كان أبي يتابعه متسمراً في مكانه وبيده اليسرى ورقة عليها شعار المسلحين الأسود.

القى أبي نظرة سريعة على الورقة. طواها مرتين قبل أن يدخلها جيبه وأمسك يدي بقوة كما اعتاد منذ صغري ليحميني من رعونة المركبات. لكن شارعنا كان فارغاً تماماً ولم تكن هُنالِك سِوى الريحِ تُقلِّب أوراق الخريف التي ألقت بها الأشجار المتعالية على أسوار المنازل. أفلت يدي على رصيفنا وأخرج الورقة من جيبه ثانيةً. قرأ ما فيها بإمعان هذه المرة. وما أن فرغ من ذلك حتى تلفت يميناً ويساراً وأنفاسه تتسارع، ثم دفعني إلى الداخل وهو يردد بحرقة:

"مجرمون لا يعرفون الرحمة، كلاب، حقراء، قتلة..".

قابلتنا أمي في المطبخ وإيثار بين ذراعيها يمص قطعة تفاح. جالت

ببصرها بيننا وسألته:

"هل يشكو جابر من شيء؟".

دعـك الورقـة على شـكل كـرة ثم ألقى بهـا في سـلة النفايات بين الـدولاب والثلاجة لكنها أخطأت الهدف وسـقطت خلفها. أسـتبد بأمي القلق:

"ماذا حدث سليم؟".

مسح بيدٍ جبهتُه وقال موجها الأخرى نحوي:

"قتلوا صديقهُ وليدًا".

(القسم الثاني)

(جابر)

تأخر موتي كثيراً. تجاوز أسـقُف توقُعات الأطباءِ ومدياتِ الأدعية الموجهـة إلى الله ليطيل عمري. فمنحتُ رغماً عن وجعي فائِضاً عُمرياً جعلني في عيون الناس مُعجزةً تمشي على قدمين هزيلتين. لكن بالنسبة لي فإن بقائي على قيد الحياة خطأ فادحٍ أنتظر تصحيحه في أية لحظة.

مرت خمس سنواتٍ على أقصى حدٍ يمكن لقلبي وكبدي المتضخمين بلوغه بحسـب التوقعات الطبية والسوابق المرضية. إشتهرتُ خلالها في مركـز الثلاسـيميا عميـداً للمُصابين وصاحب أكـبر طُحال مازال يـؤدي وظيفتـه على الرغم مـن تحوله إلى مقبرة منتفخـة بكريات الدم الحمـر الميتة. وأحمل تحت جلدي هيـكلاً عظمياً مُنتهي الصلاحية منذ زمن بعيد، لكنه لم يسجل وبأعجوبة أية حالة كسر. وفي المرارة حصاة بحجـم حبة حمـص فضل طبيـب الباطنية الإبقـاء عليهـا إلى أن يكبر حجمها أكثر لتسـتحق عناء إحداث أربعِة ثقوبٍ في بطني وإخراجها مـع مـرارتي. فأصبحـت أنموذجا مثاليـاً لمريـض بالثلاسـيميا مُعمِرٍ قياسـاً بالآخرين بسـبب الرعايـة المنزلية والالتزام الحـرفي بإجراءات إبقائـي حياً أطول فـترة ممكنة بالدم والديسـفيرال وحامض الفوليك وفحوصات دورية تجرى لدمي كل ثلاثة أشـهر من أجل تحديد نسبة الحديـد وتلقي العلاج الفوري الـلازم حال حدوث أي اضطراب في جسدي. وفحص سنوي لوظائف قلبي وكبدي وكليتي ورئتي وعيني وأذني. والتأكد من عدم إصابتي بأي عدوى فايروسية كالِتهاب الكبد الوبائي وفيروس نقص المناعة المكتسب الإيدز.

حولنـي كل هـذا إلى جثة مثاليـة لطلاب كلية الطب في دروسـهم العمليـة. يتجمعون حولي مثل الذبـاب وأنا على كرسيٍّ الجلدي المائل

لقضاء ساعات التزود بالدم الثقيلة والمملة. يقِفُ الأستاذُ المُسن ذو الشعر القطني في الجهة التي فيها حامِلُ كيس الدم ويبدأ الدرس مشيراً إلى أجزاء جسمي بمؤشرٍ معدني طويل. يتحدث باللغة الأنكليزية والطلاب يُدونون ما يقوله في سجلات بأيديهم، ثم يسمح لهم بلمسي. يقفون في طابور واحداً بعد الآخر. يقيسون حجم رأسي ويتحسسون أنفي ووجنتي ويمطون جلد رقبتي. يرفعون جفنيَّ العلويين بسباباتهم ثم يضغطون ببقية أصابعهم على أنحاء مختلفة من بطني. ويطلبون مني فتح فمي ليُدقِقوا في أسناني. وأحيانا يبقونني على تلك الوضعية وينشغِلون بطرح الأسئلة على أستاذهم فيجيب عليها بصبر. ينحني ليُريهم شيئاً يتعلق بفك أسناني العلوي. يطلب مني فتح فمي على وسعه. أفعل هذا بعد أن أغلق عينيّ. وأعلم بأن رأس المؤشر الكروي قد إجتاز أسناني إلى داخل فمي لأنه يرتجف بيد الأستاذ فيرتطم بفكيّ وبرودته المعدنية تلسع لساني.

في المرة الأخيرة قبل أيام قليلة، ذكرت طالبة بأنها انتبهت إلى شيء ما في الداخل. إنسحب المؤشر وانحنى الطبيب يُدقق في فمي. فتحت عيني لأجده رافعا لها إبهامه، فإحمرت خجلاً وكتبت شيئا ما في سجلها. طلب آخر الإذن فأومأ الأستاذ برأسه. سأل عن كيس الدم. فطلب منه إعادة السؤال. إقترب وقلمه الجاف موجه نحو مرفقي وتتبع الأنبوب صعودا إلى الكيس. نسوا فمي مفتوحاً، يفعلون ذلك دوماً. أمسك الأستاذ الكيس بإصبعين. تزاحموا يصغون إلى ما يقوله باهتمام. شاهدتُ أحدهم يتأمل بِحُب وجه زميلة له مُندمجة بالدرس. إنتبه اليه زميله وضربه بكوعه. لم تبق لديهم أسئلة فانتهى الدرس. خرج الأستاذ وتبعه طلابه مثل الكتاكيت. سيأتي بآخرين بعد ثلاثة أسابيع ويقوم بنفس الشيء وينسى أيضاً فمي مفتوحاً. وينسون هم

أنني لست جثة ويسألونه ــ دون أن يكلموني ــ عن اسمي وعمري وطولي ووزني وباقي الأشياء التي ينقلها إليهم من ملفي الخاص في المركز.

****

علمني إنتظار الموت حيلةً أقتُل بها الوقت الكئيب وأشغِل ذِهني عن التفكير بالأمل. وذلك بِعدِّي للأشياء. الأرانِب والإوزات والفئران الكارتونية المرسومة على جدران مركز الثلاسيميا الداخلية. مربعات بِلاط الأرضية، خطوطها المتوازية والمتقاطعة. أكياس الدم، حواملها، أنابيبها. الكراسي المائلة والأسرة وأرجلها ومساندها. أزرار الكهرباء والمراوح. النوافذ وقضبانها الحديدية والأبواب. المرضى. آبائهم، أمهاتهم. إخوانهم. الأطباء والطبيبات. الممرضين والممرضات. أزرار قمصانهم، ربطاتِ رؤوسهن. الخطوط في القمصان. الأحذية والبناطيل بحسب الألوان. الجيوب والأقلام والنظارات والصلعات. وللحصول على شيء من الإثارة، خصصت ساعات لعد الأعضاء البشرية الفردية، الأنوف والأفواه والذقون والرقاب والبطون والرؤوس. وأخرى للزوجية، العيون والحواجب والآذان والأكتاف والسواعد والأكف والمرافق والسيقان والأقدام والركب والأرداف. تُخزن أرقامها في مكان ما من رأسي وأعود بعد ثلاثة أسابيع أو ربما أقل أو أكثر بيومين لأحصي كل تلك الأشياء مجدداً وأقارن بين النتائج السابقة والجديدة. وغالباً ما تكون الغلبة للرقمين الخاصين بأعداد المرضى والأكياس. لأنها في زيادة مستمرة.

عدُّ الأشياء هواية مثل المطالعة والغناء وكرة القدم والملاكمة والسباحة وقيادة الدراجات ورفع الأثقال وكل الرياضات الجسدية والفكرية الأخرى المحرمة عليَّ بسبب المرض. لذلك لم تقتصر

ممارستي لها على المركز فقط. صحيح أنها ظهرت وتطورت هناك، لكنني أخذتها معي إلى الخارج أيضاً. وأصبحت أعرف أعداد أعمدة الكهرباء في حيِّنا وفتحات المجاري والشوارع والمنازل والدكاكين وحاويات النفايات والسيارات. وفي الطريق إلى مركز الثلاسيميا أو مصرف الدم أو مختبر الفحص أو عيادة الطبيب. أعد السيارات بحسب أحجامها وألوانها. وأقارن أعدادها بالتي أحصيتها في طريق العودة. أما في البيت فيكفي إعلامي بشيء جديد يدخل إلى الخدمة في المطبخ أو الحمام أو دواليب الملابس. وستجد أمي إجابة فورية لإعداد الملاعق والأكواب والصحون والسكاكين والقدور والصوابين والوسائد والأسِرة والثياب والأحذية والستائر والأدوية والمصابيح والأزرار، حتى المسامير في الجدران.

في الأوقات التي لا أعُدُّ فيها أشغِل نفسي بنبش ذكريات الشخص الذي تسري دماؤه في شراييني وأحاول كتمه قدر الإمكان لكي لا يظهر شيء منه على تصرفاتي. تبدو الصور مضببة مع القطرات الأولى التي تندفع منزلقة في الأنبوب نحو ذراعي، وفي بعض المرات إلى ظاهر يدي. يبدأ جسمي برفض الدم عادةً. فتصيبني الحمى أو أشعر ببرد شديد وغثيان وضيق في تنفسي، ويختار الألم في كل مرة جزءاً مني ليعتصره كظهري، أضلعي، بطني، رأسي، أطرافي. يستمر ذلك حتى أخر قطرة من الكيس. ثم أشعر بخدر يمتدُ من أصابع رجليّ ويسري في جسدي كله حتى فروة رأسي. تسكُنُ أوجاعي ويكبر يقيني رويداً رويداً بأنني لم أعد وحيداً وأن في داخلي صوتين؛ واحِدًا لي وآخرَ لشخص لا أعرفه. يتضح الصوت وتظهر الصور ليلتها، وأقضي الأيام اللاحقة في الإنصات إلى الذكريات بصوت ذلك الشخص وملايين الصور من فترة الطفولة إلى ساعة أُغلِق فيها المِشبك على أنبوب الدم

الذي تبرع به فوصلني كيسهُ مثل زجاجة فيها رسالة قذف بها الموج إلى الشاطئ. فتصبح ذكرياتُه جزءاً من تاريخي ويمكنني استخدامها كأنها لي، فأبكي لمواقف الحزن وأبتسم للمفرحة منها. أشعر بما يؤلمه بالصميم، بالوجوه التي يُحبها وأميز الروائح والألوان التي يفضلها والمهارات التي تعلمها. وتسري تحت جلدي صفاته الروحية إصراراً وانكسارًا، خيراً وشراً ورغبة في الحياة أو مللاً منها. تمنحني دماء البعض منهم طمأنينة وسلاماً وعشقاً للحياة فيندرس وجعي وأتعايش مع مرضي بأمل في الشفاء أو بدونه. وفي الأسبوع الثالث عندما يبدأ دمي بالتضاؤل وتتسارع نبضات قلبي لتعويض النقص الحاصل أشعر بحزن هائل يجتاح صدري يشبه الحزن على موت شخص حبيب. وهو ما يحدث حرفياً. يموت المتبرع القديم، يتوقف نبضه ويختفي صوته ولا تبقى منه سوى نسخة ذكريات يحتفظ بها رأسي المزدحم. يأخذ محله متبرع جديد بدمائه ونقضي سويةً عمره القصير في داخلي. وبتعاقب أكياس الدم صار جسدي محطةً دخلها العشراتُ ذكوراً وإناثاً وسار بهم إلى وجهته غير المعلومة قطار عمري المتعب.

المرة الوحيدة التي عرفت فيها مسبقاً دماء الشخص التي ستعطى لي، كانت يوم تبرع لي أبي في المنزل بسبب حظر للتجوال قبل سنوات. وهي المرة الأولى أيضاً التي عرفت فيها شخصاً من الداخل والخارج في آن واحد. أبي الخارجي الذي عرفته وأحببته طوال عمري. والداخلي المدفون فيه سره الناهش كالسكين والذي انتقل إليَّ بطبيعة الحال دون أن يدري. ثلاثة أسابيع ويومان وست ساعات من أبي الذي يعيش في جوفه ندمٌ فات أوانه وهوة سواد قديمة مثل بقعة نفط طافية في البحر. أمكنني مشاهدتها بوضوح في

ماضيه الذي لا يكف عن مطاردته.

تمنيت لو أن بيدي إختيار المتبرع بالدم. كنتُ سأختار أمي وأناسا طيبين أرواحهم نقية ومليئة بالبياض. لكن لا مفر من قرعة الحظ ويد الصدفة التي لا دخل لي أو أي أحد آخر باختياراتها. فمن يتبرع لي ممن أعرفهم بكيس دم. سيضع لي المصرف مقابلا له ما يتبرع به أربعة ممن لا أعرفهم. وحصيلة نحوِ ثلاثٍ وعشرين سنة من العيش على دماء الآخرين تُظهِرُ رجالاً ونساء. مُلحدينَ ومتدينين، مَسلمين ومسيحيين. الكثير من الفقراء وقليلُ من الأغنياء، مرَّ بشراييني متزوجونَ وعزاب وأرامل، سعداء وتُعساء. متعلمون وأميون وموظفون وعاطلون وفنانون وفلاحون ورياضيون وجنود وطلاب جامعات. القاسم المشترك بينهم جميعاً طيبةٌ دفعتهم لمنح شيء من أنفسهم ومضوا دون انتظار مقابل.

عائلتي استعدت جيداً لموتي. فثياب أمي السود مطوية باعتناء في دولابها. إلى جانب كفني الأبيض ذي الأطوال السبعة، مدفونة فيه نسخة قرآن جيب غير مقروءة وقطعة صابون من الغار الحلبي وثلاثة أعواد بخور هندي وزجاجة عطر بدون كحول مع كيس صغير من القطن الطبي. ودزينة من أشرطة تسجيل القرآن بصوت محمد صديق المنشاوي، مهداة من خالتي واجدة، على جوانبها ملصقاتٌ مكتوب عليها بخط كوفي أخضر "عظم الله أجركم وغفر لميتكم" كانت محفوظة بدايةً مع الأشياء الجنائزية في دولاب والدتي المقفل على الدوام. لكنها بمرور الأيام وبقائي العنيد على قيد الحياة، تسربت إلى الصالة وتكدست قرب جهاز التسجيل. وصار الاستماع إلى القرآن مرتين يومياً، صباحاً ومساءً، طقساً عائلياً وبروفة لمجلس عزاءٍ على روحي تأخر كثيراً.

أغلب التوقُعات الأسرية أشارت إلى أنهم سيعثرون عليَّ ميتاً في سريري وعلى وجهي تلك الابتسامة البلهاء التي تصنعها أسناني النافرة رغماً عني. مؤمنين أنني وبسبب خلو سيرتي من المعاصي أستحق موتاً هادئاً ونظيفاً سيدل وبحسب التعاليم الدينية إلى المكانة التي سأحظى بها في الآخرة. وأن صفين طويلين من الملائكة البيض سيستقبلونني بعد أن يفرغ ملك الموت من سحب روحي بالسهولة التي تنزلق فيها قطرة ماء من على نبتة. حاملين كفناً من الجنة برائحة المسك. يلفونني به ويصعدون بي إلى السماء السابعة.

جدتي التي صلت دائما على كرسي بسبب غضاريف مفاصلها المنخورة بسبب الشيخوخة قضت أوقاتَ ما بعد كل صلاة متمايلةً مثل مهدٍ، تحرك رأسها إلى الأمام وإلى الخلف بتناسق استمر أحياناً ساعة كاملة بسبب نسيانها لكيفية التوقف مثلما نسيت كل شيء آخر تقريباً حتى أسماءنا. لكن وبمجرد أن يلتقطني رادارها كانت ترفع كفيها لا إرادياً والمسبحة تتمايل متدلية من إصبع أبهامها وتدعو لي بحسن الخاتمة وأن يحشرني الله مع الشهداء والصديقين والأولياء. وحين داهمتها قبل سنة من الآن نوبة قلبية مميتة. إنطفأ بصرها وفقدت القدرة على النطق وتحريك أي من أطرافها. جلبت أمي المصحف المعلق في الكيس على الجدار وجلست تقرأ إلى جوارها في الصالة حيث سقطت على الأرض بينما والدي الذي لبى نداء الطوارئ قادماً من القرية بعد دهرٍ من الغياب. ظل يُراقب مصدوماً وقد اتكأ بظهره على باب المطبخ وإيثار يبكي بصمت على الأريكة وفي حجره طبقٌ مليء بالدولمة. وأنا على الأرض عند قدمي جدتي أتأكد من عدد الخرزات الزرق في سبحتها. فتحت عينيها فجأة ورفعت رأسها قليلاً عن الأرض وصاحت اسمي ثلاث مرات. كان من الواضح أنها لا

تـراني ولا تسـمعني حين أمسـكت بيدها البـاردة. خـرج صوتها من بطنها:

"لا تتأخر علي يا جابر". ثم فارقت الحياة.

****

في سـنوات إيمانـه العميقة كان أبي يحاول إبعادي عن سـوء الخاتمة غير المقصودة. فأسمعه يقول لي وأنا في طريقي إلى التواليت:

"أدخل برجلك اليسرى".

ويعـود ليفسر لي كما فعـل عشرات المرات بأننـي إذا إلتزمتُ بهذه العـادة وحدث أن مِتُ في اللحظـة التي أكون ماداً فيها رجلي اليسرى فأننـي سأسـقط للخلف وبذلـك أتجنب الموت داخـل التواليت. وفي ذلك ضمانة لعدم دخولي في حسـابات سوء الخاتمة المعقدة. فعل ذات الشيء عند عودتنا من جولات التزود بالدماء والفحص المختبري أو زيـارات عيادات الأطباء. كان يترك لي مسـافةً أتقدم بها عليه إلى باب المنزل ويأتي صوته المبحوح من الخلف:

"أدخل برجلك اليمنى".

أمتثل واقفاً بوضع الاستعداد وأنفي يكاد يلتصق بالباب المعدني. أدفعـه بهدوء وأمد رجلي اليُمنى وأحيانا كنتُ أردد بنفسي مثل شـعار محفوظ:

" لضمان سقوطي إلى داخل المنزل إذا فاجأني الموت في هذه اللحظة فأكسب حُسن الخاتمة".

وحتى بعد إعتزاله الجامع وسـماحه بدخول التلفزيون الذي لم يعد كافراً إلى منزلنا وصارت لسطح بيتنا قبعة ستلايت مقلوبة، لم ينس أبي

تذكيري المستمر بترديد الشهادتين قبل النوم:

"لأن من كانت هذه آخر كلماته ومات دخل الجنة".

"ألا يكفي مرض الثلاسيميا سبباً لدخول المصاب به الجنة" أسأل نفسي باستمرار محاولاً اكتشاف عدالة أن لا تشفع لي كل تلك السنوات من المرض الجاثم في كل خلية من جسمي، لتشترط علي الجنة ترديد مجرد كلمات قبل أن تفتح لي أبوابها. كلماتٍ يُمكن لأي سفاح سليم الجسم بلا دماء تُزق فيه ولا إبر ديسفيرال تنهش جلده. أن يقولها فيُنقّى كالثوب الأبيض من الدنس ويدخل الجنة التي قد لا أدخلها أنا لأنني لم أمد الرجل المناسبة في المكان المناسب ولم أتفوَّه بالكلمات المطلوبة.

أما أمي فلها طقسها الخاص في إنتظار استقبال فجيعتها بموتي لشعور لم تستطع التخلص منه أبداً بأنها أول من سيكتشف ذلك. بل تحرص وبكل ما أوتيت من أمومة على تتبع خطواتي داخل المنزل وتفقدي خلال النوم. تدفع بهدوء فجر كل يوم باب غرفتي مختتمةً زياراتها الليلية وتسير بخطواتها التسع على رؤوس أصابعها نحو سريري. وفي كل مرة تشطب استجابتي لندائها الخافت عن وجهها لحظات بدء الصدمة المتشكلة. ترفع اللاصق بهدوء من الجهتين، تنظر إلى وجهي ثم تسحب الإبرة. تفكها بحذر من الأنبوب كأنها حشرة سامة وتلقيها في سلة المهملات. تضع المضخة بعد فصل الأنبوب عنها فوق دولابي. أتقلب بحرية في السرير مستجيباً لحركة عضلاتي اللاإرادية بعد ليلة قيد كاملة. أنهض متثاقلاً بسبب الإعياء المزمن او محاولةً مني لإخفاء حالة الانتصاب غير المخطط لها والتي أحدثتها لسعة البرد الصباحية أو حلم مارست فيه أو كِدتُ رجولتي التي أعجز عن ممارستها في صحوي.

(زاهدة)

الأمهـات يفرحن بأطفالهـن وهُم يكبرون أمـام أعينهن ليل نهار. بخلافهِـن كان خوفي هو الذي يكبر مع ولـديّ وأنا لا أعرف إن كان المرض سـيظهر على إيثار كذلك أم سـينجو ويكون سـبباً لشفاء أخيه ونجاتـه. مرت الأشـهر الأولى عـلى ولادتي الثانية كأنهـا إمتدادُ لفترة الحمـل. فلـم أكن أتـرك إيثـارًا إلا نائِـما في المهـد ومربوطـاً بإحكام. والدقيقـة التـي كنـت أتركه فيها عـلى الأرض بعد تحريـره من القماط لألقـي بحفاظتـه المتسـخة كان جابـر أو والـده يتوليـان مراقبته. ولم أعتمـد على حماتي قط في ذلك. ليس بسـبب عظامهـا المريضة وضغط دمها المرتفع وقرحة معدتهـا ومعارضتها لفكرة إنجابنا طفلاً جديداً. بـل للتصرفـات الغريبـة التي طرأت عليهـا في تلك الفـترة، إذ كانت تكلم نفسها أحياناً وتخلط بيني وبين بناتها عندما تطلب شيئاً فتناديني بأسـمائهن واحدة تلو الأخرى. وحدث أن خرجت حافية إلى الشارع مرتين، أعادها الجيران في واحدة منها بعد أن وجدوها تمشي في إحدى السـواقي الآسـنة. لذلك كنت أقفل البـاب الخارجي وأبقـي المفتاح معلقا بخيط في رقبتي.

فيـما عـدا سـاعات نومـه كان إيثـار محمولاً بـين ذراعـي، أرضِعه وأهدهده وأجول به أنحاء المنزل والحديقة والسـطح. ويكون بداخل حمالة عـلى صدري عند قيامي بإعمال المنزل التي أصبحت أسـهل مع موافقة سليم بعد عناء طويل على شراء أجهزة غسل الملابس والأطباق والمكنسة كهربائية التي كان يقول بأنها تُذهِب البركة من البيت.

لا يُمكـن وصف الرعب الذي كان ينتابني ما أن يتلوى إيثار باكياً

بسبب الغازات في بطنه. رُكبتاي كانتا ترتجفان حين أتذكر الأعراض ذاتها التي كانت تظهر باستمرار على جابر فترة أصابَهُ المرضُ المشؤوم. ولم يكن يهدأ لي بال إلا بعد أن ألقمه ثديي وأطمئن بأنه قد سكن ونام. أصيب في شهره الرابع بالزكام الذي نقل سليم عدواه لنا جميعا، ذهبنا به إلى طبيب أطفال ولم أخرج من عنده إلا وهو يقسم لي بأغلظ الأيمان بأن الزُكام سيختفي بعد يومين أو ثلاثة وأن لا حاجة لأي دواء ما دام يشرب حليب صدري. كُنتُ أوقِظ سليمًا من النوم ليلاً وأسأله إن كان يلمح أي تغير طرأ عليه:

"هل وجهه مصفر، هل ترى شيئا في بياض عينيه".

وكان يجيبُ نافياً وهو نصف نائم، فلا يريحني ذلك. وأقرب إيثاراً منه، أضعه على السرير بجواره وأشعل مصباحاً آخر في الغرفة فيقول بأن الوسواس سيُفقدني عقلي ويدير لنا ظهره ويرتفع صوت شخيره.

أعيد عليه السؤال في النهار قبل مغادرته المنزل وعند دخوله. وأحياناً أجلب له حفاضة متسخة وأستفسر منه إن كان هنالك تغير في رائحة البول ولونه. كان يبتسم عندما يكون مزاجه على ما يرام ولا يرد بشيء في العادة، لأنه كان يعرف بأن رفضه إجراء الفحص هو السبب وراء قلقي الذي أصبح مثل المرض.

كنت ألجأ إلى جابر لكي يستمع معي إلى بكاء شقيقه وأساله معتمدةً على ذاكرته القوية:

"ألم يتغير صوته".

فيجيبني باسماً:

"لقد كبُر اليوم قليلاً".

كان هـذا قبـل أن يقتلـوا صديقـه الوحيـد وليـدًا. ويتركـوا جثته مقطوعـة الرأس على رصيـف منزله وتحت رجله غير المشـلولة عبوة ناسـفة فككها الجيش بعـد أربعة أيام كاملة بقيت أمه المسـكينة تبكي فيها وتشـد شـعرها في الشـارع والجيران يمنعونها مـن الاقتراب منه لكي لا تفقد هي الأخرى حياتها وتترك ابنتيها وحيدتين بلا معيل.

تمكـن الحزن من جابر وأعطي في ذلك الشـهر كيـس دم ثُم بعدها بأيـام قليلة كيسـاً آخر لتدهـور صحتـه وأصابته بالتهابـاتٍ في حلقه وأنفـه. كُنـتُ أعرف مـن ميلان رقبتـه وملامـح وجهـه المنقبضة أنه يعاني أوجاعاً في جسـمه لكنه أمتنع عن الشـكوى وظل حبيس غرفته لأسابيع لا يغادرها إلا مجبراً لأخذ الدم أو لإجراء فحص ما. إمتِناعهُ عـن الكلام وعـدم ذرفه ولا حتى دمعـةً واحـدة كان يزيد من خوفي عليـه. وعبثـاً حاولتُ إقناعـه بالبكاء لكي يُريح نفسـه ويُخـرِج ما في جوفه من ألم على صديقه.

رفض أيضاً الذهاب إلى المدرسة وجمع في أحد الأيام كُتبه ودفاتره في صالة المنزل وانشغل على مدى يوم كامل يصنع من أوراقها أكياساً مستخدماً الصمغ. سجل على كل واحِدة منها رقماً وحين أكمل رزمة كبيرةً أخذها في صباح اليوم التالي إلى التنور في سـطح المنزل وأحرقها كلهـا وظـل واقفاً يراقب دخانهـا حتى أختفى تماماً ثم عـاد إلى غرفته وأغلق الباب على نفسه.

منتصـف شـهره الخامس تقريباً بـدأت أطعِم إيثـارًا صفار البيض المسـلوق والـرز المطحـون مـع الحليـب والعسـل وحسـاء الدجـاج ومنقوع التمـر واللبن الخاثر وعصير البرتقال والمـوز. كانت ذريعتي في ذلـك لسـليم ولحماتي في أوقـات صحوتها أنه لم يعد يشـبع بحليبي فقـط. لكن في الحقيقة كنت أحاول القيام معه بأشـياء مختلفة عن التي

فعلتهـا مـع جابر عندمـا كان بمثل سـنه. إذ كنـت أظن بـأن اكتفائي بإرضاعه حليبي وحده فقط جعل جسـمه ضعيفاً فتغلب عليه مرضُ الثلاسـيميا بسـهولة. وما فعلته مـع إيثار كان تصحيحـاً لذلك الخطأ محملةً نفسي مسؤوليته، لأنني لو كنت أُماً صالحة لما وقع أصلاً. وحين أكمل شـهره السـادس الذي حدده الأطباء لظهـور المرض كان وزنه قـد إزداد وبدأت ألبِسُـه حفاضـات رقم(4) المناسـبة للأطفال بعمر سـنة. وأصبح رأسـه ثقيلاً عليه ولا يقوى على تعديله حين أُجلِسُه في حِجري بسبب خديه المنتفخين والمتوردين على الدوام.

في مساء شتوي ماطر كان إيثار على السجادة الأرضية لغرفة نومنا يرفع بمشقة رأسه ويحاول الزحف على بطنه للوصول إلى نصف موزة وضعتُهـا في طبـق صغير أمامه. كنا نتابعه سـليم وأنا من فوق سريرنا ونخنـق بيدينا ضحكاتنا على تصرفاته البريئة والطريفة. إنتهزت الجو المناسب لفتح الموضوع. وبدأت ذلك بسؤالي المعهود:

"أليست صِحته جيدة والحمد لله".

فرد سليم مازحاً:

"ما شاء الله لقد أصبح فيلاً صغيراً".

ثم قلتُ مزهوة بإجابته:

"سيدخل شهره السابع بعد أيام".

تجاهـل ما قلتـه وأصدر أصواتاً لجلـب إنتباه إيثـار الذي نجح في الاقتراب بأصابع يده من قطعة الموز. كنت قد انتظرت تلك اللحظات بفارغ الصبر، لهذا لم أقاوم سـيل الكلمات وهي تتدفق معبرة عما يجول بصدري:

"المرض اللعين كان موجوداً في جسد جابر وهو بهذا العمر. بكاؤه وقلة نومه ولون بوله كلها كانت إشارات لم أفهمها، لأنني لم أكن قد سمعت بالثلاسيميا الملعونة، لا أنا ولا حماتي ولا أمي ولا أنت، لا أحد".

أجفل إيثار من صوت دوي الرعد. رفع رأسه بصعوبة، أغمض عينيه وفتح فمه ليبدأ البكاء لكنه شاهد الموزة وحاول مجدداً الإمساك بها.

" أرجوك، أقبِل يديك لم أعد أحتمل عذاب الانتظار. لنتوكل على الله ونُجري فحص التطابق النسيجي".

لم يغضب كما توقعت. أعتدل في جلسته وكان صوته يرتعش حين قال:

"أنا مثلك أعد الساعات. وأحمِدُ ربي في اليوم ألف مرة لأن أياً من علامات المرض لم تظهر عليه لغاية الآن. لكنني لن أحتمل أبداً الذهاب به إلى المختبر لأكتشف هناك أنه مصاب بالثلاسيميا وأن الهيموگلوبين الجنيني هو الذي يبقيه سليماً كما حدث لجابر حتى إنتهى عمره وبدأ جسمه ينتج الدم المريض".

صمت لحظات ثم أكمل:

"ولكي أخفف من صدمة ظهور المرض على إيثار لا سمح له. واصلت طوال الأشهر المنقضية بحثي عن متبرع بالنخاع. وأرسلت بواسطة جمعية الثلاسيميا تصنيف أنسجة جابر إلى الخارج. لكن لم نعثر على تطابق لها في السجل العالمي للمتبرعين الذي يضم سبعةً وأربعين مليون متبرع. أنا أيضاً تعبت من لهفة إنتظار نتائج العينات وتلقي آلام نتائجها والطرق التي أجد الأبواب مؤصدة في نهايتها".

سـالت الدموع ساخنةً على خدَّيّ. أحسست بضيق في صدري ولم أعد قادرة على الكلام. مسـح بإحدى يديه دموعي وقال بحنان وهو يضمني إليه:

" لم أكـن أريـد إعلامك بهذا الأمر. ولهذا يجـب أن تُدركي أن أملنا الوحيـد بعد الله هو شـقيقه. وأعدك بأننا سـنجري له فحص التطابق بمجرد إكماله شـهره الثامن لكي نطمئن بشـكل كامل. لن ننتظر أكثر من ذلك".

وصـل إيثار أخيراً إلى الموزة وبدأ بالتهامها وهي مهروسـة في يده. قال لي سليم بعد أن قبلني من جبيني:

" يجب ان لا تفقدي ثِقتكِ بأبي فلينة !".

قبيل فجر ذلك اليوم. أفقت لأجد جابرًا جالسـاً على حافة السرير مـن جهتـي ومِضخة الديسـفيرال معلقة بكتفه. كان ينظـر إلى أصابع يـده اليسرى. وبيده اليمنى يهُز مهد إيثار الغـارق في النوم. نظرت في السـاعة المعلقة أمامي على الجدار فوجدتهـا منتصف الثالثة. أي مضى على نومي نصف ساعة ولا أعرف متى دخل الغرفة. هو لم يفعل ذلك منـذ أن كان في الرابعـة. لم يدخـل عليَّ غرفة النوم ليـلاً مطلقاً. كما أنه كان متوقفاً عن الكلام منذ فترة طويلة. مددت يدي، لامسـت ظهره وقبل أن أسأله شيئاً، قال بصوت مرتفع:

"متى ستجرون لي العملية؟".

(سليم)

إنضـم سـليم إلى مجموعـة (أصدقـاء بالـدم) التي أسسـتها جمعية الثلاسـيميا وضمـت ألف متبرع دائـم للمرضى، يسـدون النقص في مخـزون مـصرف الـدم ويتواجـدون في حـالات الطـوارئ. وقام مع ناشـطين آخرين بجولات بـين جوامـع المدينة والاتحـادات الطلابية والنقابـات المهنيـة للفت أنظـار المجتمع المنشـغل بتدهـور الأمن إلى عـشرات الأطفـال المـرضى الذيـن يموتون شـهرياً لأنهـم لا يتلقون الرعاية الصحية اللازمة بسبب نقصِ الخبرات ومستلزمات إغاثتهم. علـق ثقتـه الإيمانية الكاملـة بقاعدة الجزاء من جنس العمل، وسـخر جهده ووقته لمسـاعدة المصابين بالثلاسـيميا لكـي يحصل على الجائزة الإلهيـة الثمينة فيجتاز إيثار مرحلة توقـع ظهور المرض وتكون نتيجة التطابـق النسـيجي لنخـاع العظـم مع شـقيقه إيجابية. وخـلال ذروة نشـاطه شـارك أيضـاً في ندوات وأنشـطة التوعيـة، قدمـه ثائر رئيس الجمعيـة في واحدة منها بوصفه والد مريـضٍ مكافح. زخ عرقه مطراً يومها عندما وقف أمام مائة شخص ترقبوا بشغف ما سيقوله. ولولا المنصة الخشـبية التي أخفته إلى حدود الصدر لإتضح لهم جلياً إرتجافه وحيرته في المكان الذي يتوجب أن يضع فيه يديه. إختنقت الكلمات في حَنجرته فأطرق برأسه يُحاول استجماع طاقته. بدا ذلك مؤثراً للبعض وأدمعـت أعينهم معتقدين بأن عاطفة الأبـوة المتدفقة تحول بينه وبين الكلام. فصفقوا بحرارة لتشـجيعه ووقف أحدهم من الصف الرابع فتبتعه سيدة كانت تجلس خلفه مباشرةً ثم آخرون من صفوف أخرى حتى ضجت القاعة بالتصفيق والهتاف، والتمعت أضواء الكاميرات

وفوجئ منظمو المؤتمر بتجاوز عازِفَيْ عود وكمان تسلسل تقديم الفقرات وعزفا لحن أغنية الختام قبل أوانها. الأمر الذي فاقم حالة التأثر العاطفي ليغرق فيها الجميع. ورجع سليم إلى مقعده في الصف الأمامي دون أن يقول ولا حتى كلمة واحدة.

حضر إجتماعات الجمعية وساهم مع أعضائها بوضع أفكارٍ للبرنامج الأول من نوعه في البلاد للوقاية من مرض الثلاسيميا، مراعين طبيعة المجتمع المحافظ والمتشدد بتقاليد زواج محاطة بسور حديدي من التعاليم الدينية والأعراف العشائرية. ووضعوا نصب أعينهم فحص ما قبل الزواج كحلٍّ وحيد ونهائي للقضاء على المرض وناقشوا مقترحاً لفرض رسوم على إجرائه في مختبرات المستشفيات والمراكز الصحية. واستخدام الأموال المستحصلة منها لمعالجة المرضى وتوفير العِلاجات. ودعوا الجهات التشريعية إلى تبني المشروع وإصداره قانوناً ملزماً يوقع عقوبات صارمة ضد المخالفين.

تطوع لتوزيع ملصقات ملونة إحتوت فقرات ترويجية للبرنامج. وضعها بحسب التسلسل المدون في سجله على جدران المستشفيات والجوامع والمدارس ورياض الأطفال وأعمدة الكهرباء ومداخل الجسور. وقضى ساعات كثيرة يعصف بها أذهان الفضوليين في الأماكن العامة ومعه كيسُ ملصقاتٍ بأحجام وأشكال مختلفة. وذات جمعة وصل فيها للتو إلى جامع المدينة القديم لوضع مُلصقاتٍ كبيرة على الجدارين اللذين يشكلهما ممر المدخل لتبدو واضحة للمصلين بعد خروجهم من أداء الصلاة. لكنه وقع في كمين لقوات الأمن. أدخلوا رأسه في كيسٍ أسود من القماش السميك وقيدوا يديه من الخلف ثم ألقوا به في سيارة همر إنطلقت مسرعة بغنيمتها.

في ساعة التحقيق الأولى التي خضع لها مساءً في قاعدة عسكرية إتضحت سلامة الموقف الأمني لسليم وثُبِتَ في المحضر بأن الملصقات التي ضُبِطت بحوزتِه لم تكن منشورات معادية وكاد المحقق أن يُطلِق سراحه في الصباح لولا إقراره في اللحظات الأخيرة بالإنتماء إلى جماعة أصدقاء بالدم متوهما بأن ذلك سيُبيض سيرته. لم تُطفأ أجهزة الحاسوب الإستخبارية في تلك الليلة وأرسلت العشرات من الرسائل المشفرة تحذر من ظهور جماعة مسلحة جديدة تحمل اسماً دموياً وتضم ألف شخص ناشط. وتم شن حملة مداهمات وتفتيش واعتقالات شملت منازل أشخاص عاثري حظ من الجماعة تذكر سليم أسماءهم بعد تلقيه وابلاً من الصفعات والركلات وهو معلق من رجليه بالسقف. بعدها بيومين اقتحمت قوة قِتالية مقر جمعية الثلاسيميا وأفرغت دواليبها من الملفات والسجلات، جمعوها في صناديق وأخذوها مع ثائر للتحقيق. تطلب الأمر تدقيقاً في الأسماء التي ضمها محضر تأسيس الجماعة وسجل الأعضاء وتبرعاتهم ومطابقتها بالقوائم الموجودة في مصرف الدم. والعثور في الانترنيت على أخبار نشرتها الصحف المحلية عن الجماعة والدور الإنساني الذي تقوم به والاستماع إلى إفادات المعتقلين من أعضائها وشهادة ثائر رئيس الجمعية التي حسمت الأمر وأغلقت القضية وأطلق سراح الجميع بعد أسبوع من الإعتقال.

على الرغم من توقف سليم عن النشاط الطوعي وعدم مغادرته المنزل إلا لقضاء حاجات ضرورية تعلق معظمها بجابر بناءً على قسمه لزاهدة في المطبخ ويده على المصحف. لكن ذلك لم يمنع مجموعة ملثمين ومسلحين بمسدسات وبنادق كلاشينكوف من إصطياده بعد

ذلك بأربعة أيام عندما قطعوا الطريق أمام سيارته في مدخل الشارع لدى عودته من الصيدلية ومعه كيسٌ مليءٌ بالديسفيرال وحامض الفوليك. وضعوا عصابة على عينيه وقيدوا يديه من الخلف ثم وضعوه في الحقيبة الخلفية لسيارة سوداء بدون لوحة أرقام ولم يترك اختفاؤها الصاروخي سوى غمامة من غبار ودخان إطاراتها.

أبقوه مقيداً والعصابة على عينيه وأجلسوه على بلاط أرضية غرفة بدت له خالية من الأثاث بسبب صدى وقع الأقدام. بقي لنحو ساعة كاملة يُحرك رأسه باتجاه صوت أي حركة تصدر من حوله. شفط أحدهم رشح أنفه. تنفسُ آخر كان كالشخير. رنة رسالة جوال. طقطقة عظام شخص نهض. سُعال مكتوم. تثاؤب. كان يعرف بأن هنالك أكثر من شخص يراقبونه، لكن لا أحد منهم رد على سؤاله المتكرر عن سبب ما يحدث له. فجأة سأله صوت قريب من وجهه عن اسمه فارتد بجذعه إلى الخلف فزعاً وأجاب متلعثماً:

"سليم مجيد سعيد".

أدار رأسه في الاتجاهين مهيِّئا أذنيه لالتقاط سؤال آخر. لكن لم يكن هنالك سوى صمت ثقيل استمر لدقائق حتى أخذ يشكُ بأنه كان قد سمع شيئاً قبلها بالفعل. حاول التأكد من ذلك كمن يمد خطوة غير واثقة في الظلام وسأل الصوت مستفسراً عن الجهة التي قبضت عليه. وعندما لم يسمع سوى ارتداد صوته واصل الكلام مجيباً عن سؤال مفترض هو: "من أنت؟":

"لا هم لي في هذه الدنيا سوى ابني المريض وانتظار الفرج من الله ويمن عليه بإجراء عملية زرع نخاع العظم ويشفى. هذا ما أطمح إلى

رؤيته في المتبقي من عمري".

صوتٌ آخر سأله بحدة من جهته اليمنى كان أبعد قليلاً من الأول ونبرته آمرة:

"مـاذا كنت تفعل عند قـوات الكُفرِ والضلال قبـل أيام. هل أنت مُخبِرٌ لديهم. مرتدٌ عن دينك يا هذا؟".

أحاله الصوت فوراً إلى الجثث التي شـاهدها أو بقاياها في شوارع المدينة خلال الأشـهر المنصرمة. وإعلانات الموت الشـارحة لأسباب قطع الرؤوس أو ثقب الأجسـاد بالرصاص أو نسفها بالقنابل. وكان معظمهـا فيهـا واحدة مـن هذه المفـردات (كفار، محتلـين، مرتدين). وتجتمع ثلاثتها في بعض منها كما إجتمعت في تلك اللحظة من خلال التهمة الصوتية الخطيرة الموجهة إليه.

"لقـد اعتقلـوني في الجامـع بسـبب ملصقـات الثلاسـيميا. وأنا لا أعرف شيئاً حتى أخبرهم عنه".

سأله الصوتُ ضاغطاً على الكلمات:

"والأبرياء الذين أبلغت عنهم واعتقلوهم من بيوتهم؟".

"ذكرت لهم أسـماء مـن أعرفهم مـن المتبرعين من جماعـة أصدقاء بالدم، ولم أكن أنوي سوءاً بأحد والله على ما أقول شهيد".

ثم أكمل بشيء من الحرج:

"لقـد عذبـوني، خلعـوا ثيـابي وعلقـوني ورشـوني بالمـاء البـارد وضربوني. كانوا سـيفعلون ما هو أسـوأ، لأنهم كانـوا لا يعرفون بأن الجماعة مجرد مُتبرعين بدمائهم لا غير".

سأله صوت من الجهة اليسرى:

"لم حلقت لحيتك وأطلت ثوبك وهجرت الجامع؟".

كانت الإجابة حاضرة وسبق له أن رد بها مرات عديدة على أسئلة فضولية مشابهة:

"لأنني أخاف الله وأخاف من لا يخافه. فهُم يَعتقلون على المظهر. أما صلاتي فأؤديها في المكان الذي يحين فيه وقتها. ففضلاً عن متابعتي لحصول ابني على الدم بعد تأمينه له وإجراء فحوصاته المستمرة ومراجعات الطبيب. أحاول قدر استطاعتي المساعدة في مبادرات لجمعية الثلاسيميا".

إنتظر سؤالاً آخر توقعه من الجهة اليمنى. وحين طال الصمت واصل ووجهه إلى الأعلى:

"تُسجل مائة إصابة جديدة بالثلاسيميا سنوياً في المدينة. وهذا يعني مائة عائلة تعاني ما عانت منه عائلتي طوال سنوات. لذلك أبذل ما في وسعي ليعرف الناس جميعاً خطورة هذا المرض وإجتنابه".

عاد الصوت الآمر ليسأله:

"ولماذا لا تبذل ما في وسعك من أجل نُصرة دينك؟".

خرجت الكلمات بصعوبة من بين شفتيه:

"ماذا يتوجب عليَّ فعله؟"

فسأل الصوت الذي كان قد أقترب كثيراً :

"كم تستطيع تدبيره من مال لإخوتك المجاهدين خلال يومين؟"

(جابر)

يقولـون بأن من يموت، تسـقط أولاً ورقته من شـجرة الحياة. وأنا ورقتـي العنيـدة مازالت معلقـة هناك تقـاوم ريح سـقطتها خريفاً بعد خريف. ولكن ماذا سـيترك شخصٌ شـبحي مثلي لو مات. أي نوع من الفراغـات سـيحدثه غيابي. سـيتخلص أبي من شـعوره بالذنب وحِمل المسـؤولية الثقيل وهو بمنفاه في القرية. وأمي ستواصل إعتناءها بإيثار كأنه ما يزال رضيعاً. وسـتندرس سـاعات اعتيادها الليلية على حراسة إبـرة الديسـفيرال المطمـورة في جسـدي ومراقبتهـا النهاريـة لعزلتي. وسـتمنح فِراشي وملابسي ومنشفتي وحذائي ومضخة دوائي ونباتاتي إلى الفقـراء صدقـةً عـلى روحي مختتمـة بها حسـنات رعايتهـا الطويلة لي. وسـيجد المقعـد الجلـدي المائل برتقـالي اللون في مركز الثلاسـيميا والأطبـاء والممرضـون والمختبريـون والصيادلة مريضـاً غيري يؤدون معـه الواجبات ذاتهـا التي أبقتني عالقـاً بين حياةٍ غـير مكتملة وموت تأخر عن موعده.

مرة واحدة فقط أردت فيها إسقاط ورقتي بنفسي وكان ذلك عندما ضربني زلزال مقتل وليد. أحسسـت في تلـك الجمعة بخيانة ما وقعت وأن الموت أخذه بدلًا من مني. وأن السكين التي قطعت رأسه كان يجب أن تمـر عـلى رقبتي أنا ويظل هـو لمواصلة حياته وقيـادة طائرة أحلامه. ليلتهـا لم تجد أمي بسـبب التقرحـات مكاناً لإبرة الديسـفيرال في بطني فشـكتها في عضدي اليمنى. وبقيت إلى جانبـي تضع على جبيني قطعة القـماش المبلولـة بالمياه لتخف عني الحمى التـي كنت أغلي بها ولم تخرج من غرفتي إلا بعد إطلاق إيثار صرخة إنذار جوعه. كانت هنالك غمامةٌ

أمام عيني حين نهضت مقاوماً الدوار والألم يطعن بسكاكينه جسدي بأكمله. فكرت أنني لو أخرجت الإبرة وغطيتها باللاصق فستكتشف أمي حين عودتها أن المحلول منسكب في فراشي. لذا رفعت السرنجة من المضخة بعد إرخاء شريطها ثم نزعت الأنبوب المطاطي. ومشيت الخطوات الأربع المطلوب نحو نافذتي. فتحتها بمقدار يسمح بمرور رأس السرنجة ثم ضغطت مكبسها.

إقتضت الخطةُ تركي الحديد يتراكم مثل الغبار في بطني حتى يُصبح ثلالاً فتموت تحت حمله أعضائي الداخلية وتتوقف عن العمل واحدة بعد الأخرى وصولا إلى قلبي. ساعدتني دماء مهندس برمجيات شاب حصلت عليها في آخر مرة على تبني هذه الفكرة وتطبيقها بشيطنة غير قابلة للكشف ثماني ليالٍ، ثلاثاً متتالية وخمساً أخرى بعد استراحة الليلتين. ولم تفطن أمي لما أقوم به كونها تُظهر في الصباح عداءها وتركيزها الكاملين على الإبرة والتخلص منها مع الأنبوب المطاطي والسرنجة الفارغة بدفنها في سلة المهملات.

في مقابل حالة كره النفس التي كنت واقِعاً تحت تأثيرها كان المهندس الشاب عاشقاً لها وحياتُه مليئة بالعطور ومساحيق الغسيل والمعقمات والماركات العالمية من الأحذية والثياب وساعات اليد والنظارات الشمسية والعديد من النساء بأوضاع مقرفة بالنسبة لي وأنا في ذلك العمر البريء. لا يرتدي الثياب الداخلية والجوارب ذاتها مرتين ولا يتناول اللحوم الحمر والخبز الأبيض والسكر. يمارس السباحة والمشي وينام تسع ساعات متواصلة ويخاف من القطط والتواجد في أماكن مرتفعة. كان يدور بكل حيويته وصخبه وألوانه الفاقعة في داخلي حيث يتفاقم السواد ويعشش المرض فارضاً سلطته، فحدث صراع بين رغبة

الحيـاة مـن جهته وتمني الموت مـن جهتي. لكنني قمعتـه، أو بالأحرى جسـدي هو مـن فعل ذلـك، إذ ظهرت في أماكـن متفرقة منه ما يشـبه الكدمـات، كأن مجموعة من الأشـخاص اجتمعـوا وضربوني بكعوب أحذيتهم. وغزت الالتهابات وجهي وفمي ولم أكن أقوى على الوقوف باسـتقامة بسـبب آلام في ظهري. أصبحت مثل رجل طاعن في السن، أمشي بهدوء وحذر وأستغرق دقائق من أجل إكمال مضغ لقمة واحدة.

أخـذني أبي إلى أطبـاء المفاصل والباطنية والجلديـة والأنف والأذن والحنجـرة. وطبعا إلى طبيبي زهير. الغريب أنني لا أسـتطيع تذكره إلا بالصـورة التي هو عليهـا الآن، كأن تقدمه في العمر تعطل في وقتٍ من الأوقات بسبب تناوله عقاراً سحرياً ما. في ذلك اليوم قبل إحدى عشرة سـنة وكذلك قبل خمسـة أيام كان أنفه محمراً وفي جبهته تلك التجاعيد الجلدية وشـعرٌ كثيفٌ نابت على ظهور أصابع يديه ولون شـاربه أسودٌ فاحـم وقبةُ صلعته على التماعتها. هل الـسر في بقائه بمظهر واحدٍ دون تغير كل هذه السـنوات يكمنُ في رأسـه؟ هل حقاً الصلعة لا تشـيخ؟. هو ليس طبيباً بارعاً، لا يُمكن لمريض بالثلاسـيميا لم تُجرَ له عملية زرع نخـاع عظـم أن يقول عن طبيبه أنه بـارع، فالجميع بالنسـبة إلينا أغبياء ماداموا غـير قادريـن على إشـفائنا. نحن فقـط لا نحب تغيـير أطبائنا القدمـاء. لأنهم مهما كانوا حمقى ولا يفهمون شـيئاً ونريد أن ننزع الإبر من أذرعنا وبطوننا ونغرسـها في أعينهم وصلعاتهم. يظلون أفضل من آخرين جدد يستغرقون وقتاً طويلاً حتى يستوعبوا سير مرضنا الطويلة والمعقدة وسـنحتاج نحن إلى الكثير من الصـبر وثقوب الإبر الإضافية في أجسـادنا حتى ينتهوا من أخطائهـم وهفواتهم المهنية ويقتنعوا أخيراً أن لا شيء بأيديهم يفعلونه لنا.

خضعت لمجموعة جديدة من فحوصات الدم والإدرار والصور الشعاعية وتخطيطين للقلب وآخر للسمع وتوصية من الدكتور زهير أدخلتني المستشفى ليومين أعطوني خلالهما ثلاث أكياس من المحلول المغذي عبر الوريد لوقفِ جفافي وكيس دم قبل أوانه بسبب الإنخفاض الحاد للهيموگلوبين وألحقوه بعدها بأيام قلائل بكيس آخر لتهدئة قلبي الذي كان يخفق بسرعة محاولاً سد العجز الدموي الحاصل في شراييني. في الليلة الثانية لنا في المستشفى قال لي أبي بعد أن تمعن بي مطولا:

"أفهم جيداً معنى خسارة الإنسان لشخص عزيزٍ على قلبه. لكن هذه هي إرادة الله. وأنت لديك حياتك ويجب أن تتمسك بها. لقد عانيت وتحملت الكثير وسيعوضك الله، أنا واثق من ذلك".

أغمضت عيني في تلك الأثناء فبدت له تلك الحركة علامة احتجاج. سمعته يقول محذراً:

"مناعة جسمك منخفضة كثيراً ونسبة الحديد مرتفعة عن السابق. استمرار هذا سيؤذي جوفك لا سمح الله ويقلل من إحتمال نجاح علاجك وشفائك الذي ننتظره أنا وأمك وجدتك وإيثار و ....".

ثم أكمل بعد صمت قصير:

"وليد".

وصل الطبيب الخافر بجولته إلى سريري. كان شاباً لطيفاً تفقدني أكثر من مرة في الليلة السابقة. أبلغ أبي بصوت هامس معتقداً بأنني نائم بأن الطبيب المختص سيكشف علي صباحاً ويمكن لي بعدها مغادرة المستشفى. ثم انتقل إلى سرير مجاور وردد نفس الكلمات تقريباً لوالد طفل في السابعة من عمره أجرى عملية زائدة دودية صباح ذلك

اليـوم. كنت أتابع ما يخبر به والد المريـض في السرير الثالث عندما قال أبي:

"وليد شـهيد يا جابر، لقد رحل مظلوماً. والشُـهداء كما يُخبِرنا ديننا الحنيف أحياء وبوسعهم رؤيتنا. وأكيد بأنه غير راضٍ عما تفعله بنفسك وبنا" .

فتح سجلهُ. قلَّب صفحات منه. ثم طلب مني الإستماع جيداً وهو يمسكني من ذراعي اليُمنى:

"هنالـك شيء كان يجـب عـلي إخبـارُك بـه في حينهـا لكـن وليـدًا استحلفني أن لا أفعل".

وضغط على ذراعي.

قلت دون أن أفتح عينيّ:

"وليد ميت".

"كان هذا قبل أشـهر. وجدته ينتظـرني في الخارج صباح أحد الأيام يريـد التـبرع لك بنخـاع العظـم. كان مـصراً ويعتقد بأن الأمر سـهلٌ وسـينقضي بمجـرد ذهابنـا إلى المستشـفى، فشرحـت لـه كيفيـة إجراء فحص التطابق النسـيجي الذي يسـتلزم إرسال عينة من الدم إلى بغداد وانتظار النتيجة. فأقسم بأننا سنأخذ معنا أمه وشقيقتيه أيضاً إلى المختبر وقال بأن أربع عينات دم أفضل من واحدة".

بكيـتُ بحرقة في مكاني السري، لكن عـلى السرير وبجواري أبي في ذلـك المستشـفى الكئيـب طفت على وجهي إبتسـامة بلهـاء وهي التي شجعته على المواصلة:

" لم يتركني إلا بعد سحب العينات في المختبر وأطمأن أنني وضعتها في الحافظة المبردة وأرسلتها بيد المعتمد إلى بغداد. وظل يتصل بي طوال أسبوع حتى أخبرته بورود النتائج وكانت طبعاً سلبية. اختفى صوته قبل أن يقطع الاتصال. لكنه عاد واتصل بعد دقائق وعبَّر لي عن ثقته من أنك ستجد المتبرع وستجري العملية وتشفى".

لا أعلم إن كانت تلك دمعة مسحها أبي بيده أم أرادني أن أفتح عيني لكي أشاهد ملامحه وهو يخبرني بأن وليدًا أحبني كثيراً وشفائي من المرض كان أكثر شيء تمناه. وستكون خيبة كبيرة له حتى وإن كان ميتاً إن استسلمتُ أنا وتوقفت عن الأمل.

سيطر عليَّ منذ ذلك اليوم شعور تضخم فيما بعد ليتحول إلى قناعة بأن وليدًا موجود في مكان ما، هو قريب مني يراقبني من خلال عدستي نظارته الطبية الكبيرة. يصفق بعكازيه للأشياء الجيدة التي تصدر عني ويستاء من حالات ضعفي ودخولي في نوبات اليأس. تخليت عن خطط تعجيل موتي ورحت أحدثه واثقاً من استماعه لي عن الأشخاص الذين يظهرون لي في الدم. وصفتُ له أشكالهم وعوالمهم وانتقيت لحظات بارزة من حياتهم وسردتها له بتفاصيلها الكاملة. كُنت أعرف أين ينبغي عليَّ التوقف لكي يُكمل ضحكته ومتى سيطلب مني إعادة ما قلته، لأنني تحدثت بسرعة فأكرر ببطء. أخترتُ له المواقف المبهجة وأخفيت التي توقعت أنها ستصيبه بالحزن، هكذا هم الأصدقاء.

وهذا سر لهفتي لمعرفة ما في كيس الدم كل ثلاثة أسابيع على الرغم من كرهي لوخزة الإبرة التي تعقبها الدفقة الدموية ولساعات الانتظار الطويلة ولحامل الكيس الحديدي الذي يشبه ببروده وعدم اكتراثه

الأطباء والممرضين. وللحريق الذي يشعله الدم الدخيل قبل إعتيادي عليه. أصبح عندي أخذ الدم مثل لعبة الحظ. أدخِلُ يدي في الكيس لأخرِجَ واحِدةً من الأوراق المدفونة فيه وأقرأ بصوت عال لوليد ما في الورقة ثم أنتظر ثلاثة أسابيع لسحب ورقة أخرى.

في تلك الليلة الراعدة بعد شهر من مقتله وحدادي المتواصل عليه ظهر وليد. مشى صوبي مُطلقاً تلك الضحكة الشريرة والمشاغبة التي اعتاد على استقبالي بها ووقف أمامي مباشرةً من دون عكازيه. ثم ضرب الأرض برجله اليمنى ودار حول نفسه مرتين مستعرضاً أناقة ثوبه الأبيض وأطرافه الكاملة. بقيتُ فاغر الفم وعيني على رجله المتعافية حين مد لي يده قائلاً بنبرته الطفولية:

"مازلت تخشى النظر في عيون الآخرين".

عجزت عن رفع رأسي وتحريك يدي لمصافحته. جسمي بأكمله كان خارجاً عن سيطرتي وقلبي نبض بشدة من الفرح. سألته كيف استطاع معالجة رجله. فأجاب بمرح وهو يرفعها ليعود ويصفقها بالأخرى:

"ذهبت إلى حيث كل شيء ممكن. تعال معي سوف أريك".

شاهدتُني أتبعه داخل ممر دهليزي ضيقٍ أحمر بلون الدم يتسع كلما تقدمنا إلى الأمام. أنا الذي في غرفتي كنتُ ما أزال مشلولا ولا يتحرك مني سوى عيني اللتين كانتا ترانا مبتعدين، وليد بخطواته الواسعة وأنا الآخر الذي كُنت أسير خلفهُ بخفة طائر فرَّ توًّا من قفصه. لون بشرتي فاتح مثل بشرةِ أمي ولا أثر لنُدوب الإبر فيه وقامتي بطول فتى طبيعي في عامه الثالث عشر. إنتهى الممر بقاعة واسعة على مد البصر. حدود

سقفها السماء وحشود هائلة من الناس تسير في مختلف الاتجاهات مثل أمواج متعاكسة لكن لا يصدر عنهم أي صوت، كأنهم أطياف وليسوا أناساً من لحم ودم. سألني وليد مشيراً إليهم بذراعه مفتولة العضلات:

"هل تعرف أين نحن ومن هؤلاء؟".

أنا الذي في الغرفة وأنا الذي برفقته قلنا بصوت واحد:

"كلا لا أعرف".

فقال بعد أن دار على كعبه الأيمن:

"هذه أرض الأمنيات، والذين تشاهدهم أمامك مثلك ومثلي حُرموا من شيء ما في حياتهم وجاؤوا إلى هنا قادمين من مختلف أنحاء العالم ومع كل واحد منهم رغبة واحدة فقط يُريد تحقيقها".

فاحت رائحةُ المطر وأنا الذي في الغرفة شعرتُ بالبرد ووخزة إبرة الديسفيرال. أنا الذي هناك أردت أخبار وليد بأنه وسيمٌ من غير نظارة وتسريحته الجديدة، لكن موجة بشرية أخذتني معها فجأة وجاءت أخرى تُقابلها فتداخلت معها وصرت أمشي على رؤوس أصابعي تدفعني الأجساد وصوت ندائي على وليد لا يبلغ فمي. رأيتُني من البعيد مثل قطرة في بحر لا نهاية له. أضاء البرق غرفتي، لكن الرعد ضرب هناك مثل سكين عملاقة شقت بحر حشد أمامي مشكلاً طريقاً مستقيماً، جداراه وجوهٌ بلورية كلها تشبه وجهي. ركضت فيه مسرعاً وشيئًا فشيئًا أحسست بألفة اتجاه المكان وبأنني سبق وأن كنت هنا ذات مرة وقمت بهذا من قبل. خشيت الإبطاء كي لا تدعسني الموجة البشرية التي ظننتها ما تزال خلفي. أنا الذي في الغرفة كنت أعرف بأن الناس اختفوا. لكن أنا الذي هناك احتجت إلى وقت لأعرف ذلك

ولأتذكر بأن المكان هو ذاته الذي أفر إليه للبكاء والشكوى والصراخ من الألم. حين التفتُ لم أجد سوى فراغٍ شاسعٍ، والأرض بساطٌ أخضر، فيما الوجوه تتغير ملامحها لتصبح للذين حصلت على دمائهم طوال السنوات الفائتة، كانت تبتسم لي حين التمعت بضوء البرق الخاطف الذي امتد بين الأرض والسماء ومع الرعدة ظهر وليد بجانبي ماداً ذراعيه يصفق بهما مثلما كان يفعل مع العكازين، فنزل شعره بفعل حركته ليغطي عينيه:

" رغبتي هي أن تعود"، قلتُ أنا الذي في الغرفة.

تلاشى وليد مثل ضوء إنطفأ. وجاء صوته من وجه بلوري في الجهة اليسرى:

"الموتى لا يعودون. وأنا سبقتك إلى هنا برغبتي في أن تشفى وهذا ما سيكون، ستُشفى".

قالتها الوجوه البلورية الأخرى في الجهتين بأصوات مألوفة:

"تشفى، تشفى، تشفى".

كررتها بلا توقفٍ وبدأت أجساد غير مرئية تدفع بي إلى الأمام. وكلما ارتفعت أصوات الوجوه كلما دُفِعتُ لأجري بنحو أسرع.

أيقظني صوت الرعد. كانت نافذتي مفتوحة وستارتها الزرقاء ترفرف من شدة الريح والأمطار تهطل غزيرةً في الخارج. بينما كلمة"تشفى" ما تزال تتردد في رأسي فأخذتُ اتلفظ بها وأنا أعلق مضخة الديسفيرال على كتفي وسرت بخطوات قصيرة نحو الباب قاصِداً أمي وأبي وفي صدري أملٌ أعاده لي صديقي الميت.

(كالانيلو)

تلقى بريد ثائر الالكتروني الرسالة المنتظرة من إيطاليا. وكانت من البروفيسور كالانيلو مدير مركز زراعة نخاع العظم في مستشفى(ميكروجتيميكو) في مقاطعة كالياري عاصمة جزيرة سردينيا. ونصها:

السيد ثائر إبراهيم خليل المحترم

أطلعت بكثير من الاهتمام على تقريركم الأخير بشأن المصابين بمرض الثلاسيميا في منطقتكم وأنه لشيء مؤسف بحق أن نفقد أطفالاً بأعمار الزهور بسبب الافتقار إلى البنى التحتية والخبرات العلاجية اللازمة. وكذلك فإن تجاوز عدد المصابين عن ألفٍ يعني أن هذا الرقم سيتضاعف إذا لم يتعاون الجميع من أجل وقف ذلك. واستقبالنا أربعًا إلى عشر حالات سنوياً من أجل إجراء عمليات زرع النخاع مهمة جداً لكنها غير كافية بكل تأكيد. إذ لابد من برنامج وقاية يُطبق بشكل عملي لمعالجة السبب الرئيس للمرض وهذا ما تحدثنا به مطولاً خلال زيارتك إلى إيطاليا. وبصفتي خبيراً لدى منظمة الصحة الدولية في صياغة برامج الوقاية من الثلاسيميا فضلاً عن تخصصي بالمرض، يشرفني إرشادكم إلى أفضل برنامج يتلاءم مع طبيعة مجتمعكم والأعراف والقوانين السائدة فيه.

عزيزي ثائر:

إذا أردتم مواجهة مرض الثلاسيميا والقضاء عليه فعليكم بتبني فكرة الوقاية منه. هذا هو السلاح الأكثر نفعاً في هذه الحرب لأنه سيوفر أرواحاً والكثير جداً من الأموال. ستحتاجون إلى توعية

المجتمع بضرورة إجراء الفحص للكشف عن صفة الثلاسيميا وخاصة للمقبلين على الزواج. وتوجيه النصح إلى العائلات بتجنب زواج الأقارب قدر الإمكان. وسيتوجب قيامكم بإدراج هذا الإجراء الوقائي في المناهج التعليمية كافة. وإقناع الجهات التشريعية لديكم من أجل وضع قوانين إلزامية تعمل بها المحاكم. أهمها فرض فحص ما قبل توقيع عقد الزواج. وهذا القانون هو الوسيلة الوحيدة للحدِّ من إنتشار مرض الثلاسيميا عندكم. وأؤكد لك أنه لو أُقِر التشريع ونُفذ بدقة لمدة عشر سنوات فلن تكون هنالك حاجة لوجود جمعية للثلاسيمياً ولا إلى مراكز علاج. لأن المرض سيختفي ببساطة.

من جهتي، سأعمل جاهداً من أجل الوصول إلى اتفاقية بيننا وبينكم نقدم بموجبها خدمات صحية من علاج وتدريب طبيين وخدمات إستشارية وبنحو مجاني يسمح بتطوير خبرات الأطباء لديكم وينعكس ذلك على المصابين. ويمكن أن ينفتح الاتفاق على مجال أوسع من ذلك بعلاج مرضاكم من خلال عمليات زراعة نخاع عظم لأعداد أكبر في مستشفيات كالياري بسردينيا. وكذلك استقبال أطباء من نينوى في شتى الاختصاصات ورفدهم بالمعلومات والخبرات التي يحتاجونها. ويمكن أيضاً أن نقدم لكم الاستشارات للكوادر الهندسية المشرفة ويمكننا التعاون في مجال البحوث الطبية.

أتطلع للقائكم مرة أخرى

مع أجمل الأمنيات

كالانيلو

طبع ثائر نسخاً من الرسالة لتوزيعها على أعضاء إدارة الجمعية في الاجتماع المقبل وسلم عدداً منها إلى مسؤولين محليين وإداريين

بجولاتـه المكوكية بينهم ليلفـت عنايتهم إلى نتائج تواصله مع الخارج وتذكيرهم بتقديم شيء ملموس إزاء بادرات حسن النية التي تأتي من هناك.

تذكر كيف اسـتقبله كالانيلو في كالياري قبل أربع سـنوات وفتح أمامه نطاقاً واسعاً من الأمل بإسهامه في إقناع وزارة الصحة المحلية في إقليم سردينيا بمنح علاجية سنوية للجمعية. والساعات الجميلة التي قضاها برفقته ومعهما البروفيسـورة فرانشيسـكا والدكتور انجلوجي في رحلـة بحريـة على متـن القارب(مـابي) الأثري الـذي أخذهم من مرفأ فيلاسـيميوس إلى جزيرة إيزولا دي كافـولي مانحاً إياهم فرصة لمشـاهدة قمة جبل (كابـو كاربونـارا) المهيب وفنـارات أثرية عمرها مئات السـنين. وفي مسـاء ذلك اليوم انضمت اليهم لتناول السـمك المشـوي في مطعم (سـينفيرو) على شـاطئ بونتا موليتيـس الدكتورة كارمن مسؤولة مركز زراعة نخاع العظم في مستشفى ميكروجتيميكو التي تولت مسـؤولية الارتباط والتنسـيق بين الجمعية وباقي الجهات الصحية في سردينيا.

مساءً رد ثائر على الرسالة:

عزيزي البروفيسور كالانيلو المحترم

أغدقتني بكرم واسـع يدل على نبلكم وعظيم إنسـانيتكم التي هي محط تقدير واحترام كبيرين لدينا.

قمنـا بالفعـل بوضـع مقترحات بشـأن برنامـج شـامل للوقاية في ضوء ماحصلت عليه من معلومات من حضرتك خلال زيارتي لكم. وسـنتواصل معكم لإكمال فقراته وإبداء رأيكم السديد فيه قبل رفعه إلى البرلمـان والعمل على التصديق عليـه وتشريعه قانوناً يُلزم الجهات

الحكومية للعمل به.

أصبح خيارنا الأمثل تبني إنشـــاء مشـروع لإمراض الدم وزراعة نخـاع العظم في مدينة الموصـل ليتســـنى لمرضانا الحصول على فرص علاج مجانية دون اللجوء للســـفر والإقامة الطويلة وتجنب التكاليف العاليـة كما تعرفون. هذا المشروع يتم إنشـاؤه الآن ويتضمن مختبرات دم وثلاثة مراكز أحدها للثلاسيميا والآخر للوكيميا والثالث لزراعة نخاع العظم والخلايا الجذعية.

الكثير من العيون تتطلع إلى مستشـفياتكم لإجراء عمليات زراعة النخاع. ومتفائل لسعيكم من أجل رفع أعداد المنح العلاجية السنوية لحين تتوفر لدينا الامكانات الخاصة للقيام بذلك في مستشفياتنا.

سـيكون مـن الرائـع التوصـل إلى إبرام اتفـاق تعاون رسـمي بين حكومتينا

شكراً لما تبذله من أجل مرضانا

ثائر

وجاء الرد سريعاً من كالانيلو:

عزيزي ثائر

هـذا خبر عظيم. وسـأضع ضمـن أولوياتي مسـاعدتكم في تقديم الاستشـارات للكـوادر الهندسـية المشرفة على بناء مشروع مستشـفى أمراض الدم وزراعة نخاع العظم في الموصل.

كل الأمنيات لكم بالنجاح

كالانيلو

(زاهدة)

فقدت أمي المسكينة توازنها وسقطت متدحرجة على السلم في بيتها ليُكسَر حوضها وتعيش المتبقي من حياتها دون استخدام رجليها بسبب سنوات عمرها التي إقتربت من الثمانين والأمراض العديدة التي عانت منها وجعلتها غير قادرة على تحمل عملية جراحية بحسب الأطباء الذين نصحوا زوجة أبي وشقيقاتي بإبقائها مستلقيةً في سريرها لحين يأتي أجلها. لم يختلف شيءٌ بالنسبة لي، فمثلما كنتُ أُماً سيئة فأنا ابنة سيئةٌ كذلك. إذ لم أزُر أمي التي حملتني في بطنها تسعة أشهر وتكبدت عناء تربيتي سوى مرة واحدة فقط وكانت في المستشفى. شاهدتها بعينيّ تصرخ من الألم ولم أفعل شيئاً لنجدتها، لم أكلمها. جلست فقط مثل غريبة بلا قلب لدقائق وخرجتُ أركض مسرعةً إلى السيارة التي ركنها سليم وبطلب مني على بعد شارعين من المستشفى ومعه إيثار مدثرٌ في مقعدها الخلفي خوفاً من عدوى تصيبه بمرض ما فيما لو كُنت أخذته معي. توجب عليّ الحذر والدعاء إلى الله بإبقائه معافى، ولاسيما أننا كنا في الأسبوع الأخير قبل إكماله شهره الثامن الذي وعدني سليم بأننا سنجري فيه فحص التطابق النسيجي بينه وبين شقيقه. أعلم بأن أي عذر لن يكون كافياً لتبرير فعلتي وغيابي عن خدمة أمي في أيامها العصيبة. لكنني بالفعل كنت مكبلة ولا أقوى على أي إلتزام خارج حدود بيتي. إيثار لم يكن الحمل الوحيد على عاتقي، فجابر كان بحاجة ماسة إلى وجودي قريبة منه بعد تخلص جسمه من أعراض حزنهِ على مقتل صديقه وليد. كما تعين عليّ مراقبة حماتي على مدار الساعة لكي لا تُعرِّض نفسها هي

الأخـرى إلى مكروه كما وقع لأمي. شـقيقاتي اللواتي كن أبرَّ مني بأمنا قسَّمن واجبات رعايتها بينهن. وكانت الواحدة منهن تمكث معها من الصباح الباكر إلى غاية المسـاء ثم تعـود إلى بيتها لتنوب عنها الأخرى في اليـوم التالي تـاركات مهمة الاعتناء الليلية بهـا لزوجة أبي فردوس المتعافيـة بدنيـاً وأظهرت محبتهـا لأمي. لكننا لا نعرف مـا في القلوب فهـي ضرتها على أيـة حال وإن تصرفت كمـلاك بجناحين فلن تكون أحن من الابنة على أمها مطلقاً.

في اليوم التالي تلقى سـليم إتصالا مـن الدكتور زهير طلب ذهابنا سـوية لزيارته في المستشفى لأمر هام لا يحتمل التأخير. الخيار الوحيد الـذي وجدنـاه أمامنا هـو إخفاء علب الثقـاب والسـكاكين وإقفالنا للبـاب الخارجـي لمنع حماتي مـن الخروج وأخذنـا إيثارًا وجابـرًا معنا وأبقيناهُمـا داخل السـيارة التـي ركناها في موقف السـيارات الخاص بالمستشفى وطلبنا من الموظف هناك مراقبتهما لحين عودتنا.

اسـتقبلنا الطبيب في غرفته بإبتسـامة عريضـة وطلب منا الجلوس والتخلي عن القلق البادي على وجهينا لأن لديه خبراً سعيداً يُريد نقله إلينا. وأشار إلى عُلبِ دواء بيضاء مستطيلة مصفوفة أمامه على مكتبه، عليها حروف إنكليزية بلونين بني وأخضر. سألنا:

"هل تعرفان ما هذا؟"

إبتسم سليم هازاً رأسه بينما احتجت أنا إلى شرح. فقال وهو يفتح واحدة منها:

"إنه دواء الإكسجيد، وهو ما كنا ننتظره منذ سنوات لنُريح أجساد أبنائنا المرضى من إبر الديسـفيرال وعذاب أخذ الدواء ساعات طوال

وبـلا فائـدة حقيقيـة مرجـوة ، لأن في أوروبـا الآن يعطـون المريـض المتوافق جسـده مع الديسفيرال دواءً آخر يزيد من فعالية طرد الحديد لكن لغلاء ثمنه لم توفره المؤسسات الصحية في بلادنا".

كنت مقسـومة الذهن إلى نصفين، نصف عند الولدين في السـيارة والنصف الآخر لا يستوعب كيف سيرتاح جابر من إبرة الديسفيرال وهي علاجه الوحيد. فقال له سـليم بأنه سبق وأن سمع منذ فترة عن دواء جديد للثلاسيميا لكن دون تفاصيل.

أفـرغ الطبيب علبةً عـلى المكتب وكانت فيهـا أربعة أشرطة في كل واحِدٍ سبعُ حباتٍ بيض. قال بأن جابرًا سيأخذ حبة واحدة يومياً عن طريـق الفم، هكذا بكل سـهولة ودون حاجة إلى إبـرة أو مضخة بعد الآن.

وضعـت يدي على فمي غير مصدقة بأنها سـاعة خلاص إبني من ألم الإبـرة والتهاباتهـا وإنني لن أضطر بعد اليـوم إلى وضعها في جلده وأظـل إلى الصبـاح يأكلنـي قلقي عليـه. أردت إطـلاق ضحكة فرح مختبئة منذ أمد بعيد لكن الدموع سـبقتها، فالأمهات مثلي لا يستطعن التعبير عن السعادة إلا بالبكاء.

ملأ الطبيب زهير كأسـين بالماء إلى حدود المنتصف وطلب تركيزنا على ما سيقوله:

"حبـة واحدة من فئـة 250 مليغرام. هو كل مـا يحتاجه جابر يومياً بالاسـتناد إلى وزنـه وعمره. نُهيِّئ كأسـين نصف مملوءتـين بالماء مثل هاتـين أو عصير برتقال أو تفـاح ونضع حبة الدواء في إحداهما وندير ما فيه بملعقة بلاسـتيكية حتى يصبح محلولاً يشربه مباشرةً على معدة

فارغـة، أي قبـل الأكل بثلاثـين دقيقـة في الأقـل. ثـم نُضيف نصف الـكأس الآخر في الفارغة حتى يختلط بـه المتبقي في القعر ويشربه كله أيضاً على الفور".

قام بالعملية كلها أمامنا خطوة بخطوة ووثقها سليم في سجله. ثم نبهنا إلى أن للدواء أعراضاً جانبيةً بسـيطة ومؤقتة مثل التقيؤ والغثيان والإسـهال أو الإمسـاك وحدوث وجع في البطـن والمفاصل وصداع ودوار وكذلـك طفـح جلـدي مـع حكّـة في باطـن القـدم او الكف. وتغيـيرات طفيفة في السـمع والبـصر وأداء وظيفتي الكليـة والكبد. وسـبب ذلك أن الدواء يعمل لأربع وعشرين ساعة كاملة في الجسم. وأن علينـا الألتـزام بموعـد يومي ثابت يتنـاول فيه جابـر الحبة دون انقطاعٍ وأن نجري له فحوصات شاملة لمراقبة تأثير الدواء فيه.

"لا شـك بـأن أبي قد صفح عنـي أخيراً في قبره وأمـي قد دعت لي في سـاعة اسـتجابة خلال محنتها"هـذا ما خطر على بـالي حين حصلنا عـلى علب الدواء الأربـع الأُوَل مـن مركز الثلاسـيميا. ضممتها إلى صدري وكلي ثقةٌ بأنها رسالة بُشرى من الله تقول لي أن فحص التطابق سيجري مثلما أدعو ليل نهار.

حكيـت بلهفة لجابر ونحـن في الطريق عن الـدواء الجديد وزوال معاناتـه من الإبر. غير أنه إكتفى بمنحي إبتسـامة صغيرة وكأن الأمر لا يعنيه ثم قال لي وهو يسند رأسه بالمقعد:

"دواءٌ محل دواء".

مساءً وضعت مضخة الديسفيرال في كيسين بلاستيكيين متداخلين مع عدة علب من مسـحوق الدواء وزجاجـات المياه المقطرة وأنابيبَ

وإبـر غير مسـتخدمة ووضعتها في دولاب ثيابي ريثما يعثر سـليم على مريـضٍ يحتـاج إليهـا فيأخذها صدقةً جاريـةً. أذبت حبة الإكسـجيد في نصـف كأس مـاء وأخذته مع كأس أخرى نصـف مملوءة إلى جابر المسـتلقي على سريره. ومـا أن لمحني أدخل عليه حتى سـحب طرف قميصه إلى الأعلى كاشـفاً عن بطنه ووضع مثلما اعتاد يديهِ تحت رأسه إسـتعدادا لتلقي الإبرة. منعتُ نفسي مـن البكاء لكن صوتي فضحني حين قلت له والكأسـان ترتجان في يديّ بأنه حرٌ هذه الليلة ويسـتطيع النوم بالوضعية التي يريدها على بطنه، ظهره، جانبيه، كيفما يشاء.

خـلال مرتـين تفقدته فيهما بعـد منتصف الليل وجدتـهُ على ظهره مسـتغرقاً في النـوم. يـداهُ خلف رأسـه وملامـح وجهـه الحبيب غير منقبضة وتوحي بعدم شكواه من شيء.

"تلك الملعونة ليست في جلده" قلتُ في سري خلال زيارتي الثانية. قبلـتُ جبينه والدعاء يتردد في رأسي أن يُدخل الله العادل سروره على بيتنا بعد أيام وتكتمل الفرحة بنجاح فحص التطابق.

فجر ذلك اليوم سـمعنا أنا وسـليم أنينه. بالـكاد حملتني رجلاي، والطريـق إلى غرفتـه المجاورة طـال كأنـه لا ينتهي. وجدنـاه متكوراً على الأرض ورأسـه يغلي من الحرارة. جسـمه يرتخي قليلاً فتبدو نوبة الوجع قد زالت عنه. ثم سرعان ما كان ألم بطنه يجذب أطرافه ورأسه فيتقلب مثل الكرة والصرخة تخرج من بين أسنانه:

"بطني".

راجـع سـليم ما دوَّنَه في سـجله فوجد بأن ما يحـدث لجابر مطابقٌ للمضاعفـات التـي أكد الطبيـب بأنها بسـيطة ومؤقتة وسـتظهر بعد

تناوله دواء الإكسجيد. وعلى هذا المنوال أخذ يهدِّئ من روعي ببرودة أعصاب طوال أربعة أيام كاملة كلما هرولت إليه وأيقظته من نومه أو اعترضته خارجاً من الحمام أو عائداً من الخارج لأخبره عن أثر جديد للدواء قد ظهر على جابر نصف السكران.

"الإسهال مذكور هنا. ويجب أن لاتقلقي إذا أصبح لونُ برازه قاتماً وبوله بنياً يميل إلى الأحمر. هذا طبيعي، الطبيب يعرف ذلك".

"زاهـدة، الطفـح الجلدي سـببه حك جابـر لباطن كفيـه وقدميه. الطبيب زهير أخبرنا بهذا".

"والله كنـت أعرف بأنك سـتقولين هذا. أنظري بنفسـك. الغثيان مـن مضاعفـات الدواء البسـيطة. اقرئي أيضـاً رقم أربعـة، نعم هنا. الإمسـاك من المضاعفات أيضاً وسيستمر وجع بطنه. وكل هذا يعني بأن الدواء يعمل بشكل جيد".

في اليـوم الرابـع لم يعثـر سـليم في سـجله على شيء ذكـره الطبيب عن ضيق تنفس وإزرقاق وجه جابر. ولا عن السـعال وسـيلان أنفه وتقشر جلد شـفتيه. ووضـع يده على جبهته حين شـاهد معي ظهيرة اليوم السـادس الإصفرار في عيني أبننا المكابد وعطشـه الشـديد للماء كأنه في الصحراء. وكنا سـنمد حبل الصبر أكثر لـولا تقيئه دماً أمامنا في الصالـة ونحن نعيده من الحـمام. فصرخت حماتي بوجهينا معترضةً طريقنا:

" أنتـما مجنونـان. مكانكما مستشـفى المجانـين وليس هنـا في بيتي. الولد يموت وأنتما تكتفيان بمرافقته مثل خروفين".

الصحـوة المفاجئة لحـماتي أيقظتنا نحن أيضاً مـن غفوتنا. فوضعنا

جابرًا في السيارة وأخذه سليم إلى المستشفى ليمكث معه هناك خمسة أيام متتالية ويكتشف بأنه كان مصاباً بنزيف في المعدة والتهابٍ في المثانة ومقبلٌ على فشل كلوي حاد. وقلبه الصغير كاد أن يتوقف بسبب عدم تقبل جسده للدواء الجديد. فقرر الطبيب زهير بعد سلسلة طويلة من الفحوصات منحه دواء الديسفيرال مجدداً. ورفع ساعات الإعطاء اليومية من عشر ساعات إلى عشرين مؤقتاً من أجل تعويض الأيام الفائتة والتخلص من أكبر قدر ممكن من الحديد المترسب في جوفه.

في آخر يوم له في المستشفى غُرست ثلاث إبرٍ في جسد جابر الصبور. واحِدة للمغذي في ظاهر يده وأخرى للدم في ذراعه وإبرة الديسفيرال التي جاء سليم وأخذها من المنزل مع مضختها، في بطنه. آلامٌ لابد منها للتخفيف من آلام أكبر. هكذا تقبلت الأمر وعيني على إيثار الذي جاوز سالماً بفضل الله العمر الذي ظهر فيه المرض على شقيقه الأكبر. وإحساس الأم الذي لا يخطئ مطلقاً أعلمني بفرحة في طريقها إلينا وعليَّ إدخار دموعي لاستقبالها.

وبعد يومين من عودته للبيت أقمنا العرس. هكذا بالضبط، كان عرساً بالنسبة لي ولم يكن مجرد ذهاب إلى المختبر لأخذ عينة من دم إيثار من أجل إجراء فحص التطابق النسيجي بعد ثمانية أشهر وخمسة أيام من الانتظار. حماتي في مقدمة السيارة مع سليم. وخلفهما إيثار في حجري بثيابه الجديدة وجابر إلى جانبي متعافياً من أزمة الدواء يتابع يده الخارجة من النافذة. وزعت الحلوى على العاملين في المختبر ودعوتُ للممرضة الشابة التي سحبت عينة الدم من إيثار دون أن تجعله يبكي بابن حلال يُسعدها وذرية معافاة تفرح بها. وأقسمت على الله وبيدي المصحف أن لا يرد الحافظة المبردة التي وضِعت العينةُ

فيها من بغداد إلا ومعها خبر التطابق الكامل. ولحظة أن حرك سليم السيارة من عند باب بيتنا ومعه العينة التي قرر إيصالها بنفسه إلى المختبر في بغداد. سكبت دلو ماءٍ خلفه في الشارع وأطلقت مستبقةً الفرحة زغردة طويلة خرج على صوتها الجيران.

****

المصائب تتجمع خلف باب القدر، وما أن يُفتح بأمر الله حتى تهجم دفعة واحدة. مقولة حماتي في زمن رشدها، تذكرتها وأنا ما زلت عند الباب وصوت زغردتي يرن في أذني. إذ توقفت أمامي سيارة زرقاء اللون طل منها الرأس المشؤوم لزوج شقيقتي الكبرى ميعاد وأبلغني دون أية مقدمات خبر موت أمي.

دفنوها قبل وصولنا إلى القرية. وإمتلأت خيمة العزاء المنصوبة خارج منزل أهلي بالرجال، والداخل أكتظ بسواد النسوة ونوبات البكاء الجماعية. حماتي التي خاصمت أمي طوال عمرها رافقتني لعزائها، وربما هي لم تعِ أبداً بأنها فعلت ذلك. وجابر حبس نفسه مع مضخة الديسفيرال في الغرفة العلوية التي كانت يوماً ما غرفتي. أما أنا فقد كان هاتفي بين يدي منتظرة إتصالاً من سليم ومختبئة بين المعزيات من ذكرياتي مع أمي التي خرجت لي من كل زاوية ومن نظرات شقيقاتي المعاتبة وإبتسامة زوجة أبي الصفراء التي لم يكن بوسع أحد غيري رؤيتها تعلن بها إنتصارها وأنها أصبحت الآن سيدة المنزل الأولى وبلا منازع.

الناس أطلقوا على أمي لقب الشيخة. ليس لأنها كانت زوجة شيخ القرية وسيدها، بل لأنهم إعتقدوا بأن سلطتها في منزلنا مطلقة

وقراراتها لايمكن لأحد كسرها حتى لو كان أبي الغضوب. خدعهم مظهرها وهي توجه الأوامر في البيدر مواسم الحصاد وإشرافها على خزن المحاصيل وذبح المواشي وتوزيعها على فقراء القرية والقرى المجاورة. وظهورها الدائم في مناسبات الفرح والحزن. لكن أياً منهم لم يعرف بأنها دفعت كل يوم ثمن عدم إنجابها ذكوراً كأنها مسؤولة عن ذلك وليس أمراً مقدراً من الله. وأبي الذي كان يصرخ في وجهها باستمرار، بمناسبة أو من غيرها. يعود أحياناً إلى سنوات ما قبل زواجها ويلومها لأنها كانت في يوم ما محط أنظار شقيقه الوحيد. صرخ عليها ذات مرة ووجهه يشتعل غضباً:

"هل كنت ستنجبين له بناتٍ أيضاً؟".

كنا صغيرات أنا وشقيقاتي، وقد جمعنا الخوف من صوته العالي خلف أمي. وأذكر أنه قال لها عبارة أبكتها طوال ذلك اليوم:

"حتى البهائم تلد من الجنسين. لكن أنتِ أقل من بهيمة".

هددها على الدوام بالزواج من إمرأة ستلد ذكورا يحملون اسمه وتجري دماؤه الأصيلة في عروقهم. كان يفعل ذلك بحجة المزاح، ونحن نأكل، أو أثناء أفراغ غضبه عليها. لكن لا أعرف لم لم يفعل ذلك إلا بعد فترة طويلة. إذ طلب منا ذات مرة أن نساعد أمنا في إفراغ غرفة النوم من الأثاث وثيابها. وبعد مضي أيام إحتلت العروس التي هي أكبر منا نحن بناته بسنوات قليلة، غرفتها مع دواليب جديدة وسرير واسع بنقوش في أطرافه. ورغبته في الحصول على ولد بأي ثمن دفعتهُ لإهانة أمي أمام ضرتها. فانتقد ذكاءها، شكلها، طعامها، صوتها، حجم رجليها وطريقة مشيتها ورائحتها. والأفعى تتلوى

ضاحكة حتى مرت الأيام والأشهر ولم ينتفخ بطنها بغير الهواء وليتضح بعد تطواف بين الأطباء أنها عقيم ولن تنجب لا ذكوراً ولا حتى إناثا. وأخذ أبي بعدها يوزع غضبه على أمي وضرتها وعلينا لأننا نذكره دائما بحلمه الذي لم يتحقق أبدًا.

استمرت النسوة بالتوافد على بيت أهلي معزياتٍ كما تجري عليه العادة في القرى، حتى بعد إنقضاء أيام العزاء الثلاثة المتعارف عليها. في اليوم السادس أخبروني بأن سليمًا ينتظرني عند الباب الخارجي. لمحته من بعيد ينظر إلى الأرض ويده على جبهته. مجرد وقوفه أمام الباب بذلك الشكل وعدم إتصاله على هاتفي كان يعني أنه يحمل خبراً سيئاً. دهرٌ من المسافة فصلت بيني وبينه وأنا أهرول في الباحة المتربة وأتوسل بالله أن لايحرق لي قلبي. لم أكن أريد أن أسمع منه مقدمات ولا عزاءً بموت أمي. أردته فقط أن يخبرني بالنتيجة. وعندما وقفت أمامه حافية القدمين مرتعشة ويداي تضغطان على خدي. فاضت عيناه بالدموع:

"أردت أن أقولها لك وجها لوجه لذلك لم أتصل"

أشرتُ له بيدي بأن يكمل وعيني على فمه.

"نتيجة الفحص إيجابية والتطابق مائة في المائة".

ينابيع دموع إنفجرت. بكيتُ وبكيت، فرحاً على قرب نجاة ابني، وحزناً اشتعلت ناره في صدري للتو على فقد أمي التي ماتت دون أن أكلمها. دار بي المكان والأشياء من حولي بدأت بالإختفاء، سليم ، الباب الحديدي الكبير المشرع، خيمة العزاء القائمة، بيت أهلي، وفقدت وعيي.

(جابر)

باستثناء الدم ودواء الديسفيرال اللذين يشفِطهما جسدي مثل إسفنجه حتى آخر قطرة، لا تبلغ شؤوني الحياتية الأخرى نهاياتها مطلقاً. فأنا لا أكمل تناول طعامٍ ولا مشاهدة فلم أو الاستماع إلى أغنية. أنام ساعةً وأفيق أخرى وأتوقف عن التبول قبل أن تفرغ مثانتي. يسحرني القمر المقضوم ولا أطيق رؤيته بدراً. وأفقد مع انقضاء اليوم الأول إهتمامي بمتابعة ما يعرضه الدم الجديد في رأسي كما لم أعد أبلغ آخر رقم لشيء أعده، كأن النقصان أصبح كمالاً لي، أنا الجثة الماشية على قدمين والتي إقترب سنها من ثلاثٍ عشرين سنة. هذا ليس أمراً مكتسباً ظهر عليّ فجأة بل هو جزء مني، وُلد معي تماماً مثل المرض. عشت كل تلك السنين مصفوعاً باللاجدوى من الألم والاحتجاج والأحلام والانتظار. ومكبلاً بِحُكم غير قابلٍ للاستئناف والنقض بأن ما كُتب على الجبين لابُدَّ أن تراهُ العين. يحاصرونني به في البيت ويطاردونني به في الشارع ويتلونه علي في المستشفى والجامع وغرف الإنتظار عند الأطباء. يُضفون عليه قدسية صبري على الابتلاء وتأخذ بعضهم الحماسة الدينية ويذهبون بي إلى أعماق الماضي السحيقة ليطابقوا نسختي من المرض مع نسخة النبي أيوب ويُظِهرون لي الفرق الشاسع بيننا. هو نبيٌّ وحفيد نبي، يَخرج الدودُ من جراحه النازفة التي لا علاج لها فيُعيدُها إليها رافعاً مستوى الامتحان. يتركه أقرب الناس إليه فيدعو الله بالمزيد من السقم لِيُظهِر هو مزيداً من الصبر. أما أنا فعبدٌ حقير عاصٍ ابنُ عاصٍ، أنعمُ بوجودِ أهلٍ يرعونني وأطباء يُعالجونني بالأدوية وأتقياء يشترون الجنة

بدمائهم التي يمنحونها لي.

قبل سـنواتٍ من الآن، في عهد سلطة المتصوفة القصير على جامع حينـا. إسـتوقفنا أحدهم، وضـع ذراعـهُ كحاجِز أمامنا أنـا وأبي على رصيـف الجامـع. كان طويلاً وشـعره لحـدود كتفيه وعـلى خديه آثار نُـدوب أسـياخ اختبـار الإيمان. قال بأنه سـمع من أخـوة له في حلقة الذِكـر عـن حالتي المرضية وعن نِضالنا السرابي مـن أجل العثورِ على متـبرع بالنخـاع. أجابـه أبي بإيـماءة قابلهـا الطويـل بإبتسـامة أوحت بتعاطفه ثم وجَّه كلامه لي:

"كل ما كان وسيكونُ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ".

وأشـار بيديه ورأسـه نحو السـماء، فنظرنا أنا وأبي إلى حيثُ أشار. وشـعرتُ بالخوف حـين أنحنى ليُقلِـص فارق الطول الشاسـع بيننا. إذ كُنـت مصابـاً في تلك الفترة بِذعر الأسـياخ ومستسـلماً لقناعة أنهم سيضربونني بواحدة منها ما أن يجدوا الفرصة المناسبة للقيام بذلك.

"سـيجري زورق عُمرك في بحـر الحياةِ ولن يحيدَ عـن طريقه مهما حاول مجذافاك".

أمسـكني أبي مـن ذراعـي وجـرني إليه، بينـما جلـس الصوفي على الرصيـف ورسـم بطباشـير أبيض أخرجه مـن جيبه دائـرة أمامه على الأرض. ووضع نقطة في الوسط تماماً. قال لي كاشفاً بإبتسامة عريضة عن نقص حاد في أسنان فكه السفلي:

"هذا أنت في زورقك وهذه الدائرةُ حولك، بَحرُ الحياة".

ثم ناول أبي قطعة الطباشير وطلب منه أن يختار لي مصيراً.

لم يفهم ما يتوجب عليه فعله. فأخبره الصوفي بأن يرسم خطاً من النقطة التي هي أنا ويمدها بأي اتجاهٍ يشاء. جثا أبي ورسم بتردد خطًّا من المنتصف إلى اليسار داخل الدائرة.

أطبق الصوفي كفاً بكف كمن رَبِح جائزة:

"هذا ما كتبه الله لـ ....".

تذكر بأنه لا يعرف اسمي. ولست واثِقاً من أنه شعر بالحرج حينها وهو يسألني عنه. فكيف له معرفة تفاصيل عن مرضي وأن لي زورقاً ويحدد له موقعاً بحرياً، ومع ذلك لا يعرف اسمي. وضع أبي الطباشير على الأرض خارج الدائرة وأجاب كأنه يدلي بسر:

"اسمه جابر".

"هذا ما كتبهُ الله لجابر في لوحِه المحفوظ. وكل ما سيفعله في حياته هو السير على الخط".

أخذ قطعة الطباشير ورسم خطًّا آخر من النقطة ومدهُ بالاتجاه المعاكس للذي رسمه أبي.

"أما إذا أراد الصبيُ الرجوع عن الطريق الأول إلى الثاني ليُغير قدَره. فليعلم بأنه ما سلك إلا طريقاً كان الله عزّ وجل قد إختاره له في علمه المسبق".

كُنت صغيراً جداً على أن أسأله وقتها عن سبب وجود المجذافين مادامت وجهتي مقدَّرة والإرادة الإلهية هي التي تُسيِّر مركبي. وعن دوري في هذا العالم ما دام كُل شيء مكتوباً في اللوح المحفوظ وحِبالٌ غير مرئيةٍ تشُدني من روحي إلى مصيري المحتوم. ولكن هل من

جدوى لأسئلة حمقاء يطرحها مريض بالثلاسيميا يعتاش مثل خفاشٍ عـلى دِمـاء الآخرين. مـاذا كان سـيتغير لو أنني صرخـت بوجه ذلك الصـوفي الطويلِ ومئاتٍ مثله مر بهم زورقي خلال سـنوات إبحاري وقلتُ لهم:

"فتِشـوا إذن عن أعمال أخرى تقومون بها بدلاً من ترديد الكلمات مثـل ببغاوات والدخـول في غيبوبة طقوس العبـادة التي لن تغير من المسارات المعدة سلفاً".

هل كان الصوفي سيجرُ سيخاً من مكان ما خلفه ويَغمِدهُ في قلبي، ثم ترتسـم على وجههِ إبتسـامة رضا. أو كان الآخرون سيصعدون بي إلى أعلى بناية ويلقونني من فوق سطحها. أم كانوا سيقطعون لي رأسي ويضعونه على صدري كما فعلوا بوليد، لأننا مشينا في الأرضِ فساداً؟. هل كان سـيُغيرُ ذلك شيئا من سـيرتي المكتوبة في اللوح المحفوظ؟ أم أن القتل خارج السـياقات القدرية هي تعديلات يجرونها على المصائر بناءً على تفويض إلهي خاص بهم ولا يُمنح لغيرهم.

حاولـتُ أنـا أيضـاَ قبـل سـنتين الحصول عـلى تفويض إسـتثنائي لتعديل مصيري. بدأ ذلك صباح يوم أحدٍ دافئ من نيسان. كنت أول المـرضى الواصلين إلى مركز الثلاسـيميا بعد أخذي كيسـاً من مخزوني في مصرف الدم وسـلمته للممرضة المختصة في المركز لتسجيل بياناته في سـجلي، وهي مهام توليتها عن أبي منذ سـنوات بسبب رغبته في أن أعتمـد على نفسي لإنشـغاله بمتابعة أعمال الحراثة والزراعة والماشـية وبيع المحاصيل حتى غاب في الحقول ولم نعد نراه إلا نادِراً.

انتقلت فور إحسـاسي ببرودة المطهر عـلى مرفقي الأيسر إلى عالمي الـسري لأطلق هنـاك صيحة الألم المعتادة من اخـتراق الإبرة الطويلة

وتسـلل أول قطرة دم دخيلة فتواجهها أوردتي بالرفض، تدور معارك التحرير في أنحاء جسدي ساعات طوال إلى أن تستبيح الدماء الغازيَة كل جزء مني ويُعلِن المُحتل الجديد عن نفسه.

لكـن ما حدث أن خدراً لذيذُاً هبط إلى سـاعدي وتوزع في أصابع يـدي ثـم إرتفـع إلى كتفـي ورقبتـي ورأسي فصـدري ومعـه شـعور نـادِرٌ بالطمأنينـة ظننته نتيجـة توقف ضخ الدماء لمشـكلة في الأنبوب وملحقاتـه. لكـن الممرض البشـوش الذي سـألتُه نفـى بحركتين من رأسه ومضى يواصل أغنية كان يرددها.

لم أشـغل نفـسي بالعد خلال سـاعات الإنتظـار الاسـتثنائية تلك الأجمـل في حيـاتي. فمع كل قطرة كانـت هناك فجوةُ خـرابٍ تُردمُ في داخـلي وسِـحرٌ ينفلق ألوانـاً ويبعـث سروراً في نفسي. ومـع إنقضاء السـاعة الأولى داعب نسـيم باردٌ وجهي وعِطرُ الياسمين طاف شذاهُ بـين المقاعـد والأسرِة وفـرش ربيعـاً لخطـوات ظهورهـا أمـام عينيّ المأخوذتـين. دفعني إقترابها إلى الإعتدال في جلسـتي إحتراماً وخجلي منهـا جـرني يمينا ويسـاراً. لا مكان أفِر إليـه وأدفن وجهي فيـهِ هرباً منها. إنها هناك في جوفي يكتمل بهاؤها قطرةً فقطرة.

عينانِ بلون اللوزِ واسـعتان تنقـلان صوراً عنها من المرايا وهاتفها الجـوال وكومبيوترهـا وبطاقاتهـا الشـخصية وألبـوم صـور طفولتها وجُـدران غُرفتها وصالـةِ منزلها. تتوضح بمـرور الدقائقِ صورةً بعد أخـرى، بـشرة ناعمة تعكس بياض قلبها، ذِقنٌ دقيـقٌ، جبهة مرتفعة، فمٌ رمانيٌ صغير وأنف حُلمي مدبب. شعرٌ أسود يطول ويقصر خلال سنواتِها الإثنتينِ والعشرين حتى يستقِر أسفل الكتفين. تظهر حروف اسمها تباعاً لام وياء وألف ونون، تتجاور في قلادة ذهبية حول رقبتها الرخامية لتصبح ليان. أشـاهِدُ الاسم منقوشاً على وسادتها ومناديلها

وواجِهـة متجرٍ لبيع الزهور وكتُب في مكتبتها وحفنة رسـائل معطرة مخبـأة في علبة حلويات تحـت الأغطية والوسـائد الفائضة في دولاب غرفتها الأوسط. أتفحص دفترَ مذكراتها الوردي ذا الغلافين المتماثلين بصـورة لصفـين ممتديـن من الأشـجار نفـض عنها الخريـف أوراقها وفرشـها ممراً من الألوان أسـفلها. يدخل ويخرج مراراً من مجرة يمين سريرها الخشبي، فوقه في السـقف صورة كبيرة للمجموعة الشمسية تتدلى منها ثريا على شكل هلال.

عند وصول كيس الدم إلى مُنتصفه أصبح بوسعي إبطاء مجريات حياتهـا ومشـاهداتها بتأنٍ يسـتغرق فـترة طويلة جـدا، لكنني فكرت مُبكِـراً بأنها سـتمكث لثلاثة أسـابيع، وربـما يوماً أو إثنـين فوق ذلك كأقصى حد. لذا تركتها تنسـاب إلى داخلي بالكامل أولاً ليمكنني بعد ذلك إنتقاء ما أشاء من كنزي الثمين.

مرت وجوهٌ كثيرة، أبوان وشـقيقة وخـالاتٌ وعمة واحدة وجدٌ. زميـلات وصديقات وشـبانٌ، واحدٌ منهـم يظهر متوهجـاً ثم يختفي ليظهـر بعد غياب محاطاً بهالة من ضوء. زهـورٌ ونباتاتُ ظلٍ وطغيانٌ للـون الأخضر. صوت ضحكتهـا. كعكة ميلادٍ يتغير شـكلُها في كل مرة وتزداد أعداد الشـموع فوقها. يحضر جدُها مع سـبعِ كعكات ثم يختفـي. ولا يظهر والدها مع آخر اثنتين. الكثير من الدموع والسـواد والحزن ثم معاودة للأمل وتفتح الورود.

أغلق الممرضُ البشـوش المشـبك وسـحب الإبرة ثم وضع قطعة قطـن جافة فوق الثقـب المدمى وانتبه إلى أننـي وبخلاف باقي المرات التي تابعني فيها أبتسـم هذه المرة وفي عيني نظرة شـكر. ثبت القطن بلاصق ثم أمسك رسغي وقاس نبضي. دقق في ساعته ونظر اليّ مجدداً ليتأكد مما رآه:

"تبدو مُختلفاً هذا اليوم".

هـذا ما رأيتـه أنا فيه حقيقةً تلـك اللحظة. فقد بـدا مختلفاً ولم أكن أشـعر بالعداء اتجاهه أو أيٍ من الأطباء والعاملين الآخرين في المركز. ولا اتجـاه المقاعد الجلدية المائلـة وأسرّة الأطفال وحاملات الأكياس ومراوح السـقف ورسـوم الحيوانـات على الجـدران. هدنةٌ من طرف واحدٍ دخلتها ممتلئاً بالطاقة والحيوية ووددت من كل قلبي أن تسـتمر حتى النهاية ليحدث تعديل في مصيري.

ذاكِـرة المريض بالثلاسـيميا قويـة، لأن أيامه السـعيدة قليلة. وأنا أتذكـر تفاصيل تلـك الأيام بثوانيها، لأنها جائـزتي الكبرى عن الحياة البائسـة التـي عِشـتها وسـبب كافٍ لإثبات عدالـة الله فيما لـو فُرش عُمـري كلـه من لحظة ولادتي لغايـة تلك الفترة، لأنـه لم يقبضني إليه دون مكافأة تمحو سنوات العذاب والشعور بالظلم.

قضيـتُ الأيـام الثلاثـة التاليـة أصغي إلى صوتها بما يُشـبه دَهشـة طِفـلٍ في لحظـة اكتشـاف. ضَحِكـتُ مـع ضِحكتِها. أعدت سـماعها مِـراراً، كل الضحـكات التي بقيـت في ذهنها وتلك التـي أحييتها أنا مـن مقبرة ذاكرتها. مع كل واحدةٍ منها لاح وجهٌ أحبتهُ. العديد منها، لكـن أكثرها تكراراً حتى مـن والدتها وأبيها الذي تفتقد حضوره منذ سـنتين، وجه شابٍ بعينين زرقاوين وشـعر مائل للشقرة ولحية حادة الزوايـا تخِـفُّ وتصبح كثة بمرور سـنتين من الصور مع اسـمه الدائر بحـروف مضيئة طِوال الوقت(نسـيم). فقدان التكافـؤ بيننا لصالحه بفـارق كبير جعلني أسـتبعِد مشـاعر الغيرة مؤقتا. لكن من يسـتطيع إيقاف بُركانٍ إن حان وقت انفجاره.

قبضـت أمـي عـليّ في مسـاء اليوم الخامـس وأنـا أترنـم بمعزوفة

موسـيقية في سـطح منزلنا. ما كُنـتُ أفعلـه عمليا أنني كُنـتُ أردِدها مـع ليان وهي تعتني بالزهور وتشـكل منها باقـاتٍ في متجرها الذي افتتحته منذ سنة وشهرين.

"ماذا تفعل هنا. وما هذا الصوت الذي تُصدره؟".

سألتني أمي وهي تتلفت.

" سوناتا بيانو رقم 14 المعروفة بضوء القمر. أهداها بتهوفن لحبيبته الأرستقراطية جوليتا جيجياردي من أسرة برنسفيك".

" وماذا يعني هذا؟".

أجبتها وأنا أحمل بيدي أصيصاً مفترضاً:

"لا أعرف".

ظلت تطاردني بعدها في أرجاء المنزل لاكتشـاف سـبب الإنقلاب الـذي طـرأ عليّ بعد سـنوات مـن الانعـزال والصمـت، كأنني قطعة أثاث مخزَّنة. إمتزجت إبتسامتها بالدهشة وهي تسمعني أغني لفيروز في الصبـاح متنقـلاً من نبتة إلى أخـرى من نباتاتها التـي حولت صالة بيتنا إلى غابة، أسـقيها بالماء وأمسـح عنها الغبار وأبعد الأوراق الميتة. وتابعـت بقلـق صـوتي المُرتفِع بالغنـاء متنقلاً بين غرف النـوم الأربع الفارغة في طابق المنزل الثاني. وجمدها الذُعرُ من إحتمال فقداني لعقلي حين شـاهدتني عبر نافذة المطبخ أرتج من الضحك وأنا أقلم أغصان أشجار البرتقال والليمون والعنب في الحديقة .

عقـدتْ إتفاقيـةَ مُراقبـة مـع إيثار تضمنـت وجبات طعـام كاملة كـسرت بها نظام الحمية الصارم المفروض عليه لتخفيف وزنه البقري الـذي جعله يبدو أكـبر بكثير من كونه مجرد صبي في السـابعة، مقابل

رصـده لتحـركاتي التي تغفـل عنها وقيامـه بزيارات مفاجِئـة لغُرفتي والِتقـاط ما يتسـاقط مني مـن كلمات ونقلهـا إليها فـوراً حتى وإن لم يفهم معانيها.

بإنقضـاء الأسـبوع الأول كنتُ قد اكتسـبت جُـرأة النظر في عيني ليـان مباشرة ولم أعـد أعصر أصابع يـدٍ في كف اليـد الأخرى خجلاً عندمـا تُطِلُّ عـليّ مدججة بأسـلحة أنوثتها. ولا أشـيح بوجهي عنها حينما نكون لوحدنا في حمام بيتها أو أمام المرآة الطويلة في غُرفة نومها. صالحتنـي بالمرايا ومضخة الديسـفيرال العجـوز والوقت الذي مضى عبثـاً قبـل حضورهـا. ومنحتني سـبباً لمواصلـة البقـاء والرجوع عن الخط المرسـوم لي داخل دائرة الحياة نحو جِهة أخرى معاكسة. لم يكن مِغناطيـسُ جمالها وحده الـذي يجذبني ولا كونها الفتـاة الوحيدة التي عرفت. بل الأشياء التي اختلفت بها عني وهي لا تعد ولا تحصى. فقد كانـت طموحةً وقوية مثل الفـولاذ. مُعتدة بنفسـها، أنيقة، تفعل كل شيء دون حاجة إلى يد مساعدة وخواتيم الأمور التي تتفانى من أجل الوصـول إليها تجعلها أكثر صلابة. وبخلافها فأنا ضعيفُ ومكسـورٌ لا أقـوى عـلى العيش دون عون من آخريـن ويرتبط بهم مصيري على الدوام. تعجبها الموسـيقى واللوحات العالمية وكُتب الجيب الصغيرة التـي فيهـا قصـص الحـب والأفـلام الرومانسـية بنهايـات سـعيدة. بينـما لا أذكر أنا نهاية فلم شـاهدتهُ وأجد قواسـم مشـتركة بيني وبين مصاصي الدماء في أفلامٍ الرعب التي ولسـبب غامض لا أجفل منها. هـي حاصلـة على شـهادة المعهد التقني قسـم الإنتاج النبـاتي، وتفكر بالدراسـات العليا وأنا لا أملك غير شـهادتي ميلادي والابتدائية ولا أفكر بشيء يتجاوز حدود يومي.

لكـن ثمـة إختلافـات في صالحي أيضـاً، فهي تخاف إكتـمال القمر

وتحمله مسؤولية الكوارث القليلة التي شهدتها حياتها الهانئة. وتتذكر جيداً ليلة استمعت صرخة أمها مُعلنة وفاة والدها بنوبة قلبية كيف أنها لمحت القمر من نافذة غرفتها ينظر إليها بوجه حزين. وكانت مشدودة إلى استدارته المنيرة، قبلها بسنوات بعيدة عندما أخبرتها أمها بأن حماها الذي هو جد ليان قد ذهب إلى هناك في الأعلى ولن يعود مرة أخرى. وفي إحدى ليالي إكتماله كذلك بكت حتى الصباح بسبب آخر رسالة حب وصلتها. وكانت الوحيدة غير المعطرة وتحمل التسلسل (23) في قصة حبها الكلاسيكية. دسها نسيم بين كتبها في مختبر وقاية المزروعات مستغلاً فترة الإستراحة بين درسين واختفى دون أن يظهر لها نفسه. أسست بناءً على ذلك نظرية رُعبها الخاصة من الإكتمال القمري. ووضعت لمواجهة نتائجها المأساوية إجراءات طوارئ قطعت بموجبها صلتها بالتكنولوجيا خلال ليلة البدر بغلق الهاتف وتجنب شاشتي التلفزيون والكومبيوتر. والبقاء حبيسة غرفتها تقرأ ساعاتٍ في كتبها أو التي سحبتها من مكتبة جدها.

تخاف حد الهلع من أي شيء يملك أكثر من أربعة أطراف سواءٌ طار أو مشى. وإعتادت المبيت بضع ليالٍ من كل عام في غرفة شقيقتها الصغرى وئام بسبب عنكبوت هبط من سقف غرفتها أو صرصار كشف عن حضوره خارجاً من تحت سريرها.

حاولتُ قدر الإمكان إخفاءها عن وليد وفقاً لقاعدة"ليس كل شيءٍ مباحاً بين الأصدقاء" التي تشبثتُ بها في الأيام الأولى. لكن ذلك لم ينفع أمام حرصه على حماية صديقه الوحيد. وتدخل في اليوم الثامن ليُحذرني من مغبة الدخول في أزمة عاطفية بسبب قرب إنتهاء مدة حياة دماء ليان في أوردتي، واقترح عليَّ واحِدة من أفكاره المجنونة بأن أزورها في متجرها وأفرغ لها ما في صدري دفعة واحدة.

ولم يستغرق وقتاً طويلاً حتى أقنعني بمغامرتي القلبية الأولى، لكن توجب علينا أولاً مناقشة بعض الأمور لوضع خطة محكمة. فليان تنجذب للشبان ذوي النظرة الواثقة وتفضل المُدخِنين، إذ تعجبها الآثار التي يتركها التبغ تحت أنوفهم وبين أصابع أيديهم، لأنها تذكرها بجدها. وشروطها لإكتمال الوسامة شاربان خفيفان وإبقاء أول زرين من القميص مفتوحين مع رائحة لعطر يؤكد الحضور الذكوري، خصوصاً إذا كان من صنف شانيل بور مسيو. مع صوت غليظ وقامة تزيد عن متر وسبعين سنتيمتر. وهذان يمكن تدبرهما بالضغط على الحنجرة وكعبين يزيد طولهما عن عشرة سنتيمترات. لكن الأمور التي كانت خارجة عن إرادتي هي أنفٌ مدبب وشفتان رفيعتان وعينان زرقاوان وأكتاف عريضة وصدر بارز وشهادة عليا لا تقل عن الماجستير.

"ولكن ماذا سأقول لها". اعترضتُ خلال سير المناقشات على الورطة التي يُريدُ وليد إقحامي فيها.

"هل أقف أمامها وأنق مثل ضفدع عاشق مُعرِّفاً بنفسي: مرحباً ليان الجميلة التي يُعجبها الرجال المدخنون، أنا مختلف عن كل الذين خاضوا معارك للظفر بقلبك".

"وماذا في ذلك؟". قال وليد بنبرة دبلوماسية.

واصلتُ بحرقة:

"أتريدني أن أقول لها بأنني ضحية جهل والديّ وغباء الأطباء. أعيش على دماء الآخرين وأحتاج إلى إفراغي من الحديد المتكدس في جوفي بإبرة مزروعة في بطني؟ وأنني أشرب الماء مثل سمكة والشاي قبل الطعام ولم أقفز ولا لمرة واحدة في حياتي لكي لا أسقط وأتحطم؟

وأن هـذه الإنتفاخة الذي ترينها ليسـت كـرشي وإنما طحالي المحتضر مثل كبدي وقلبي وكليتي".

رفع وليد الشـعر عن عينه ومشى ذهابا وإيابا يفكر ويداهُ في جيبي بنطاله الأبيض.

"بل أخبرها بأنك تُحبها وتريد مواصلة حياتك معها".

"هل أنت أحمق. ما الذي سيدفعها للعيش مع جثة؟".

أجاب ببرود الموتى:

"قد تكون هذه الفتاة آخر فرصة لديك".

صرخت بأعلى صوتي:

"متى ستفهم بأن فرصتي الأولى والأخيرة فاتت منذ أربع سنوات. وأنني أعيش فقط لإثبات قدرة الله على إبقاء جثة على قيد الحياة".

فتح إيثار باب غرفتي وشـاهدني نصف مخفـي تحت سريري. كان كرشـه يترجرج ولقمة كبيرة تدور في فمه وينتفـخ بها خداه بالتناوب وما أن بلعها حتى أطلق صرخة الواجب التحذيرية مع الإحداثيات:

"ماما، جابر مستلقٍ على بطنه تحت السرير".

(سليم)

أثمرت جهود جمعية الثلاسيميا وتعاون البروفيسور كالانيلو عن التوصل إلى بنود إتفاقية توأمة لثلاثة أعوام بين كاليري في مقاطعة سردينيا الإيطالية ومحافظة نينوى العراقية نصَّت على السعي لبناء علاقة بين الطرفين تقوم على مبدأ المساواة والمنفعة المتبادلة وتعزيز الإتصالات الودية والتعاون المستمر في مجال الصحة والبحوث الطبية، عبر التبادل المستمر للخبرات والمعلومات ذات الإهتمام المشترك.

نفخت الاتفاقية الريح في أشرعة الأمل لدى مرضى الثلاسيميا، ممن حصلوا على متبرعين وبقوا ضمن قائمة الإنتظار لحين اختيار المستشفى الايطالية من ستجري لهم العمليات مجاناً كبادرة حسن نية على أمل أن تُقابل من جهاتٍ حكومية بمشاريع إستثمارية. وكان اسم جابِر ضمن المرشحين في هذه القائمة وسُجل إزاءه(لديه متبرع- مطابق 100 %).

"لكن حتى هذا غير كاف"قال ثائر رئيس الجمعية لسليم المرابط في مكتبه منذ أسبوعين بانتظار رد مستشفى ميكروجتيميكو في كالياري على رسالة الجمعية المتضمنة ترشيح جابر للعملية مرفقٍ معها تقرير التطابق.

"لا بد من إجراءات أخرى تحضيرية عديدة ستستغرق أيضاً بعض الوقت، لكن على أية حال أهم ما في الأمر تحقَّقَ، ولديكم متبرعٌ أخيراً".

إقترح سليم بحماسة:

"ربما نستطيع مخاطبة مستشفياتٍ في الولايات المتحدة أو الهند وربما تركيا. قد نسافر مباشرة لإجراء العملية هناك مهما بلغت التكلفة".

"التكلفة تزيد عن مائتي ألف دولار بإستثناء نفقات السفر والإقامة والمعيشة لفترة قد تصل إلى سنة كاملة. لن تستطيع تحمل هذا العبء المالي حتى وإن تصرفت بما تملك. ثم أنت غير مجبر على فعل هذا. الإيطاليون منحونا فرصاً علاجية مجانية وستقوم الجمعية بتغطية نفقات سفركم وإقامتكم. وكل ما عليك الآن هو الإنتظارُ فقط".

ارتفع صوت ثائر قليلاً في محاولة لإزالة ملامح القلق البادية على وجه سليم:

" لحُسن الحظ أصبح بإمكاننا تقديم المساعدة لمرضى الثلاسيميا الذين ليس لديهم متبرع بالنخاع مطابق مائة بالمائة".

فتح سليم عينيه:

"كيف ذلك؟".

"نُساعِد الأبوين الحاملين للمرض على إنجاب طفل جديد غير مصاب بالثلاسيميا وتكون خلاياه الجذعية مناسبة في نفس الوقت لشقيقه المريض".

"تساعدون الأبوين؟".

ضحك ثائر:

"أعني نُقدم لهما الدعم المادي والمشورة. ليتمكنا من إجراء عملية تلقيح خارجي مع الفحص الجيني للبويضة الملقحة والكشف عن

الثلاسيميا. وكذلك عن كونها مطابقة نسيجيًّا للمريض قبل زراعتها في رحم الأم. وقد تمت عدة عمليات مشابهة في تركيا واليونان".

فرك سليم جبهتهُ ثم وضع يده على مكتب ثائر:

"صحيح أنني لم أعد ذلك المُتدين القديم ولا أذهب للجوامع بسبب المتشددين واعتداءاتهم على الأبرياء باسم الدين. لكنني لن أفعل أبداً شيئا يُغضب الله".

"هذه إجراءات طبية مثلها مثل جميع العمليات الأخرى وليس فيها ما يخالف تعاليم الدين".

"لكِنه تدخُّلٌ في إرادة الله الذي يعلم وحده ما في الأرحام".

صمت ثائر، شبك أصابع يديه، فكر قليلاً قبل أن يعود النعاس إلى صوته:

"القاعدة الفقهية الاسلامية تقول"الضرورات تبيح المحظورات" وإنقاذُ إنسان من مرض خبيث كالثلاسيميا يستحق بعض الاستثناءات التي لا تتعارض مع أي نص قرآني. بل الله يدعو إلى ذلك".

زم سليم شفتيه، فتابع ثائر:

"أنت واحِدٌ من الذين دفعونا للتفكير في مشروع كهذا. بحثك الطويل عن متبرع، ومغامرة إنجاب طفل جديد ليكون متبرعاً. وقد حالفك الحظ الذي لم يُحالف للأسف مئاتٍ غيرك. ومع ذلك ها أنا أطمئِنك. حتى بدون إيثار أملُكم قائم في شفاء جابر".

"من فضل الله أننا لن نحتاج إلى ذلك، لأننا رُزِقنا بولدٍ معافى وسيتبرع لشقيقه".

ثُم أفرج عن إبتسامة وهو ينهض:

"كـما أننا أصبحنـا عواجيز أنا وزوجتي على إجـراء عملية التلقيح التي تتحدث عنها" .

****

بُطءُ سـير الإجـراءاتِ وتوالي أشـهر الانتظـار الثقيلة دفعا سـليمًا للتفتيـش عـن مستشـفياتٍ في بُلدانٍ أخـرى غير إيطاليا، واسـتقرت بوصلـة بحثه نحو الهند بعد مشـاورات يومية مـع أولياء أمور مرضى نفد صبرهم أيضاً سمعوا عن نجاح عمليات زرع نخاع عظم أجريت هناك وبتكاليف يمكن تحملها. وضع خطة لجمع المبلغ اللازم لتغطية نفقات إجراء العملية شـملت بيع الأمـوال المنقولة من مواشٍ وتلال مخزنـة مـن القمـح والشـعير ومكائـن زراعيـة وسـيارته الشـخصية ومصوغـات زاهدة الذهبية إضافة إلى التي ورثتها عن أمها. وما أبقاه الزمن في البرطمان الكريستالي لوالدته التي كان الخرف قد سيطر تماماً على عقلها. دوَّن كل ذلك في سـجله المحمول وقرر بدءاً من الأسبوع التـالي تنفيـذ خطتـه تحـت غطاء مـن السريـة لكـي لا يُعرِّض نفسـه للخطـف على أيدي الجماعات المسـلحة ويدفع لهُـم دم قلبه دولاراتٍ فديةً لإطلاق سراحه كما حدث قبلها بنحو سنتين.

خلال أيـام قليلة حصل عـلى عناوين المستشـفيات المتخصصة في نيودلهي وأسـماء أشـهر الأطباء فيها ومحلات السـكن المناسبة القريبة منها. ونَسخ كُلَّ ما يتعلق بسيرة جابر المرضية من تقارير طبية ومختبرية وجدها في ملفه السمين في مركز الثلاسيميا. وانكب مساء الجمعة على ترتيب الأوراق التي إمتلأت بها غرفة النوم في مراجعة أخيرة شاركته

بهـا زاهدة قبل تحديد المستشـفى التي سـيفضلان إجـراء العملية فيها والشروع بمخاطبتها. في تلك الأثناء سمِعا طرقاً متواصلا على الباب الخارجـي. وبعد لحظاتٍ أحاط الإمام شـجاع ومعه ثلاثةُ أشـخاصٍ ملثمين بسـليم في صالة الضيوف. لم يَنبِسوا بحرفٍ لدقائق على الرغم من ترحيبه المبالغ به فشم رائحة كارثة مقبلة.

دار الإمام شـجاع حول نفسه، غمغم بشيء غير مفهوم قبل إنتقال صوته إلى موجة واضحة:

"لا أرى سجادة صلاة في هذا المكان الذي صعدت منه روح والِدك إلى بارئها. وعادت الصور الشركية لتحتل الجدران التي تعشـش فيها الشياطين".

لم يجد سليم ما يقوله سِوى أن يُشير لهم طالباً منهم الجلوس. لكن الإمام سـحب الكُم الأيمن لدشداشته إلى المرفق ومشى خطوات دار بهـا حـول اثنين من الملثمين ثـم وقف بمواجهته حتـى كاد أن يلتصق أنفاهما ببعض.

" لاشـك بأنك تعلم حُكم تارِك شعائِر الله. وتعرف ما تعنيه الرِدة وما يتوجب عليها ".

بلع سليم ريقه وقال:

"أعاذنا الله وإياكم منها".

"لا تُصـلي أي فـرضٍ في الجامـع وأنت جـاره. ولا تحضر صَلوات وخُطـب الجمع منذ فـترة طويلة. وهاهـي جُدران منزلـك توحي بما صِرت إليه ".

تطلع سليم حوله فلم يجد سوى صورتين بالأبيض والأسود الأولى اُلتُقِطت لوالده في عصر شبابه وهو على صهوة فرس. والثانية بذات الوضعية لكن لعمه مع فارق وجود بندقية البرنو الطويلة معلقة على كتفه. ولوحة كبيرة مخطوط عليها آية الكرسي بلون ذهبي وإطارها خشبي مزخرف.

"هذه صورة لوالدي الذي كان صديقاً لك، والأخرى لشقيقه وكِلاهُما في دار الحق. أما اللوحة فهي لآية الكرسي التي خرت لأجلها الأصنام كلها وقت نزولها ليلاً على النبي".

سعل الإمام مرتين ووضع سبابته على صدر سليم:

"دعنا ننتهي من هذا الآن. لقد أوقعنا على كل بالِغ عاقلٍ مُقتدر من سُكان الحي مبلغاً من المال يؤديه إلينا لنُنفِقهُ في سبيل الله. لا طواعية في الأمر ولا عُذر لمن فضل القعود ولم يَمُد يَدهُ معنا في جهاد الكفار".

اصفر وجه سليم وهمَّ بقول شيءٍ، لكن الإمام منعه:

"قُلتُ بلا عُذرٍ. وهذا أمر واجب التنفيذ وليس طلباً".

"أنت أكثر الناس علماً بوضع ابني وما يتطلبه من عناية. وبحثنا الشاق عن فرصة لعلاجه النهائي".

تراجع الإمام خطوة إلى الوراء كمن يرُد تهمة عن نفسه:

"عِلاجه عِند الله. وسبق أن رفضت من قبل وصفتنا له والتي أجرُها الجنة لولا تعنُتك وقِلةُ إيمانك".

جر أحد الملثمين وكان أقصرهم لِثامه الأسود فتدلت لحيتهُ، ثم هرش بفوهة مسدسه الكلوك أسفل ذقنه. فيما حاول الآخران الإبقاء

على نظرتيهما الغاضبة كجزء من متطلبات مَهمتهما.

"سبق وأن جاهدتُ بمالي". قال سليم بتلعثُم راداً الإعتبار لكرامته الإيمانية المهدورة.

أعاد الإمام شُجاع وضع سبابته على صدره وأدار له شق وجهه الأيسر ثم سأله:

"لِمن أعطيت المال ومتى؟ ".

"أقل من سنتين، أقل من سنتين".

أراد أن يقول إختطفوني، لكنه أبدل الكلمة قبل خروجها من حنجرته:

"أخذوني. نعم أخذوني من مدخل الشارع وأعادوني إليه" .

ضغط بسبابته على صدره فمال سليم نحو الخلف:

"هذا كل ما حدث. أخذوك ثم أعادوك ".

"نعم وإلى نفس المكان ".

أطلق الإمام واحِدة من صيحات خُطبه الشهيرة:

"من همُ، وكم دفعت لهم؟ "

أغمض سليم عينيه. وحين فتحهما وجد الوجوه الأربعة قريبة منه والعيون تنظر إلى فمه:

"ثلاثين ألف دولار".

هتف الإمام مع قفزة قصيرة في الهواء:

"وهذا القدر ما جئناك لأجله" .

****

طُوقت قواتٌ أمنية الحي بأكمله صباح يوم الثلاثاء وشرعت بحملة تفتيش. تحدث الجيران عن مقتل أيوب البقال على أيدي مجموعة مسلحين مُلثمين، إقتحموا منزله ليلاً واحتجزوا أفراد عائلته في الحمام ثم إقتادوه إلى غرفة نومه مع سيخين من أسياخه المتقاعدة والمعلقة مع خناجر وسيوف ودفوف على الحيطان. أدخلوهما في بطنه ليخرجا من ظهره. وحين نهض يبتسم لهم كأنه لم يُثقب للتو بسيخين طول الواحد منهما متر، أطلقوا عليه وابِلا من رصاص مُسدساتهم قبل أن يسرقوا كل ما هو خفيف وثمين ويلوذوا بالفرار.

وضعت زاهدة أقفالاً إضافية على باب المنزل الحديدي وبابي المطبخ والمدخل. كإجراء وقائي لمواجهة غزوة جديدة للإمام وعصابته عقب فشلها في إقناع سليم بالذهاب والسكن مؤقتاً في بيت أهلها بالقرية، على الرغم مما كان سيسببه ذلك الخيار من مرارة إن تحقق بسبب وجود زوجة أبيها فردوس هناك. وزيادة في الحيطة والحذر رفعت الصور عن الجدران وأخرجت خزين المنزل من سجادات الصلاة. وضعت اثنتين في صالة الضيوف والباقي في الصالة الداخلية وغرفة جابر وعلقت واحدة في حائط المطبخ لتسبغ على المنزل روحاً إيمانية إذا لم تُجدِ الأقفال نفعاً. وهيأت غطاءً يكفي لإخفاء التلفزيون ما أن تسمع طرقاً على الباب الخارجي.

"من يضمن لنا عدم عودتهم مرة أخرى". سألت زوجها مذعورةً.

"الإمام شجاع أقسم بذلك" .

"الآخرون قبله أقسموا لك ووعدوا بحمايتك مقابل ما سلبوه من مدخراتنا. والآن هذا المنافق القاتل أخذ منا ما تبقى من مالنا وجعلنا نبيع كل ما نملكه من ذهب وحرم ابننا من إجراء العملية ".

رن صدرها وهي تضربه بقوة:

"يا إلهي سيقتلونك في المرة المقبلة، لأنهم لن يجدوا شيئاً ليسلبوه منا".

وضع يده على رأسه:

"لن يفعلوا لقد أخذوا ما أرادوه ".

"ولكن الإمام شجاعًا هددك بالقتل".

"إذا أوشيت به لدى الشرطة".

صاحت الحاجة غنية في الصالة:

"بُني سليم تعال وشاهد والدك الشيخ مجيد في التلفزيون !".

*****

تلقت جمعية الثلاسيميا صدمةً عبر رسالة الكترونية عاجلة من كاليري أفادت بوفاة البروفيسور كالانيلو متأثرا بسرطان الكلية. وهو ما أشاع جواً من الإحباط لدى أولياء أمور المرضى المترقبين منذ أشهر عديدة أخباراً بشأن توقيع الاتفاقية ثم المِنح العلاجية. إذ كان الحديث دائما عن دور مِحوري لكالانيلو في إجراء عمليات ناجحة لمرضى شفوا وشحنات أملٍ عابرة للقارات أرسلها إلى المنتظرين أدوارهم بتواصله الحميم مع الجمعية.

لكن رسالة لاحِقة بعد أيام حملت توقيع وزيرة الصحة في مقاطعة سردينيا الإيطالية الدكتورة سيمونا أعادت الدِماء إلى الوجوه، فقد ذكرت بأن كالانيلو طلب من وزارتها في وصيته الإستمرار بدعم مرضى الثلاسيميا بالعلاج وبرامج الوقاية وتدريب الأطباء ونقل الخبرات الصحية مجاناً. وكان ذلك دافعا لتوقيع اتفاقية التوأمة بين سردينيا ونينوى حملت أسم كالانيلو.

أول شيء نفذ من هذه الإتفاقية هو قيام الأطباء المتخصصين في مستشفى ميكروجتيميكو بالاستفسار من الدكتور زهير عن الوضع الصحي لثمانية مرضى رشحتهم الجمعية لإجراء العمليات، وحل جابِر بالترتيب الثالث بينهم. وكان قد دخل عامه السادِس عشر منذ شهرين يوم زارهُ ثائر مع إثنين من أعضاء الجمعية في المنزل لإعلان البشرى المنتظرة. وقف وسط صالة الضيوف وهو يتصبب عرقاً بسبب حر تموز وتدفق الأدرينالين. ثم قرأ بطريقة مذيعي الأخبار رسالة باللغة الانكليزية كانت في ورقة أمسكها بإصبعين ورفعها أمامه. لم يفهم منها سليم وزاهدة شيئاً، بينما تابع جابر وإيثار حوار جدتهما مع شقيق لها متوفٍ قبل ولادتهما بسنوات طويلة.

ثم عاد ليقرأ في الورقة ذاتها لكن بالعربية:

"بعد الموافقات الرسمية على التخصيصات المالية اللازمة لإجراء عمليات زراعة النخاع نود إعلامكم بإمكانية إستقبال ثلاثة مرضى خلال العام الجاري بدءاً من الأول من شهر آب على أن نستكمل إستقبال البقية خلال العام المقبل".

عدت زاهدة بأصابعها. وسأله سليم:

"من سيستقبل المرضى؟".

تقدم ثائر نحوهُما خطوتين:

"السؤال الأهم الذي ينبغي أن تسألاه لنا هو من هم المرضى؟".

وضعت زاهدة يديها على وجهها. فيما ألقى ثائر نظرة سريعة على زميليه وقال:

"حسنٌ، لنخبرهم بكل شيء. مستشفى ميكروجتيميكو حددت مواعيد لإجراء ثلاث عمليات لثلاثة مرضى حتى نهاية هذا العام. وجابر سيكون الثاني. وهذا يعني أن تتهيئوا من الآن للسفر إلى إيطاليا" .

(جابر)

عـصرَ اليومِ العاشر من سَـكبِها في دمي. وقفتُ أمـام المِرآة أُراجِعُ قائِمة المُتطلباتِ الشكليةِ لموعدي الغرامي الأول مع ليان. كان شعري مدهونـاً ومدفوعاً إلى الخلفِ مثل مُمثلي الأفلام القديمة. طلاءٌ خفيفٌ من كريم الأسـاس على وجهي لتوحيدِ لونِه وشـفتاي مشفوطتان إلى داخِـل فمـي وفوقهما شـاربي المقصـوص بعناية بالغة. وعـليّ قميصي الأخضر الفاتح بزرين علويين مفتوحين وعُلبة سـكاير نوع وينستون في جيبي الصدري. مع بَنطلون جينز بثنية صغيرة وحذاء رفعني كعبه نِصف شبرٍ عن الأرض.

مـن المؤكـد أن بَخات عطر الشـانيل بور مسـيو الثـلاث هي التي قـادت أنف إيثـار إلى غرفتي ليضبِطني مُتلبسـاً بوقفة عارضي الأزياء أمـام المـرآة الداخليـة لباب دولابي. صيحـةُ واحدِة إهتـز معها خداهُ وكرشـه تكفلـت بإعلان حالة الطوارئ في المنزل. اسـتجابت لها أمي بركضـةِ فـزعٍ سريعةٍ مـن المطبـخ إلى الغرفة. ضمت يديهـا الملطختين بالطحين إلى صدرها وقالت متحدثة إلى نسختي الجديدة:

"ماذا فعلت بنفسك؟".

جربتُ نِبرة صوتي الغليظة:

"لدي موعِدٌ مُهمٌ مع أحد الأصدقاء".

اكتشـفت سريعاً إستحالة إبقاء شفتي إلى الداخل والتكلم في ذات الوقت. فلجأتُ إلى حيلة أسـعفتني بها الغريزة بوضع يدي أمام فمي عندما أنطق بشيء.

"ومتى كان لديك أصدقاء؟".

لم يكن سؤالاً وجَهته لي أمي بقدر ما كان تذكيراً وعيناها مسلطتان على حِذائي الأسود ذي الكعب العالي.

"وماذا حدث لصوتك؟"

مشيتُ مُحاولاً المحافظة على توازني فمنحني المرور بينها وبين إيثار شعوراً مريحاً بالارتفاع. سمِعت صوتها المُهدد خلفي وأنا أجتاز الصالة إلى باب المدخل:

" لن يُعجبه أبوك ما فعلته بشاربك حين يَعود من القرية".

فأجبتها قبل أن أمد خطوة عشقي الأولى إلى الخارج:

"لست طِفلاً صغيراً يا أمي وأنا حرٌ بما أفعله بشاربي. كما أن أبي لن يعود من القرية".

*****

سِرتُ خُطواتٍ مُترنحاً على الرصيف بعد نزولي من سيارة الأجرة لأنني نسيتُ أمر الكعبين وكذلك بسبب الدوار الذي أحدثه دُخان أربع سكائر دخنها السائق طوال الطريق وهو يحدثني دون فاصل إستراحة عن مآسي حياته والحروب التي خاضها من أجل لقمة العيش.

أخذ قلبي يدُق مثل دفوف المتصوفة كلما اقتربت من المتجر الذي لاح لي بواجهته الزجاجية الواسعة والأصص المصفوفة أمامه مشكِّلة حديقة ورود خارجية معظمها أقحوان وجوري بألوان مختلفة وأسمها في الأعلى مرسومٌ على شكل قلب بلونين أخضر وأحمر

مضيئين وامتدت من جانبيه أغصانٌ حملت أزهار بيبون.

استقبل أنفي رائحة الياسمين في الداخل، كانت موزعة بسخاء في أرجاء المتجر وبعضها إمتد إلى السقف. خمنت بأن ليان تضع خلف الفاصل الخشبي المُزخرف في الزاوية اليُمنى لنهاية المتجر الزجاجية أيضاً آخر لمساتها على باقات أيادي العرائس من ورد الجبسوفيل التي تُهيئها في مثل ذلك الوقت من كل ثلاثاء إستعدادا ليومي الأربعاء والخميس اللذين تقضي فيهما ساعات النهار تُنسِقُ قاعاتِ الأعراس بالزهور وتترك المتجر في عهدة مساعدتها دلال.

أحسستُ بألفة نحو المكان وكان بوسعي تحديد الأشياء في مواقعها باستخدام ذاكرة ليان. تضع في الجرة الخزفية الصغيرة فوق دولابِ حفظ البذور سلسلة مفاتيحها، وإلى جوارها سِجلُ المبيعات. ومطوياتٌ إرشاديةٌ ملونة عن كيفية الإعتناء بنباتات الزينة الداخلية. وفي الجهة الأخرى تماماً كُرسيانِ وطاولة صغيرة وعلى الجدار إلى اليسار قليلاً أكياسٌ صغيرة ورقية لبذور الأزهار والخضراوات والفواكه والحشائش وعارضة صغيرة تحتوي على قفازات العمل ومرشات ماء وأوعية للشتلات.

صفٌ من النباتات المتسلقة على عيدان فصلتني عن دلال المنشغلة بالرد على أسئلة سيدتين ومعهما رجل مسن. رفعتُ شتلة مسك الليل وتساءلت مع نفسي عن المكان الذي نُقلت اليه شجيرات الفيكس بنجامينا وفكرت بسؤال المساعدة عنها وتثبيت طلبية منها، لكن ظهور ليان الساحر مثل فراشة ربيعية أحبط خطتي. أعدتُ الشتلة إلى مكانها وتصنعتُ الإنشغال بمتابعة تدفق الماء من نافورة خزفية قريبة،

لكنني في حقيقة الأمر لم أكن أرى أمامي شيئاً وعانيت من صعوبة في إبقاء أنفي في مكانه وفمي مغلقاً وأخذت ركبتاي ترتجفان وخفق قلبي بشدة وفكرت بالهرب بعيداً فيما اقتربت هي:

"مساءُ الخير"

قالتها بياء مطولة وفاحت معها رائِحة الياسمين المدهشة من كراند بال.

عرفت بأنها ستفتش عن عيني وتقول بصوتها البُلبلي:

"هل أستطيعُ مساعدتك في شيء؟".

فقدتُ السيطرة على حَنجرتي. وضعت يدي على فمي محاولاً الرد، لكن لم يخرج سوى الهواء.

أشرت بإصبعي إلى يمينها في مناورة لكسب قليل من الوقت أعيد به تنظيم نفسي. ابتعدت خطواتٍ وتوقفت عند زهرة الأوركيد حيث كنتُ ما أزال أشير ونظرت ناحيتي تُريد التأكد إن كنت أقصد تلك النبتة أم سواها. أبهرني جمالها الخارجي وتلك الابتسامة المعجونة بالحُزن والتي لا يعرف أحدٌ آخرُ سرَّها غيري. لكنني لم أكن قادراً على إسترجاع الزمن المار كما أفعل بماضيها في داخلي. وتعين عليّ توثيقُ كل ثانية من سحرها بعيني وعقلي وقلبي وروحي.

شكلتُ قبضةً بيدي وضعتها على أنفي وفمي متصنعاً الحيرة:

"أريُد نبتة تدوم طويلاً".

لو أن فيلسوفاً ما استمع إليَّ وأنا أقول هذا لحظتها. لترجم لها نِبرتي المتوسِلة حتى وإن كانت بغلظة مصطنعة على أنها رغبة في أن تدوم هي إلى آخر ثانية من عمري.

"مُعظـمُ النباتات يُمكن أن تدوم فترة طويلـة إذا ما تم الاعتناء بها جيدا، يُمكننـا أن نُقدم إضافة إلى خدمة البيع تعليمات بخصوص كل نبتة والبيئة المناسبة لها".

قلبي هو من كان يسـتمعُ إلى صوتها، يتذوقُ طعم كلماتها حرفاً إثر حرف. وقد منحني ذلك قوةً لدرجة أن مات مني ذلك الجابر الأحمق بابتسامته البلهاء غير المبالية. وحل محله الذي يُفترض أن أكونهُ لو أن قُدرةً خارقة شطبت الثلاسيميا من حياتي.

"تنسـيقُ الزهـورِ عِندكـم يُذكـرني بلوحـاتِ الانكليـزي البـيرت ويليامز والأوكرانية ماريا لافيتا".

أعجبهـا ما قلت. لأنها تعبر عن فرحتها الشـديدة بضحكة قصيرة ويميـل رأسـها قليـلاً إلى اليمين. فعلت كل ذلـك بسرعة وعادت إلى صورتهـا الأولى تسـتفسر عـن طلبِ زبـون غريب الشـكل يضع يده باسـتمرار أمام فمه وهو يتحدث. ألقت نظرة حائرة حولها تنبئني أنها تنتظر ما سأطلبه.

أخرجـت من جيبي وبحركة آلية علبة الوينسـتون وأشرت بها إلى الياسمين المتسلق إلى السقف:

"أبحـث عـن الياسـمينة الملكـة ذات الزهـرة الكبـيرة وإن لم تكن متوفرة، فإن ملكة الليل ستكون بديلاً مناسباً".

تأسفت:

"ليس لدينا كلاهما. لكن هُنالك أنواع أخرى كثيرة خارجية وظليةٌ نسبياً".

أخذتني الحماسة والرغبة في الحديث إليها وبدأت أكلمها عن الياسمين، أو بالأحرى هي من لقنتني من الداخل ما قلته:

"هنالك مائتا نوعٍ من الياسمين، وهي إما دائمة الخضرة أو نفضية. وأزهارها بيضاء أو صفراء أو ذات لون قرنفلي. وليست فقط رائحتها الزكية ما يميزها عن كل الزهور. بل فوائدها الأخرى، إذ تزيد نعومة البشرة من خلال إضافة عِدة قطرات من زيتها لحمام مائي ونقع الجسم به لمدة عشر دقائق. وتخفف آثار الندوب على البشرة وتقلل علامات التمدد بخلط زيتها مع زيت جوز الهند أو الفازلين. وتُخفف حِدة المشاكل الجلدية كالإحمرار والطفح الجلدي".

إنضمت إليها دلال وظلتا تراقباني مندهشتين وأنا مستغرق بالحديث، ألوح بيدي اليمنى التي فيها علبة الوينستون والأخرى قريبة من فمي. درت بوجهي ناحية النافورة لألتقط أنفاسي ثم قلتُ بحزم:

"أريدُ ياسمينة بزهرة بيضاء لا يهم نوعها. وصباراً ونرجساً وريحاناً ورجل الفيل والأكاليفا وفيكس بينجامينا وبومباكس".

رفعتُ دلال حاجبيها:

"نبتة واحدة من كل نوع؟".

أشرت لها بإصبعين ثم أبدلت رأيي وقلت:

"ثلاثة"

****

راقبني الجميعُ ذلك المساء، أمي وجدتي وإيثار وشبحُ وليد كيف

وزعتُ الأصص الأربعة والعشرين في غرفتي مستفيداً من لمستي ليان الفنية والعلمية بحسب ملاءمة كل واحِدة لمكانها من الناحية الجمالية وحاجتها إلى الضوء قرباً أو بُعداً عن النافذة. جلسوا على سريري بإستثناء وليد الذي بقي مُتكئاً على الحائط عند الباب وأخذوا يصغون إليَّ وأنا أدعو النبتات بأسمائها وأكلمها كأنها أطفال صغارٌ سَيخلِدون للنوم. كانت مضخة الديسفيرال معلقة بكتفي والإبرة مغروزة تحت سرتي، وفي رأسي عزفُ موسيقى السيمفونية الخامسة لبتهوفن التي تلجأ إليها ليان في بعض الأماسي للحصول على الإلهام. ظلت العيون الثماني تلاحقني وترصد كل حركة أقوم بها لحين تخلت أمي عن صمتِها أخيراً وعبرت عن خشيتها من غضب الله على بيتنا بسبب ما فعلته بوجهي والبنطال الضيق والحذاء اللذين أرتدَيتُهما والأغاني التي أرددها.

توقفت الموسيقى وإنكفأ صخب ليان. قلتُ وأنا أعدل حزام المضخة على كتفي:

"غضبُ الله يتجسد بحروبٍ تبيد مُدناً وشعوباً وحضارات. ويستخدم أحياناً براكينَ وفيضاناتٍ جارفة وأعاصير وجراداً وأوبئة. وسيكون هدراً كبيراً لقُدرته إن وجَّه واحدة من أدواته تلك نحوي أنا نصفُ الجثة المعلق بين البرزخ والدنيا".

قضم إيثار قطعة كبيرة من رغيف خُبزٍ أمسكهُ مثل مِقود سيارة. وضحكت جدتي لشيء تخيلته . بينما كُنتُ مثل أمي ووليد مستغرباً مما تفوهت به للتو وبدلاً من الوقوف عند هذا الإقتباس من تجارب أصحاب الدماء في دماغي واصلتُ أختار منها ما توافق مع حالتي:

"لن يغضب الله لأنني فكرتُ بأن أعيش حتى ولو كذباً يوماً واحداً أو إثنين طبيعياً مثل بقية الناس"

"اللهُ يُريدُ لك الجنة ويجب أن لا تفقِد إيمانك به".

"سيتفهم تماما عندما أتوقف عن الإيمان به. لأنه وعلى مدى سنوات مرضي الطويلة لم يستمع لدعاءٍ واحدٍ بشفائي. وحَكم عليَّ دون ذنب مني بمعاناةٍ لا تتخللها فتراتُ استراحة ولا أوقاتٌ مستقطعةٌ والأمل الوحيد بخلاصي منها هو الموت".

بكت أمي. وبقيتُ أنا ساكناً مثل ثملٍ عاد إليه رشده فجأة ليكتشف ما فعله في غياب عقله. أعادتني دموعها الغزيرة إلى سيرتي الأولى ولم أجد في جعبة جابر المهزوم والمدرب على الرضوخ سوى الصمت.

سألت جدتي وهي تشير نحوي بسبحتها الطويلة:

"من هذا؟

(زاهدة)

قضينا يومين في السـوق لِشراء ثيابٍ وأحذيةٍ مريحة وصوابين غار وليف اسـتحمام اسـتعداداً لرحلتنا التي قيل لنا بأنها ستسـتغرق أكثر من سـتة أشهر. شـعرتُ وقتها بقيمة السـجل الذي يحمله سليم معه في كل مكان، لأنه كتب فيه ملاحظة بأن الأجانب لا يغتسِـلون بالمياه في المرافـق الصحية لذلك سـنحتاج إلى أبريق هنـاك. وبدلاً من واحدٍ اشـترينا اثنين تحسباً لأي ظرف. أفرغت الدواليب من ثيابنا ومناشفنا وأغطيـة مناماتنا ووسـائدنا القديمة وملأت بها أكياسـاً كبيرة ذهبت للفقراء. وأبدلتُ سـتائر النوافذ كئيبة الألـوان بأخرى ألوانها مبهجة تـسر القلـوب ولـولا ضيق الوقـت لأخرجـت كُل الأشـياء القديمة مـن المنـزل وأعـدتُ طـلاء جدرانـه مـن الداخـل والخـارج وملأته بآثـاث ومفروشـاتٍ جديـدة. وكان هـذا واحِداً من بين نـذور كثيرة تعهدنا سـليم وأنا على الإيفاء بها فـور عودتنا من إيطاليا تاركين زمن الثلاسيميا وأهواله خلف ظهورنا.

مازحنـي عند ذهابِنا لإلتقـاط صور فورية لجوازاتِ السـفر وقال بأنه سـيجلب معنـا وبنفس الطائرة التي سـنعود بها إيطاليةً حسـناء، لكـوني أصبحتُ عجوزاً. ضحِكنـا من قلبينا حتى أدمعـت أعيننا. لم نفعل ذلك إلا في سنة زواجنا الأولى عندما كنا نقفل علينا باب غرفتنا ويمشي هو بين السرير ودولاب الثياب ويداهُ خلف ظهره مقلداً مشية حماتي وصوتها حين توبِّخنا لأتفه سـبب ونطرق برأسينا مثل الأطفال نادمين على أشياء لم نفعلها.

سايرتهُ مازحةً:

"لا تهتم أبا فلينه. إذا شُفي ابني أُزوجك بنفسي من إيطالية هناك".

ضحكنا مرة أخرى وضحك معنا المصور لأنني كُنت أقول هذا وبيدي مقصٌ أخذتُه من على منضدته ووجهته إلى صدر سليم.

تغير حال الدُنيا ما أن سَخَّر اللهُ رئيسَ الجمعية ثائرًا لينقل لنا خبر الموافقة على إجراء العملية لجابر. إذ اقترب حُلم شفائه أكثر وصار بيننا وبين حُصول ذلك فقط ركوبنا تلك الطائرة وإقلاعها بنا من مطار بغداد. أصبحنا مثل باقي العائلات وناقشنا كثيراً مستقبل أولادنا. في عُرف قريتنا يُمكن للشاب أن يتزوج بعمر ست عشرة سنة، وكان هذا هو عمر جابر في ذلك الوقت. إقترحت على سليم أن نخطِب له ونزوجه بعد سنة. فنضرب عصفوري فرح بحجر واحد. إكتمال شفائه وزواجه في آن واحد. لكن سليمًا رفض ذلك متجاهلاً أنه لو قدر له أن يولد ويعيش في القرية مثلنا لتزوج وهو أصغر من ذلك. قلتُ له مُتحسرة:

"لو كانت حماتي بوعيها لوقفت إلى جانبي.. ".

وهنا تذكرنا نحن الاثنين. وقُلناها سوية:

"من سيبقى معها إذا سافرنا؟"

****

أخذت جمعية الثلاسيميا نسخاً من جوازات سفرنا نحن الأربعة جابر وإيثار وسليم وأنا. وأرسلتها إلى المستشفى الايطالي الذي لم أحفظ اسمهُ أبداً لصعوبته. وبعد أيام أخبرونا بأن الدعوة وصلت وأننا سنسافر يوم الخميس 28 تشرين الأول المقبل. كتبت التاريخ

عـلى أوراق صغـيرة ألصقتهـا ببـاب الثلاجـة والدواليـب في المطبخ والمـرآة في غرفة النوم وزاوية إطار صورة المرحوم والدي التي أعدتها الى صالة الضيوف. ليس لتذكيرنا بالموعد الذي ثبته سـليم في سـجله أيضاً، وإنما لنشعر بأن فرحتنا ليست وهماً، بل حقيقة ولها موعد مثبت باليوم والساعة والدقيقة.

بقيت لدينا عشرون يوماً فقط على موعد السفر. ولم نتوصل بعد إلى أحدٍ يمكنه رعاية حماتي لحين عودتنا. سليم الكتوم ذهب قبلها لزيارة الأحيـاء من أشـقائها وشـقيقاتها وأبناء المتوفين منهـم. وعاد دون أن يتفـوه بشيء. ولأننا لم نكن نملك وقتاً كافياً توجب عليّ تناسي وقاحة شـقيقاته اللواتي لم يزرن بيتنا سوى مرة واحدة قبل سنوات، تكدسن فيهـا بالمطبـخ مـع أمهِن لسـاعة وغـادرن مسرعـات بحجـة الخوف الكاذب من انتقال مرض جابر إلى أبنائهن. ومثلما دار سليم بينهن في الشرق والغرب طلباً للتبرع بالنخاع، والله وحده يعلم كيف إستقبلوه وقتهـا لأنـه لا يقول كل شيء في العادة. ذهـب أيضاً ليطلب هذه المرة عونهن ليس لابني الحبيب ولا لي أنا. وإنما لأمهن التي أنجبتهن.

الكبرى منال، تذرعت بصرف وقتها كله في ملاحقة شؤون أبنائها الأطباء والمهندسين وأبنائهم وقالت بأنها فوق ذلك تعاني من مشكلة في فقرات ظهرها. الأصغر منها والأطول لساناً جميلة إدعت أن زوجة ابنها الوحيد تنتظر مولودها الثاني واقترحت على سـليم أن نأخذ أمها معنـا. أما حنـان فقد أخبرته بالهاتف أنها تسـتعد للسـفر مثلنا لمعالجة زوجها المصاب بالسرطان في الأردن. الأخيرة أفراح التي حول الفقر حياتها إلى مأسـاة ويطردها المؤجرون باستمرار مع زوجها قليل الحظ والـرِزق. وحـالُ أبنيهما اللذين ورثا عنهما سـوء الطالع لم يكن أفضل

منهـما، إذ لم ينجحا سـوى في العثور على البطالة والأبواب المسـدودة بوجهيهما. إشـتكت لسـليم من كل هذا عندما طلب منها رعاية أمها مؤقتاً وتأسـفت لعدم مقدرتها على القيام بذلـك. لكنه عندما أخبرها بأنها ستسكن مع زوجها في منزلنا مجاناً لأكثر من ستة أشهر مع راتب شـهري لكليهما واسـتخدام أثاثنـا وأدوات مطبخنا وغـرف النوم في الطابق الثاني. إشـتعل قلبها فجأة بالحنين لأُمِها وعيناها أمطرتا دموع فـرح لأنها سـتعود للعيـش معها بعض الوقـت. وإدعـت بأنها تتوق لتقبيل قدميها الواقفتين على الجنة.

"كُنـت سـأبدل الأثاث على أية حال فلا بأس أن تسـتخدمه أفراح وزوجها"فكـرت بهـذا مهوِّنة عـلى نفسي. وربـما كُنت سـأعطيها لهُما إحسـاناً وشكراً لله على سـلامة ولدي. لكن لا شيء من القلب. فمن تخلى عنا في سـنوات شـدتنا لن ينال حُبنا في وقت الفرج. ومع ذلك لم أخـرِج هذا من صـدري، فأنا إمرأة تخشـى ربَّها ولا أريـد من زوجي قطـع صلة الرحم مع شـقيقاته، وفي الوقت عينه أمُ مريضٍ لاحِجاب يفصـل دعوتهـا عن السـماء وقـد يتحول عتـابي إلى شـكوى من أذى أحدهـم لي فيُنـزل اللهُ غضبه عليـه. وأنا لا أودُ وقـوع ضرر لأحد أياً كان بسببي. حتى ذلك المنافق القاتل الذي كان المخدوعون به وأولهم نحن يدعونه الإمام شجاعًا. تجنبت في صلواتي الدعاء عليه وهو الذي سـلب منا المال الذي كُنا سـنجري به عملية إبننا في الهند. وهدد سليمًا بالقتـل. ويوم وصلنا خبر مقتله مع أفراد عصابته الشريرة وسُـحلت جثثهم في الشوارع وعلقت بأعمدة النور خلال حملة تطهير المدينة من شرهم، تخيلتُ مرض جابر رجلاً وتضرعت ساجدةً إلى الله أن يخلصه منه كما خلص الناس من ظلم وطغيان الإمام.

(جابر)

قبـل العـاشِرة من صباح يوم السـبت تقمصتُ دور فسـيلةٍ خلف شجرة صفصاف في الجزرة الوسطية للشارع العام المقابل لمتجر ليان. تابعتُ من هناك وصول دلال وإخراجها أصص الورود مشكلةً منها بمحـاذاة الواجهة ثلاثة صفـوف متدرجة الإرتفاعات. مرت سـاعة بعد ذلك ولم تصل ليان. في مثل هذا اليوم من كل أسبوع تعمل كنحلة داخل المشـتل الصغير الملحق بالمتجر. تزرع البذور وتسـمدها وتنقل الشتلات من الأواني والأكياس إلى الأصص ثم العرض للبيع. وتقوم بجولـة ما بعد الظهر اليومية للتأكد من سـلامة النبتات من الأمراض وخلوهـا من الحشرات، إذ تسـتدعي دلال فـوراً إذا رصدت إحداها للتعامل معها أياً بلغ حجمها حتى وإن كانت مجرد نملة صغيرة ضيعت طريقها. لكنها لم تظهر في ذلك اليوم. السـاعات الثقيلة تلاحقت وأنا أضرِب بكعبيّ الرصيف في الجهة الأخرى جيئة وذهاباً وأسـلي نفسي بالمواقـف الجميلة التي مرت بها ليان وكانت طريةً وطازجة في ذهني. فبعـد رؤيتي لهـا وجهاً لوجه والكلمات القليلـة الغالية التي قالتها لي. أصبح صوتُ نسـختها السـابحة في دمي أكثر وضوحاً فيما انتقيته من ذكريـات حواراتها مع الآخرين وللمرآة في سـاعات إختلائها الحزينة بنفسـها. باتت أكثر قرباً مني، وفي بعض الأحيان كِدتُ ألمسها بيدي. كأنها ماثلة أمام عيني وليست فقط في رأسي وقلبي.

في ظروف مماثلة يلجأ الناس الطبيعيون إلى الهواتف ليتواصلوا فيما بينهـم ويطمئنوا على بعضهم. لهذا الغـرض اللعين تم اختراعها. وأنا المختلف عن الجميع وفي كل شيء تقريباً لم أكن لأشابههم في هذا. فأنا

أكره الهواتف بمختلف أنواعها ورناتها. هي عديمة الجدوى بالنسبة لشخص باليد مثلي بلا أصدقاء ويقضي معظم وقته في غرفته بانتظار موت لا يجيء. ولم يكن في بيتنا سوى هاتفين خلويين، واحدٌ بلا شريحة حصل عليه إيثار قبلها بفترة وجيزة هدية من خالتي ميعاد، أرسلته إليه لمناسبة عيد ميلاده وأقتصر إستخدامه على ألعابٍ يقتل بها أوقات فراغ ما بعد عودته من المدرسة. وآخر لأمي قديم الطِراز تضعه بداخل كيس صغير من الجلد أزرق اللون معلق بمسمار في الحائط قريباً من باب المدخل. يتلقى إتصالا واحِداً في الشهر يرد عليه إيثار ويكون من أبي يوثق به عادةً سلطته الأبوية عن بُعد ويؤكد إرسال مصروفنا الشهري بيد صديق له.

عند رجوعي الخائب إلى المنزل ذلك اليوم ووقوع عيني على هاتف أمي ظل رقمُ ليان يومضُ في ذهني وشيء ما أغراني لإقتراف حماقة الإتصال بها لأن ذلك أسهل إلي من الناحية الشكلية في الأقل ويجنبني إرباك ترفيع شفاهي وإخفاء فضيحة أسناني ودهن وجهي بكريم الأساس وكعبين عاليين يُصحِحان قامتي. لكن رقمها غير مُثبت على بطاقة المتجر ولا على المطويات الدعائية. ودلال في العادة هي من تُجيبُ على الإتصالات التي ترد الرقم المدون فيهما. لذا لم يكن بوسعي سوى انتظار الصباح لأعاود مغامرتي القلبية.

ليلتها وأنا أملأ رئتي بهواء نيسان المُنعِش عبر نافذة غرفتي شاهدتُ الغيوم تنسحب كاشفةً عن إكتمال القمر. ملأني شعور بالراحة والطمأنينة لأنني أدركتُ سبب غيابها غير المقلق. فقد كانت طوال اليوم ومثلما فعلت كثيراً من قبل، معزولة بين جدران غرفتها مُسدلة الستائِر تقرأ في سريرها روايات جدها الكلاسيكية بطبعات

بيروتية قديمة هرباً من مصائب محتملة بتدبير من القمر.

وليد الخبيث لم ينتظر حتى أتشبع من حالة الهيام التي كُنت غارقاً فيها ونغص عليَّ متابعتي ليديها الرقيقتين وهما تقلبان صفحات الحرب والسلام والأرض الطيبة والآمال الكبيرة والشيخ والبحر وجاتسبي العظيم ومدام بوفاري. وذكرني بتلك اللحظات التي تَغلق بها الكُتب وتأخُذها لحظاتُ شرودٍ إلى لقائها الغرامي الأول في ساحة المعهد الواسعة بنسيم المائع الذي يظهر مُتطفلاً في مواقف وذكريات كثيرة أردتها أن تكون لنا وحدنا أنا وليان فقط.

أجبرني وليد على إسترجاع الآهات الصدرية التي تصدر عنها حين تستذكر مُقابلاتِهما شبه اليومية ونظرات العيون والهمسات والهدايا والرسائل وخفقات قلبها المتسارعة في حضوره والتي عبثاً حاولتُ تجميعها مثل نفايات ضارة وحجبها بأسلوب الإهمال الذهني. والأسوأ من هذا أنه كرر على أسماعي أحاديثهما الهاتفية الطويلة التي دارت عن أشياء تافهة، وكان ذلك بالنسبة لي بمثابة تجرُع لِلسُم.

إضطرني وليد أيضاً إلى إخراج هدايا نسيم المخبوءة التي أهداها إليها في عيدي الحب وميلادها. قلبٌ زجاجيٌ ملون مقسوم إلى نصفين واحدٌ معه والآخر في المجرة قريباً من مخدة نومها، تمُد إليه يدها في ليالي الحنين المؤرقة. باندا إسفنجي صغير مُعلق بسلسلة مفاتيحها تبتسِم لهُ وتقبلهُ وتكلمه، تغضب منه وتصالحهُ. برج إيفل رصاصي اللون بحجم الإصبع جلبه من باريس، حيث إعتادت أسرته فاحشة الثراء قضاء عطلتها الصيفية. فلاش ميموري مليء بأغاني الحب المنتقاة وصور لهُ تظهر الأماكن التي زارها وتفاخره بالأزياء التي ارتداها.

قلم مُذهب وخاتمٌ فضيٌ وساعة يد بحزام جلدي بُني ومنديلٌ أبيض يحمل أول حرف من اسمها محفوظة كلها بداخل صندوق خشبي في دولاب ثيابها.

قاومتُ ببسالةِ محاولات وليد الشيطانية في جعلي أتتبع الأشياء التي أهدتها له هي بالمقابل. وضعتُ يديّ على أذنيّ. عزفتُ مونمور صفيراً. صفقتُ وطبلتُ على خشب السرير والدولاب وضربت برجليّ أرض الغرفة ولم يتوقف عن وسوسته إلا عندما فتح إيثار الباب وصاح مستنجداً:

"ماما، جابر فقد عقله مرة أخرى".

****

صباح الأحد، كُنتُ أول زبونٍ يدخُل متجر الزهور. رصدتني دلال أولاً، لكنها شغلت نفسها بتعديل تربة أصيص كبير لنخيل الأريكا، فاسحة المجال ريثما يقع إختياري على شيء ولاسيما أنها رصدت إشارة حيرة التسوق التي تصنعتها خلال تجوالي بين النبتات. راجعتُ ما سأقولهُ لـ ليان كلمة فكلمة:

"سأحتاج إلى رقم هاتفِك للحصول على نصائح ما بعد البيع. فخبرتي محدودة جداً في الإعتناء بالنباتات التي أريد ملء منزلي بها".

وكان هذا أفضل مستهل للحديث معها وفكرة عبقرية لتبرير الإتصال بها. واستلزم مني لتعزيز فرصتي في الحصول على تعاونها إبقاء عينيّ في عينيها والصمود قدر الإمكان دون ميلٍ للرقبة أو الجذع وهي من شروط إظهار الجدية مع خسائر معنوية طفيفة متوقعة بسبب مهمة يدي في حجب فمي عن نطاق رؤيتها خلال تحدثي. تدربتُ

على ذلك طوال الليل تحت ضغط تذكير وليد المستمر لي ببقاء أسبوع واحد فقط من عمر دمائها نشطة بداخلي.

باغتتني بظهورها الخاطف قادمة من مشتلِها وبيديها كيس تُربة صغير. توقف الزمن لحظات وكل جزء مني أراد الهرب إلى جهة والاختباء منها. وضعتُ يدي على فمي وحركت رأسي إلى اليمين واليسار، علّني أمسك بكلمة واحدةٍ من الكلمات التي قضيت ساعات أرددها لنفسي. لم أكن عاجزاً عن النطق، وحواسي لم تكن منطفئة، كل ما في الأمر أنني لم أعثر على ما توجب عليّ قولهُ. غير أنها – ليان التي تسكنني– تدخلت وأسعفتني في اللحظة المناسبة:

" هل يمكن أن أحصل على تعليماتٍ مكتوبة عن كيفية الإعتناء بنباتات الظل؟".

****

يوم الاثنين أزداد وضوح الأمر الذي لا مفر منه، وهو تناقص الدم في جسمي ومعه تقلصت حيوية ليان بداخلي. الشعور المريح مع حدوث ذلك لدماء عشرات آخرين خلال السنوات الفائتة أصبح في تلك المرة مخيفاً لدرجة الهلع، لأنه كان يعني بدء إنسلاخها عن روحي. تضاؤلها شيئا فشيئًا لغاية حصولي على دماء جديدة تفرض سطوتها على المزيج المتهالك المتبقي من دمي ودمها، فلا يمكث لها أثر في رأسي سوى فتات من ذكرياتها الجامدة بلا طعم أو رائحة. الإشارة الموجعة تلك كانت تعني بأن أمامي أسبوعاً واحداً فقط قبل بدء علامات الانهيار في جسمي، والتي لا يمكن تداركها إلا بكيس دم من متبرع جديد. وبطبيعة الحال سيكونُ شخصاً آخر غير ليان يدنس

بدمائه آثارها في شراييني وأوردتي.

تحتم علي الضرب بأحد المجذافين بقوة لتغيير المسار الذاهب إليه زورق عمري والحصول على التفويض الاستثنائي المطلوب لإجراء تعديلٍ على مصيري. ضربات المجذاف الأولى أخذتني عند طبيبي زهير. من المؤكد بأنه لمس التغيير الطارئ على لون بشرة وجهي، شعري المقلوب، وإسترخائي في المقعد أمامه ونظري مباشرة في عينيه. فقد تفاقمت حمرة أنفه حين قال:

"تبدو مشرقاً" .

سألته دون لف أو دوران:

"هل يمكنني الزواج؟".

ظل يُحدق في الأوراق على مكتبه لثوانٍ. ربما قام بمراجعة سريعة وشاملة لحالتي وألقى نظرة ذهنية على ملفي منذ أن كان مجرد ورقة حتى أنتفخ بمرور السنوات تحت إشرافه ليحتل مساحة درج كامل. اتسعت عيناه ثم تناول قلمين بيديه على أنهما رجل وامرأة وأخذ يشرح لي:

"إذا حمل الطرفان صفة المرض. أي تواجد في كل منهما جزء جيني منه، فإنهما سيتحدان في المولود وتظهر عليه الإصابة. لكن بتطور العلم فإنهما يستطيعان أخذ خزعة من الجنين في أيامه الأولى ومعرفة إن كان مصابا أم لا. وقد بدأت بعض المراكز في إجراء عمليات نقل وزراعة نخاع العظم للجنين المصاب داخل رحم أمه، بدلاً من إجهاضه. وتتميز هذه العملية بندرة رفض جسم المريض للنخاع المزروع".

ترك أحد القلمين وأشار لي بالآخر:

"الأعـمار بيـد الله وحده. فـإذا أراد المصابُ، المواظـب على الدواء وأخذ الدم، الزواج بفتاةٍ سـليمة غير حاملة للمرض فسـيلدان طفلاً حاملاً للمرض فقط. ويعيش حياةً طبيعية".

ضربت مسـندي المقعد بيـديّ وكررتُ عليه السـؤال ضاغِطا على كل كلمة:

"دكتور، هل يمكنني الزواج. نعم أو كلا؟".

فأجاب مسرعاً وهو يترك القلم الأخر من يده:

"نعم تستطيع".

****

ضربـات المجـداف التاليـة قـادت زورقي يـوم الثلاثـاء إلى متجر زهـور ليـان، وفي رأسي تصميـمُ لا رجعـة عنه على إفراغ مـا في قلبي أمامها وإلاعتراف لها بأن جسـميّ المسـكون بالثلاسـيميا لن يستطيع الإسـتمرار بدمـاء غيرهـا وأن وجودها معـي أصبح يعني اسـتمراراً للحيـاة. اسـتوقفني حاجـز دلال كالعـادة فقُلـتُ لها بأنني أريـدُ باقة زهورٍ مميزة جداً لشـخص عزيزٍ وغالٍ على قلبي. ولأن مهامها تقتصر في حال وجود ليان على البيع وترتيب المعروضات نادت عليها لتظهر مـن خلفِ جـدارٍ مـن المارجيناتا وتضيء المـكان بإشراقتهـا. قاومتُ لهفتي بالركض نحوها والإرتماء على صدرها مثل طفل. وقلتُ بِلباقة:

"آه، أنتِ الخبيرة هنا".

أنحنى رأسـها خجلاً وتعانق كفاهـا. فأصابني ذلك بدوارِ الحُب.

تلعثمتُ ويدي تغلف فمي:

"أود أن تصنعي لي باقةً فيها أجملُ الورود وأعطرها كأنها لوحة لجان بروجل".

عطلتها الدهشةُ لأجزاء من الثانية، ثم قادتني عبر ممر ضيق وملتوٍ من مختلف أنواع النباتات إلى حيثُ مشغلها الصغير الذي هو عبارة عن منضدة مستطيلة مُلاصقة للجدار عليها رزمةٌ من أوراق تغليف ولفافات أشرطة ملونة، وعلى مقربة منها مقعد خشبي دائري بلا مسندين طلبت مني الجلوس عليه وسألتني عن الأنواع التي أفضل أن تتضمنها الباقة. كان الأمرُ سيان إن ذكرت لها أسماء ورود معينة أو تركت لها حرية الانتقاء. لأن ما كُنت سأقوله نقلاً عن النسخة النابضة في داخلي كانت ستقررهُ بكل تأكيد الأصلية المكتملة الواقفة تنظر إلي بعينيها اللوزيتين البديعتين مرتديةً مئزرها فيروزي اللون ذا الجيب الكنغري وفي يديها قفازا عمل زهريان. لكن ضماناً لمزيد من التقريب بين رؤيتينا للجمال عددتُ مستخدما أصابع يدي:

"طبعاً ياسمين بالدرجة الأولى لأنني أحبها كثيرا. وجوري، فريزيه، زنبقة الوادي، أقحوان، نرجس ثم ولإضفاء مزيدٍ من الرونق يمكنك أن تضمي إليها الأوركيد والقرنفل وربما الكرز".

ليانتي الحبيبة قالت بفرح:

"رائع، سوف أحضرها جميعاً فوراً".

ثم إختفت في ممر النبتات وجلستُ أنا شاعراً بوخزة الضمير لمجموعة الخدع التي مارستها لتوصلني إلى مشغلها. وتساءلت إن كنت قد وضعت يدي على فمي حين أخبرتها عن تشكيلة ورود الباقة

وإن كانت نبرتي غليظة كفاية. ثم طمأنت نفسي بعدم بقاء أهمية لذلك مادمتُ سأقدم لها الباقة هدية بعد دقائق وأعترف لها بحبي الكبير.

عـادت بعد قليل ومعها الورود. وضعتها على المنضدة ثم أخذت بيدهـا اليـسرى وردتي جوري حمـراء وصفراء وأضافـت إليهما زنبقة الـوادي وبقية الورود بالتتابع ثم أحاطتها بالياسـمين وشرعت تقص السـيقان بنحو مائل. تجيدُ صُنع هذه الباقات التي أكسـبتها شـهرة لا بأس بها قياساً بعمرها المهني القصير. وتعد ما تقوم به فناً وليس مجرد واجبـات عمـل، لذا يجب أن يقترب قدر الإمـكان من درجة الكمال. وتحـرص بذكاء عـلى إشراك الزبون معنويا على الأقـل في إعداد الباقة ليشـاهد بعينيه لمساتها التنسـيقية والإبتكارات الكمالية التي ستضمن وفـاءه الدائـم لمتجرهـا. خمنتُ الأسـئلة القصـيرة التي سـتوجهها لي وتطرحهـا عـلى جميع زبائنهـا الآخرين من مقتني باقاتهـا لإضفاء جو من التفاعل:

"هل تفضل أن تكـون الورود الغامقة إلى الداخل أم إلى الخارج؟. هـل تريد إبقاء السـيقان طويلـة بعض الشيء. أم نقصهـا قليلاً؟. هل المسـافة التي سـتأخذ الباقة اليها بعيدة من هنا، أتريد مني لف نهايات السيقان بمناديل ورقية مبلولة؟".

لكنني لم أخمن أبداً أن تلتفت إلى يمينها حيث كُنت جالسـاً أراقبها بنظرة حب وتسـألني بصوتها الحنون عن سـبب اهتمامي بالياسـمين. ارتبكتُ، ظننتُ لوهلة بأن معجزةً ما جعلتها تكتشـف أمري. أجبتُ بصوتي العادي دون تضخيم:

"لأنها سيدة الزهور".

كانت منهمكة ولم تنتبه إلى نبرتي أو ربما لم يكن ذلك مهماً. قالت:

"أعني، أنك تعرف معلومات كثيرة عنها وعن لوحات فنانين عالميين".

لا ضير من كذبة أخيرة ترفع أسهمي لديها بعض الوقت، نقلت حرفياً عبارةً عنها من رأسي، كانت هي قد سمِعتها خلال دراستها الجامعية وكررتها مراراً في أحاديثها مع الناس:

"الفن الحقيقي يبدأ من عالم الزهور".

وعثرتُ على جملة أخرى سبق لها أن استخدمتها في مطوياتها الدعائية:

"كما تقاس حضارة الشعوب على أساس ما تستهلكه من زهور...".

ثم أكملت هي:

"تقاس رقة الفرد بعدد ما يهديه لغيره من ورد".

شكل هذا التوافق بيننا أكبر انتصاراتي في ذلك اليوم، لا بل في حياتي كلها، وهو ما شجعني على تقديم توقيت إعترافي قبل إكمالها الباقة التي وصلت مرحلة لفها من الوسط. وهُنا تنهدت ليان، وظلت تُحدِقُ بالجدار أمامها. فحسبتُ أنه الماضي جاء ليكسر قاعدتها الصارمة بإبعاد حياتها الخاصة عن العمل. وأخذتني الشكوك بعيد جداً لولا أن تأسفت لي:

"لم يعد لدينا شريطٌ أخضر بنفس لون سيقان الزهور، وهذا فاتح اللون ولن يكون مناسباً كثيراً".

تنفستُ الصعداء وقُلتُ لها برقة:

"المهم أن الزهور متناسقة وجميلة".

"نعم معك حق"، قالت مستكملة حالة التوافق بيننا.

أشـتد خفقانُ قلبي لإحساسي بأنها اللحظة المنتظرة لإعلاني الذي سيبدأ بإسمها مع كلماتٍ ستخرج خصيصاً لها وللمرة الأولى من قلبي أنا وليس اقتباسا أو نقلاً من ذكريات متبرعي الدماء. أغمضت عيني وهممتُ بنطق اسمها، لكن صوتاً آخر غير صوتي نادى:

"ليان".

تكرر الصوت مرةً آخرى وأصبح أقرب وأعلى:

"ليان".

تجمـدت مصعوقـةً في مكانها وباقتـي مازالت بين يديهـا. ثم ظهر شـخصٌ مـن الممـر خلفها، بـدا على وجهـه الحليـق المألـوف وعينيه الزرقاوين حُزنٌ ممزوجٌ بالتعب. فاحت رائحة الشانيل بور مسيو قويةً حين خطا بهدوء نحوها مردداً اسمها مجدداً. شقها الأيمن كان أمامي مباشرةً وشـاهدتُ كيف تفجرت السـعادة في وجههـا وتركت باقتي مـن يديهـا لترتطم بحافـة المنضدة وتسـقط على الأرض بـين قدميها. استدارت نحوه فاتحةً ذراعيها وهتفت بفرح أنفطر له قلبي:

"نسيم !".

(كالياري)

حظي مُقترح جمعية الثلاسيميا المتضمن ملاحظات البروفسور الراحل كالانيلو بدعم حكومي ودخل قرارٌ تشريعيٌ بهذا الخصوص حيز التنفيذ بإلزام المتقدمين لإبرام عقود الزواج بإجراء فحص مرض فقر دم البحر الأبيض المتوسط المعروف بالثلاسيميا. مقابل رسوم يذهب قسم منها لصالح الجمعية. مع تهيئة قاعدة بيانات بالمصابين وبدء حملة توعية شاملة للتعريف بمخاطر المرض وأسبابه وفوائد الفحص المبكر لتجنبه.

"ننتظر إكمال مستشفى زراعة النخاع وإنشاء سجل وطني للتبرع ونصبح جاهزين للقضاء على المرض"

قال ثائر محتفلاً بالقرار الحكومي وسط عدد من زملائه أعضاء الجمعية وسليم الذي استُدعي لتسلم تذاكر السفر الأربع إلى اسطنبول ترانزيت ثم إلى العاصمة الايطالية روما ومن هنالك إلى كالياري مع الأوراق الخاصة بالتأمين الصحي له ولزوجته ونسخة مصورة كاملة من ملف جابر الطبي الضخم. وقائمة بأرقام هواتف شخصيات ومخطط مصور لموقع مستشفى ميكروجتيميكو في كاليري مع نصائح مستخلصة من تجارب أولياء أمور مرضى آخرين سافروا إلى هناك لإجراء العملية.

أشار ثائر إلى لوحة معلقة في الجدار فيها مربعات صغيرة احتلتها صور مجموعة من الأطفال والصبية:

"بعد أشهر سنضع صورة ابنك هنا بين أقرانه الذين أرسلناهم

للعلاج وعادوا أصحاء ليواصلوا حياتهم" .

رد سليم بخجل:

"لا أعرف كيف أشكرك أخي. لقد كنت عونا كبيراً" .

مازحه ثائر:

"لا تشكرني الآن، بل عندما تعود من إيطالياً لأننا نفكر بالترويج لبرنامج زوجة ثانية لأولياء الأمور في جمعيتنا وقد تكون وقتها من أوائل المستفيدين منه".

أطلق سليم ضحكةً ظل يهتز معها فيما عينه على المربعات الفارغة في لوحة الصور. وقال بمرح قلما بدا عليه:

"ستقتلني زاهدة!".

****

في الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة من صباح يوم الخميس 28 تشرين الأول سنة 2013، قرأ سليم وزاهدة سويةً وبصوت عالٍ دعاء الركوب معبرين وبنحو غير مسيطر عليه عن خوفهما من تجربة طيرانهما الأولى، فيما أغمض إيثار الجالس وسطهما عينيه وأخذ يلوكُ لقمةً من الخبز والجبن وجابر على المقعد القريب من النافذة في الجهة الأخرى يُراقِب أشجار النخيل والشوارع والأبنية خارج مطار بغداد الدولي وهي تصغر حتى حجبت طبقة كثيفة من الضباب الرؤية وبعد لحظات أصبح يشاهد أرضاً من الغمام تشبه مساحة شاسعة من القطن المفروش. إبتسم لها ولامس بأصابعه الزجاج كأنه يريد الإمساك بها.

مال سليم برأسه من فوق إيثار وقال لزاهدة المتخشبة في مقعدها،

ممسكة بمسندیه وقدماها تحت المقعد الذي أمامها:

"أخرجي من هناك، لقد أصبحنا في السماء".

" أخرج من أين؟".

"لن ينفع هذا بشيء إذا سقطت الطائرة، نحن لسنا في السيارة".

" أخاف البقاء طويلاً على سطح المنزل والآن أنا فوق الغيوم. ورجاءً لا تذكر كلمة سقوط حتى ننزل من هنا على الأرض".

دارت بعينيها نحو النافذة على يمينها دون أن تحرك رأسها. ثم أدارتهما إلى اليسار ومالت بجذعها إلى الأمام قليلاً لتطمئن على جابر الذي كان قد ألصق جبهته بنافذته.

"لست مصدقة لغاية الآن أننا في طريقنا لإجراء عمليته".

ثم أرجعت رأسها لتسنده بمقعدها فوجدت وجه سليم قريباً أكثر، وهمس لها:

"زاهدة، بعد إنتهاء كل هذا وعودتنا بخير وسلامة إلى بيتنا. سأخبرك بشيء كان يجب أن تعرفيه أنت والناس جميعاً منذ سنوات".

"لا أحب النميمة لكن أفراح أختك وزوجها كانا يتصرفان لدى وصولهما مع كل تلك الأغراض، على أنهما سيمكُثان في بيتنا إلى الأبد وليس البقاء فيه مجرد ضيفين لرعاية حماتي المسكينة لحين عودتنا".

سحبت رجليها من تحت المقعد أمامها وسألته بشيء من القلق:

"هل طالبتك بحصتها من البيت؟"

إلتقط فتات الخبز من حجر إيثار الذي كان قد غفا وأجابها:

"كلا لم تفعل".

"هل سـجل عمي رِحمه الله نِصف المنزل بإسـم شخص غريب كما فعل المرحوم أبي مع زوجته الثانية".

صمتت قليلاً ثم تابعت متحسرة:

"وبماذا ينفع الكلام الآن، لقد أصبح كله لها".

" هو يتعلق بشيء لا يمكن أن يمتلكه سوى شخص واحد فقط".

لم تفهـم زاهـدة شـيئا، وأراد هـو الانتقـال للحديـث في موضوع آخـر غير أن مطبات جوية متلاحقة جعلـت الطائرة تهتز بعنف. فتليا مرعوبين دعاء الركوب مجددا وهما يقبضان بقوة على مسندي مقعديهما بينما ولداهما كانا يغطان في نوم عميق.

بعـد ثـلاث سـاعات وعشر دقائـق هبطت بهـم الطائـرة في مطار أتاتورك بمدينة اسـطنبول التركية. قضوا هناك أربع ساعات ونصف السـاعة مـن التيه والبحث غـير المجدي عن حقائب سـفرهم قبل أن ينجدهـم موظف يتحدث بضع كلمات عربية، أوصلهم في اللحظات الأخـيرة إلى بوابـة الدخول للطائـرة المتوجهة إلى العاصمـة الإيطالية روما. ولم يقتنع سليم بوجود الحقائب الأربع معهم على متنها إلا بعد سـاعتين وثلاثين دقيقة عندما عثر عليها فوق البساط الدوار في مطار فيوميتشـينو وقد عرفها من خلال الخيـوط الحُمر التي لفها بمقابضها لتمييزها بناءً على ما ورد في قائمة نصائح أولياء الأمور الذين سبقوه.

في ممـر الإسـتقبال الخارجي وجدوا أنفسـهم يسـيرون أمام جيش من المُبتسـمين وبأيديهم أوراقٌ مكتوبة عليها أسـماء بحروف إنكليزية

كبيرة. أوقف سليم حركة السير وأخذ ينادي على اسم (ربيع) بحسب تعليمات المرحلة الثانية من السفر والتي قرر التعامل معها بصرامة من البداية لكي لا يضيعوا. وبعد لحظاتٍ فك شاب في الثلاثين من العمر زحام الممر بسحب سليم وعائلته جانباً ورحب بهم بلهجة لبنانية مقدماً نفسه مرافقاً ومترجماً لهم طوال فترة بقائهم في إيطاليا.

أقسم ربيع برؤوس كل القديسين الذين سمع بهم أن بيتزا الجبن التي حاول تقديمها لهم في مطعم المطار خالية من دهن الخنزير وليس فيها أي لحم سواء حرام أو حلال، لكن زاهدة لم تقتنع وأصرت على فتح الحقيبة السوداء الكبيرة التي ملأتها بأكياس بلاستيكية من أرغفة الخبز والكليجية والشكرلمة والتمر والمشمش المجفف. ولجابر علب مكسرات وزيتون أخضر وحليب مجفف. وعندما أعلن إيثار عن رغبته في قضاء حاجته للمرة الثالثة خارج الوطن أدخلت زاهدة الإبريقين إلى الخدمة وخلال دقائق أصبحت دوره المياه القريبة من السوق الحرة منطقة محرمة على المسافرين بسبب سوء توقيت من إيثار الذي أفرغ كل ما في بطنه دفعة واحدة على الأرض قرب المغاسل.

منتصف تلك الليلة انتهت المرحلة الثالثة بوصولهم إلى مطار الماس الذي يبعد ستة كيلومترات عن كالياري عاصمة جزيرة سردينيا. ولم يظهر عليهم تعب الرحلة بين قارتين ومطارات أربع مدن إلا في ظهيرة اليوم التالي، وكان الجمعة، إذ انتزعوا أنفسهم بصعوبة من أسرتهم في غرفتي شقة وفرتها لهم منظمة اسمها أستافوس بالتعاون مع جمعية الثلاسيميا. وملأت زاهدة البطون الجائعة بوجبة حقيقية من الدولمة والعدس والدجاج المسلوق وجدت موادها كاملة في المطبخ مع ملاحظة ملصقة على الثلاجة بخط ربيع:

"لحوم الدجاج والعجل حلال والزيت نباتي".

وبإستثناء جابر الذي ظل مستيقظاً يراقب عبر نافذته المطلة على الشارع حركة الناس والمركبات عاد البقية للنوم لغاية أن زارهم ربيع صباح السبت ليصحبهم بجولة تعريفية لمدينة كالياري.

قدم لهم نفسه بانحناءة صغيرة ويداه في سترته السوداء الجلدية:

"ربيع نمور".

قالت زاهدة وهي تنظف فم إيثار من صفار البيض بمنديل:

"نعرف أنت ربيع".

إحمر وجهه من الخجل وأكمل:

"أنا طالب أدرس طب الأسنان وجراحة الفك هنا في كالياري. وأعمل بنحو طوعي وكيلاً تنسيقياً بين جمعية الثلاسيميا في نينوى والمنظمة التي استأجرت لكم هذه الشقة الجميلة وكذلك مستشفى ميكروجتيميكو الذي يبعد عن شارعكم هذا الذي اسمه ليمبارا مسافة خمس دقائق مشياً على الأقدام".

كان الأربعة جالسين يتابعونه كأنه يقدم عرضاً مسرحياً:

"سأكون مترجمكم الخاص في المستشفى وسأرافقكم خارجها لمساعدتكم في إجراءات الإقامة وتعريفكم بطرق النقل وأماكن التبضع وستجدونني معكم فور اتصالكم بي في أوقات الطوارئ".

ثم نظر إلى جابر:

"استقبلت آخرين غيرك خلال الفترة الماضية. وشاهدت بعيني

كيف تغيرت حياتهم بعد إجرائهم لعملية زراعة نخاع العظم. ورجعوا إلى بلدانهم وهم بكامل عافيتهم. وأنا أتواصل مع عدد منهم عبر الفيسبوك".

ثم جلس بالقرب منه وقلّب صوراً في جواله لمرضى يظهرون عابسين مثله قبل العملية وسعداء بعد الانتهاء منها. قال جابر مكلماً نفسه:

"كل هؤلاء جاؤوا إلى أرض الأحلام !".

ولينضم إليهم، إلتقط له ربيع صورةً تذكارية قريباً من الجدار وخلفه صورة لقلعة كالياري (كاستيلو). ثم صورة جماعية وقف فيها الأبوان بالوسط، تأخرت بضع دقائق بسبب إنشغال زاهدة بإحكام ربط حجاب رأسها، لأنها لم ترد أن يظهر شيء من شعرها عندما يعرض ربيع صورتهم لآخرين. وبعد أن التمعت أخيراً الوجوه الباسمة باستثناء جابر بضوء كامِيرا الهاتف سألتْ سليمًا بصوت خافت ويدها على فمها:

"من هو فيسبوك؟".

****

في العاشرة من صباح يوم الإثنين استقبلتهم الدكتورة كارمن ماريا مسؤولة مركز زراعة نخاع العظم في المستشفى ومعها زميلها الدكتور الإختصاص كوسو. وأخبرتهم بترجمة فورية من ربيع نمور أن لديهم في المركز تصورًا كاملًا عن الوضع الصحي لجابر وأنه أفضل من عشرات غيره خضعوا للعملية بنجاح، لذا فهي متفائلة كثيراً. وتركت المجال لكوسو الذي يمنح رأسه الحليق بالكامل ووجهه

اللطيـف المسـالم مع نظارتـه الطبية صغـيرة الحجم الآخريـن إنطباعا بالألفـة نحوه. أمـا الأقلام الجافـة الأربعة باللونـين الأحمر والأزرق التـي يضعهـا دائما في جيـب معطفه الأبيض فتشـير إلى جانبـه الجاد. وقـد ظهر شيء منه وهو يشرح لهم بإيطالية هادئة لاحقها ربيع بترجمة فورية عن زراعة نخاع العظم وفائدتها وما سـيفعلون تحديداً بدءاً من ذلك اليوم:

"سـنقوم أولاً بإعـادة فحـص التطابق النسـيجي الذي سـبق وأن أجريتموه في بلادكم ولدينا تقرير من المختبر بذلك. ثم نُجري فحصاً عـلى عينة من النخـاع العظمي لجابـر. وفحص تعداد الدم الشـامل، إختبـارات التخثـر وكيميـاء الدم. وفحوصـات أخرى عديـدة للدم والبـول للتأكـد من عدم وجود أي تلوث في جسـمه. ومـن ثم نتأكد من عمل الكبد والكلى وسنعرف لماذا يصاب بالحساسية من أي دواء آخر غير الديسفيرال".

سـحب واحداً من القلمـين الأحمرين وأشر عـلى الفقرة الأولى في ورقة متعددة الفقرات أمامه وتابع:

"بعـد إجراء كل هذه الفحوصات التمهيدية، سنسـحب منه نخاع العظم لتخزينه على سـبيل الإحتياط تحسـباً لفشل العملية إذ سيمكننا حينهـا إعادته لجسـمه. ثـم نعرضه لعـلاج كيميائي قـوي عن طريق الحقـن الوريـدي لحرق ما تبقى من بقايا النخـاع القديم ليصبح مهيئاً لإستقبال الجديد الذي سنأخذه من شقيقه. وهو علاج تحضيري لابد منه يستغرق عشرة أيام ".

إسـتغلت الدكتورة كارمن فترة الصمت القصيرة وانشغال كاسو

بالتأشير على الفقرة الثانية لتقول لهم مطمئنة:

"سـنقوم بكل شيء هنا في مستشفانا هذا ولن تحتاجوا للذهاب إلى مكان آخر".

إبتسم كاسو قبل أن يعود إليه جانبه الجاد:

"سنأخُذ عينة من نخاع إيثار من تجويف العظم مباشرةً أو بواسطة إعطائه حقنًا تحضيرية وأخذ الخلايا من الدم ".

أصغت زاهدة إلى النسخة اللبنانية من الترجمة وطلبت توضيحات بين حين وآخر من سـليم الذي واصل بدوره تسـجيل الملاحظات في سجله. قبل أن يطلب من ربيع أن يسألهُ عن الأعراض التي سيتركها العلاج الكيميائي على جابر. فطرق الطبيبُ بالقلم على رأسـه مرتين. ترجم ربيع الحركة:

"سيصبح أقرعَ مثله ! ".

وحين لم يجد أثراً لمزحته على وجهي الوالدين، أوضح:

"مؤقتاً طبعا".

نهـض الطبيـب كاسـو وشرح لهـم كيـف أن عمليـة زرع النخاع العظمـي تتـم بإدخـال الجديـدة منهـا إلى جسـم المريض عـن طريق القسـطرة الوريدية. وذلك بعد مرور يوم أو يومين من إنتهاء العلاج الكيميائي التحضيري. وإن ذلك سيستغرق خمس عشرة دقيقة تقريباً ولن تكون هنالك حاجة للتخدير الموضعي أو الكلي.

قالت الدكتورة كارمن تمط الحروف الأخيرة لكلماتها:

"سـيظل جابر تحت المراقبة هنا في مستشـفانا إلى أن يسـترد جهازه

المناعي عافيته".

"نعم بالضبط "أيدها الدكتور كاسو. ثم أبدل القلم الأحمر بالأسود وتابع:

"وسيتم إعطاء المريض أدوية من أجل تقليل احتمالات رفض النخاع المزروع. ويكون من الواجب إجراء مراقبة دقيقة لدمه بسبب الأعراض الجانبية المختلفة التي قد تسببها هذه الأدوية. ومن المهم جداً إبقاء محيطه خالياً من التلوث سواءٌ ثيابه، فراش نومه، غرفته، منشفته أو طعامه وحتى الهواء الذي يتنفسه، لأن قدرة جسده الدفاعية تكون ضعيفة ويمتد ذلك لفترة قد تطول بعد العملية، كما قد نحتاج إلى عمليات نقل خلايا دم حمراء بشكل دوري وصفائح دموية إلى أن يبدأ النخاع العظمي في إنتاج ما يكفيه من هذه الخلايا بنفسه".

سأله جابر متحمساً وهو ينظر إلى ربيع:

"هل يُمكنك إجراء العملية لي الآن؟".

(جابر)

كل الأمـراض التـي في هـذا العـالم يُمكِـن مواجهتهـا بالرفض أو بالاستسـلام، إلا حُزن القلب. لأنه يتجذر ممتـداً في الروح ولا يمنحُ سـوى خيارٍ واحـدٍ فقط هـو الألم ولا ينفع معه دواء أو تشـكي. ولو وضِعت سنوات وجعي جراء الثلاسيميا وأسافينه المندقة في كل جزء منـي بكفة والوجع الذي أحتشـد بصدري تلـك الليلة في كفة أخرى لغلبت الأخيرة. اسـتغل وليد ذلك وتمكن بشيطنته من تخطي دفاعاتي المنهـارة وفتـح الأبواب المغلقـة في رأسي وأخرج الصـور والتفاصيل الممنوع إظهارها متذرعاً بالمقولة الحمقاء "آخر الدواء الكي".

عذبنـي عـن قصد بمشـاعر ليان التـي فاضت مثل نبـعٍ مع القبلة الخاطفـة التـي طبعها نسـيم عـلى خدهـا في لقائهما الثاني بين أشـجار حديقة المعهد الخلفية. وفرحة تلقيها منه قلادة اسـمها الذهبية لمناسبة عيد ميلادها التاسـع عشر. جاب الغرفة يقرأ بصوتها العاشـق مقاطع طويلة من رسـائِل شـوقها إليه وما خطته له بالأقـلام المعطرة في دفتر مذكراتهـا. ولم تنفـع خُدعـة إنتقـالي إلى عالمـي الـسري لإعـلان ثورة غضبـي هناك وإبقاء أنا الذي في الغرفة لائـذا بالصمت. فلقد تواجد في المكانـين بـآن واحد ودفعني عنوة إلى مواجهـة الأمر بدل هربي منه وسرد لي بتصرف ودونما أي شفقة تفاصيل عما سماه حبيب ليان. أزاح مضخة الديسفيرال عن مكانها وجلس محلها فوق الدولاب قريباً من مِخـدتي التـي غطيتُ بها وجهي وأخـذت نِبرته الطفوليـة التي لا تكبر أبداً تتدفق دون أن أتمكن من ردعه:

"كانـا في الثلـث الأول من العـام الدراسي، هـي في المرحلة الأولى

قسم الانتاج النباتي في المعهد التقني وهو في المرحلة الثالثة قسم المدني في كليـة الهندسـة. جمعهما إحتفال في المعهد دعاه إليـه أصدقاء له. هي التي جذبته إليها أول مرة. وضعت نفسـها في نطاقه البصري ومنحتهُ تلك الابتسامة التي أصبحت مقدسة لديه وأقسم بها في رسائل عديدة لتسـامحه على هفوات عشـق صغيرة اقترفها. فصدَّقته مراراً وسـامحته ومَلَّكتهُ قلبها واستحوذت هي بالمقابل على قلبه".

فتحـت أمي البـاب وقامـت بواحدة مـن جولاتها الاسـتطلاعية الليليـة، مشـت بخطواتهـا التسـع المعتـادة نحـو المضخة. ثـم عادت أدراجهـا بعـد أن اطمأنت بأنني لسـت ميتاً وأن الإبـرة في موضعها. وأكمل وليد:

"اتفقـا عـلى رسـائل شـهرية مخطوطـة بأيديهـما لتوثيـق حبهما على الطريقة الكلاسيكية واستمر ذلك ثلاثاً وعشرين رسالة. آخرها التي وضعها خلسـة بـين كتبها قبل تخرجها بأسـابيع قليلة وذكـر فيها بأنه فشـل في إقناع والديـه بالعدول عن وعد قديم بزواجـه من ابنة أسرة بذات المستوى من الثراء. وأفصح مجدداً عن نقطة ضعفه المتعلقة بأمه المريض قلبها وخشـيته بالتسبب في أذيتها. لذا قرر هو التضحية بقلبه وطلب تفهمها".

قُلت لوليد من تحت المِخدة:

" وهـي لسـذاجتها صدقتهُ. واسـتمرت تخدع نفسـها بوهمه سـنة ونِصف السنة بعد ذلك. نحن الطيبون نستحق كل ما يحدث لنا ! ".

أزاح المِخدة عن وجهي لكي أشاهده وهو يدور على رجله اليسرى مثلـما كان يفعل في عروض بيعه السروايـل الداخلية عندما كان حياً.

ورد عليّ بلؤم:

"بل لأنها آمنت بقلبها ووثقت مِن أنه لن يكون لسواها. وعارضت رغبة أمها بالزواج من عرسانٍ تقاطروا عليها وقررت إفتتاح مشروعها لبيع الورود الذي بدأته بنبتة الياسمين شعار حبهما".

كنتُ مهدوداً من التعب ولا أقوى على التركيز. وفقداني للشهية وجفاف شعري وهشاشة أظافري والتقرحات في شفتي ونبضات قلبي المتسارعة أشرت إنخفاضاً حاداً في مستوى الهيموگلوبين داهمني في وقت مبكر بسبب حالتي النفسية. فكانت حاجتي ماسة إلى كيس دم جديد تُبقيني حياً لثلاثة أسابيع أخرى، وفي نفس الوقت يسلبها مني. أظهرتُ هذا بتوسل لوليد من أجل أن يكف عن النبش في عقلي. ورفعت سقف رجائي وعبرت له من صديق لصديق عن رُعبي من خلوي التام منها والعودة إلى وحدتي القاتلة مع مضخة الديسفيرال. غير أنه لم يتوقف وذكر بأنها تتبعت عن طريق صديقات لها سير حياة نسيم المحطمة من دونها وحالة الكره المعلنة لخطيبته التي بادلته ذات الشيء. ولم يكتفِ وليد بذلك، بل أصر على أن يقولها بوجهي. ويطعن بسكاكين كلماته صدري:

" يوم ذهبتْ لمصرف الدم ووهبت دمها في ذلك اليوم. دعت في سرها مع كل قطرة خرجت منها أن يُحقِقَ الله أمنيتها ويعيد إليها حبيبها نسيما".

(زاهدة)

فلذتا كبِدي، أدخلوهما مُختبر الفحص في المستشفى. كنا سليم وأنا نشاهدهما من الخارج عبر الزجاج الفاصل. خلال لحظات قليلة فقط سحبوا الدم من ذراع جابر، مع أنه ويا لحُزنِ أمه عليه كان مثل غُصن متيبس. لكنهم لم يعثروا على وريد إيثار. وهذا لأن الأجانب باردون كالثلج ولا يسمعون الكلام، فلقد طلبت من ربيع المترجم إبلاغهم بأن الولد عمرهُ ثلاث سنوات فقط وسيحتاج إلى وجودي معه في الداخل. وكما توقعت، إنفجر بالبكاء بين أيديهم، وفي مثل تلك الحالات فإن إيثارًا لا يسكُت إلا بشيءٍ يملأ فمه. وكُنت قد هيأت أمري بستِ بيضات مسلوقات أكل ثلاثاً منها وهو في حجري لغاية أن وجدوا منفذاً للدم من مرفقه.

قالوا بأنهم سيُجرون فحصاً للتطابق النسيجي بين الاثنين وأنهم لن يحتاجوا بعدها لإيثار إلى حين الإنتهاء من العلاج الكيميائي لجابر. ما جعلني أشعر بالغضب هو ما ذكره الطبيب الأقرع بأن عملية زرع النخاع التي إنتظرناها سنواتٍ لن تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة!. وسألت دون الحصول على إجابة:

"لماذا لا يستطيع أطباؤنا إجراء العملية ما دامت بهذه السهولة".

طلبت منا طبيبة شابة لطيفة الذهاب والعودة في اليوم التالي لنعرف نتيجة فحص التطابق. وإجراء المزيد من الفحوصات على دم جابر وبوله. وعلمت من حركة يدها أنها تقصد يوم غد. وكأس الماء الفارغة التي وضعتها على فمها، أنها تريد منه أن يشرب الكثير من الماء من أجل الفحص. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي لم

أحتج فيها إلى ترجمة من ربيع.

في الخارج تخلف عنا جابر، بقي واقفاً يتأمل واجهة المستشفى الملونة بالأزرق والأخضر والأحمر والأصفر. قال لي فور أن شاهدني عائدة إليه مع إيثار لإصطحابه:

"بعد أن تُجرى لي العمليةُ ونعود من هنا، لا أُريدُ لشيء أن يذكرني بمرضي. وأن ننتقل إلى منزل جديد وإذهب إلى أماكن لم أزرق فيها بإبرة مطلقاً. وأن يحرق أبي كل الأوراق التي تخصني لديه وأولها سِجلهُ الكريه".

****

"زاهدة، زاهدة".

صاحتني أمي، فهبطتُ فرِحةً سلالم بيتنا في القرية لأنني أعرف أنها حين تنادي باسمي مرتين فذلك يعني خبراً جيداً لي. وجدتها في عز صحتها وشبابها تقِفُ في المدخل بشعرها المسرح الطويل وبيدها كيسُ الحلويات الورقي الذي اعتاد أبي شراءه لنا من المدينة وحولها أطفالٌ كثيرون لم أعرف أياً منهم، مدُّوا أيديهم إلى الكيس الذي رفعته فوق رؤوسهم. إبتسمتْ حين شاهدتني قادمة إليها وأشارت إليَّ بالكيس. أراد الأطفال الآخرون مزاحمتي عليه وتقافزوا يُحاولون الوصول إليه قبلي. أردتُ أن أخبرها عن أشياء كثيرة أهم من الحلوى، أن أقول لها بأنني مُشتاقةٌ إليها جدا وسعيدة لأنها ليست غاضبة مني بسبب جحودي وعدم فعلي شيئًا حين احتاجت إليَّ. وأن الله تقبل منها دعواتها وستُجرى لجابر العملية وسيشفى من مرضه. غير أنني وجدت نفسي أركض مسرعةً وبيدي الكيس متخطية الباب نحو الباحة الخارجية

وخلفـي الأطفال يصرخـون. وتغير المـكان. أصبح تلـة القبور خلف حقلنـا وبدلاً من كيس الحلويات كان بيدي قميصُ جابر الأبيَض مليئاً بثقـوب صغيرة مـن المنتصف وعليه بُقع دم ومـن حولي كلابٌ تقترب مني بأعينها الحُمر وأنيابها الظاهرة تطول كلّما تقدمت نحوي.

إسـتيقظتُ هلعـةً وبصقتُ إلى يسـاري ثـلاث مـرات. في البداية ظننـتُ بأننـي في غرفـة النوم بالمنزل وشـيئاً فشـيئًا توضحـت الرؤية وأدركـتُ بأننـي مع ولـديّ وسـليم في إيطاليا، وتلك غرفـة النوم في الشـقة. ثم تذكرت بأن جابرًا أخذ حقنة الديسـفيرال وأن عليَّ تفقده الآن. وعندما رفعت رأسي محاولة النهوض وجدتُ سـليمًا جالسـاً في مكانه على يميني، ينظر إليّ وعيناهُ غارقتانِ بالدموع.

****

صبـاح الثلاثـاء، قابلنـا الطبيـب الأقـرع كاسـو قـرب مكتـب الإسـتعلامات في المستشـفى. بـدا شـخصاً مختلفـاً وهو بـلا نظارته. وكان قد أبدل قميصه الأبيض بواحدٍ أزرق دون ياقة وجيبه خالٍ من الأقلام. أصغى إليه ربيع ثم إلتفت ليخبرنا ما قاله:

"النتيجة المبدئية للتطابق النسيجي مشجعة. فقد حصلنا على تطابق بالمستوى البسـيط (A). والمتوسط (B). لكن المستوى (C) سيحتاج إلى عدة أيام لتظهر نتيجته".

وضعت يدي على كتف جابر وقبلتهُ من رأسه.

"هـذا الفحـص دقيق، وهو الأهـم، لأنه سـيحدد إن كان التطابق كامـلاً مائـة في المائـة. وسـنعتمد عـلى نتيجتـه في إجـراء عمليـة زرع النخاع".

إنتظـر الطبيب حتى فرغ سـليم من الكتابة في سـجله. قرب ورقةً من ربيع وأكمل:

"يقـول الطبيب بأن علينا إسـتثمار الوقت هذا اليـوم وغداً لإجراء هذه الفحوصاتٍ، وهـي لبول جابر وأخرى لدمِه وأعضائه الداخلية لنعرف عنه كل شيء ونكون مستعدين قبل مرحلة التحضير للعملية. وطبعاً سيكون فحص التطابق قد اكتمل قبلها".

إرتـدى نظارتـه وإقترب من جابـر، رفع بإصبعه جفنـه الأعلى ثم أمسـك بساعده ونظر إلى السـاعة الكبيرة المعلقة على الجدار الرخامي في مكتب الإستعلامات:

"عليكم أن تعطوه كيساً من الدم هذا الأسبوع".

****

أكمـل جابر الفحوصـات المطلوبة خلال يومـين، وأعطوه صباح الخميس كيسـاً غير ممتلئ بالدم، قالوا بأنه مفلتر وفيه المادة الضرورية فقط لجسـمه. كتب سـليم ذلك في سـجله لكي يخبر باقي أولياء أمور المرضى عند عودتنا، وأضاف إلى ذلك بأن جابرًا لم يشـعر بأي أوجاع في جسـمه خـلال تلقيه الـدم أو بعدها وأنها المرة الأولى التي شـاهده فيها يبتسم وإبرة الدم في ذراعه.

دعانـا ربيع عصر ذلك اليوم إلى مطعم يُقـدم الطعام اللبناني قُرب القلعة الأثرية، قال بأننا سنأكل مشويات مع (فوكاتشيا) ولا بأس إن خـرج جابر عن برنامجـه قليلاً وأتبعها بما يرغب هـو ونحن من أنواع الحلوى الكثيرة التي ملأت أطباقها رفوفاً دائرية وسط المطعم. وكأي مـكان آخـر في تلك البلاد كانت البيتزا والمعكرونة بكل أشـكالها على

الموائـد أو في الصـور الكثـيرة المعلقـة على الجـدران والنافـذة الكبيرة بجوارنـا أو في القائمـة الملونة التي وضعوا واحدة أمام كل واحدٍ منا. أخبرت سـليمًا بصوتٍ يبدو أنه كان مرتفعـاً بعض الشيء أنني لم أعثر على كلمة حلال مكتوبة في أي مكان بالمطعم. فتدخل ربيع ضاحِكا:

"أنتـم تأكلون من أيدينا نحن المسـيحيين في بلداننا وهنا تسـألوننا هل اللحم حلالٌ أم حرام؟ ".

أراد سليم أن يكتب شيئاً في سجله لكنني منعته، وسألتُ ربيعًا:

"هل أنت مسيحي؟ ".

فأجابني:

"نعم، وكذلك صاحب هذا المطعم، وكل الذين إلتقيتُم بهم تقريباً منذ وصولكم لغاية الآن كذلك. الإنسانية تجمعنا قبل كل شيء".

فقـال سـليم وهـو ينظـر إليَّ بعتاب كـما يفعـل عندما أقـوم بعمل خاطئ، وهي نظرة نادرة على أية حال:

"طعـام أهـل الكتـاب حِـلٌ لنـا، وطعامنـا حـل لهـم. وهـم أهلنا وأحباؤنا".

حينها وصلت أسياخ اللحم المشوي. إعترف ربيع:

"إتصلت بصديقي صاحب المطعم قبل مجيئنا وطلبت منه أن يجلب اللحـم الحلال من متجر عربي، لأنني تذكـرت ماحدث مع البيتزا في مطار روما!".

فضحكنـا كلنا حتـى إيثار الذي لم يكن يعرف عـلى ماذا نضحك. وبعد أن أوشكنا على الإنتهاء سألت ربيعًا عن الأكلة التي أخبرنا بأنها

ستكون مع المشويات. فأخذ بيده قطعة من الخبز وقال:

"هذه هي فوكاتشيا".

لم أكن لأضحك بتلك الشدة التي جعلت الناس على باقي الموائد يلتفتون إلينا لولا الضحكة المجلجلة التي أطلقها سليم قبلي، فالفوكاتشيا لم تكن سوى خبزٍ عاديٍّ. ويبدو أنه مثلي تذكر أرغفة الخبز الساخنة التي أخرِجها منذ سنوات من تنور سطح بيتنا وأتضح في النهاية أن اسمها فوكاتشيا دون أن نعرف ذلك.

مسحت بطرف حجابي دموعي التي أجراها الضحك ودعوتُ الله بأن تمضي الأمور على خير. ولحظتها شاهدتُ إمرأة قُرب رفوف الحلوى، ترفع بيدها كيساً ورقياً ممتلئاً وطفلين يمدان يديهما ويحاولان الوصول إليه.

****

في التاسعة من صباح يوم الجمعة، أي قبل ساعة من موعد ذهابنا إلى المستشفى طرق ربيع الباب. لكنه لم يدخل لينتظرنا في الصالة مثل كل مرة جاء بها لإصطحابنا. وفي الطريق تعمد السير أمامنا لكي لا يتحدث إلينا. أحسست بضيق في صدري عندما اجتزنا الشارع الفرعي ولاحت لنا المستطيلات الملونة في واجهة المستشفى. فشغلت نفسي بالحديث مع إيثار لأوقِف الوساوس التي بدأت تتجمع مثل الذباب حولي.

أدخلونا الغرفة التي قابلتنا فيها مديرة المركز والطبيب الأقرع أول مرة، وهذا كان جالساً بمفرده يرتدي قميصه الأبيض وقد عادت إلى جيبه الأقلام. جابر وإيثار جلسا متجاورين فيما بقينا سليم وأنا

واقفـين نراقب ربيعًا يتحـدث بشيء من العصبيـة والطبيب يرد عليه بهدوء ويهز رأسـه. ثم تناول ملفاً من على مكتبه وأعطاه إياه ثم أشـار إلينا بيده.

ظـل ربيـع يتأمل الملـف وهو بين يديـه. بقي هكذا لحظـات، إحمر وجهه وحاول أن يقول شيئاً لكنه لم يقدر. وضع سليم يده على جبهته وسأله:

"هل حدث شيء ما. ماذا يقول لك الطبيب؟ ".

أجابه وهو ينظر إلى الأرض:

"هم اتصلوا بي في الصباح الباكر وكنت أتمنى لو أن هنالك شخصًا آخر يتحدث العربية ليخبركم بهذا وليس أنا".

كرر عليه سليم:

"ماذا قال لك الطبيب؟".

" أجروا الفحص مرتين، وأظهر عدم وجود تطابق نسـيجي كامل بين جابر وإيثار".

صفعتُ خدي بقوة:

"كيف لايوجد تطابق؟ ".

إلتفتَ ربيع إلى الطبيب الذي كان متكئاً على المكتب ثم قال:

"الفحـص الـذي جلبتموه معكم مـن العراق فيه خطأ لأن نسـبة التوافق ليست مائة بالمائة. وهذا يعني أن هنالك خطراً على حياة جابر لو أُجريت له العملية وزرع فيه نخاع شقيقه".

ركـض جابـر إلى خـارج الغرفة، مـددت يدي نحو البـاب لكنني

شـعرت بثقـل في رأسي وخلال لحظات لم تكن رجـلاي قادرتين على حملي. فجلسـت على الأرض منهارةً ونار تغلي في أحشـائي. سـمعت سليمًا يتحدث بغضب:

"ألا توجـد طريقـة لمعالجة ذلك. أي شيء يمكـن أن تقوموا به كما تفعلون مع باقي المرضى" .

فأجابه ربيع:

"يقول بأن المستشـفى سـيتلافى هذه المشكلة مسـتقبلاً. ومن الآن فصاعداً سـيطلبون إرسال عيِّنتي دم المريض والمتبرع لكي تُفحصا في مختبراتها تجنباً لوقوع الخطأ ".

صاح سليم:

"وماذا عن ابني، ماذا عن جابر؟".

****

أنـا أمٌ. وقلـبُ الأم لا يفقِد الأمـل. أخذتُ ربيعًـا ومعنا الأوراق وذهبنا إلى غرفة مديرة مركز زراعة النخاع الطبيبة كارمن. توسلتُ بها أن تجد حلاً لإبني لأنه سيموت إن عدنا دون إجراء العملية. حاولتُ تقبيل يديها، ارتميت على رجليها لكنها منعتني. تحدثتُ بلا توقف مثل مجنونة، قُلتُ لربيع أن يخبرها بأنني سـأزوج جابِرًا قريباً وقد وضعت لـه جانبـاً عِقداً وخاتمـين وأوانٍ ومفروشـات جديدة هديـةً لزواجه. لقد وعدته بالشـفاء. كلنا وعدناه. إنه ينتظـر اليوم الذي يتخلص فيه من إبر الديسـفيرال والدم وإنكسـاره بسـبب المرض الملعـون. ينتظر يومـاً نُخرِجـه من العذاب الـذي وضعناه فيه طوال عمـره. نحن هنا يـا كارمن، سـاعدينا بحق كُل عزيـزٍ وغالٍ عليكِ. جئنا بعد سـنوات

وسنوات من الدعاء لله والصبر والأمل. كيف سنرجع لنبدأ كل شيء من جديد كيف؟.

أقسمت كارمن لربيع بأنها حاولت شخصياً مطابقة الرمز الخاص بخلايا جابر في السجل الوطني للمتبرعين، لكنها لم تعثر على تطابق. وأنها إتصلت بأصدقاء في بلدان أخرى ولم يعثر أيٌّ منهم على نتيجة إيجابية. ثم ضمتني إليها. وضعتُ رأسي المتعب على كتفها وبكيتُ بمرارةٍ وفي داخلي الكرهُ القديم ذاته لنفسي، لأنني لا أتقن شيئاً سوى بكاء لن يجدي بأي نفعٍ لإبني.

وجدتُ سليماً جالساً على مقعدٍ في الصالة. وجههُ بين كفَّيه وسجلهُ ممزقٌ بين رجليه وقد تناثرت أوراقٌ منه في المكان. وعلى مسافة قريبة منه كسيرُ القلبِ جابر متكئًا على الجدار ينظُر إلي بعينيه المحمرتين وبجواره إيثار مستلقٍ على مقاعد متصلة.

دستُ على الأوراق في طريقي إلى جابر عندما سمعتُ سليمًا يقول لي:

"أنا من فعل ذلك. أنا المجرم الذي يستحق العقاب".

كان وجههُ ما زال بين يديه حين إلتفتُ إليه وقُلت بصوتي المبحوح من كثرة النحيب:

"هذا قدر من عِند الله".

نهض من مكانه. ركل بقايا السجل ثم تقدم نحوي وأمسك بذراعي بقوة وأخذ يصرخ:

"هل تُريدين أن تعرفي لماذا حدث هذا. هل تريدين أن تفهمي لماذا سقط جنينان من بطنكٍ وأصيب ولدُك بمرض لا يشفى منه أبداً؟".

خِفت عليه في تلك اللحظة. فقد كان يرتجِف بشدة وعروقُ جبهته بارزة وعيناهُ كأنهما ستخرُجان من مكانيهما. لم أتفوه بشيء، بقيتُ ساكنة بلا حِراك. فقال:

"لقد قتلت أباكِ يا زاهدة. لم تكُن رصاصة طائشة، أنا من قتله. أنا من أصابَهُ بتلك الرصاصة في رأسه يوم احتفال القرية بإنتهاء الحرب لكي يكُفَّ عنا ونستطيع الزواج".

كِدتُ أختنق. أغمضتُ عيني متمنية أن أفتحهما لأجد الكابوس وقد زال. استمر بالصراخ:

"هذا ليس قدر الله، إنه انتقامهُ مني. لعنتُه التي لاتنتهي ولا تنفع معها توبة. هل فهمتِ الآن. هل فهمتِ؟ "

دفعني بقوة. فسقطتُ على ظهري وسط جمهرة من المراجعين والعاملين في المستشفى. حاولت النهوض لكن يدي التي إستندت عليها كانت على واحدة من الأوراق المبعثرة فانزلقت وإرتطم وجهي ببلاط الأرضية. لا أعرف إن كانت الطعنة التي تلقيتُها قبلها بفقداني أمل شفاء ابني وأصابتني في روحي قد قتلت فيّ الشعور أم أنها واحِدةُ غيري تلك التي عاودت النهوض كأنها تفيقُ من غيبوبة. شدني إيثار من ثوبي وهو يبكي بصراخ. بينما وقف جابر إلى جانبي وأمسك بيدي وهذا ما منحني القوة لأسير نحو سليم الذي كان قد عاد وجلس في مكانه. قلتُ له بهدوء قبل أن أغادر مع الولدين:

"ستكون معنا فقط خلال مسافة عودتنا الى بلادنا. لكن لا أريد ان أراك في المنزل أبداً ".

(جابر)

ذابـت ليان مع دمها في اليـوم الرابع والعشرين من حصولي عليه. وأصبحتُ أتقلب على جنبي مثل سمكة جف ماؤها أحاول الإمساك بلحظـة أخـرى حيـةٍ منهـا تعينني عـلى الصمـود في عالمـي الموحش. فلقـد خلـف إنسـحابها الموجع فراغـاً هائلاً في جـوفي ولم أعـد قادراً على مشـاركتها أحزانها وأفراحها ولا إستنشـاق عِطرها أو الإستمتاع بتمشـيط شـعرها وتحسس بشرتها ومشـاهدة زهور إبتسـاماتها تتفتح في المرايـا. مـا بقي منها مُجـردُ ذكريـاتٍ وصور جامـدة لا حس فيها. وشيءٌ يسـيرٌ جـداً من آثـار روحها التـي دخلتني وكانت سـتمحوها دمـاءٌ أخرى حاولتُ جهد إمكان جسـدي المنهك تأخير أخذها حتى آخـر لحظة ممكنة. ففي مرض كالثلاسـيميا يُمكن للمريض مشـاهدة الإنحـدار السريع في حالتـه الصحية بتوقفه عن التـزود بالدم وكيف تبدأ أعضاؤه الداخلية العطشى بالإحتضار قبل أن يسقيها بكيس من الـدم يُعيد لها حياتها المتعبة مجدداً. ذلك يشـبه ممارسـة لعبـة القفز من إرتفاع شـاهق والرجلان مربوطتان بحبل مطاطي يسحب الجسد إلى الأعـلى قبـل إرتطامه بالأرض بمسـافة قليلة. ثم تعاد القفـزة مرةً إثر أخرى لغاية أن يحدث الإرتطام في النهاية ويتحرر الحبلُ من ثقله.

مـارس وليـد أيضاً هذه اللعبة معي. فحين إسـتنفد أدوات تعذيبه لقلبي بذكريات ليان عن حبيبها، ذكرني بتحقق نبوءة الصوفي الطويل وفشـل محاولتي المكشـوفة قدرياً في تغيير مصيري، بخلاف أبي الذي إمتلك إرادة الخروج عن المسـار المحدد لزورقـه. عرفتُ إلى أين يريد الذهـاب بذلك، لكنني عجِزت عن الإبقاء عـلى حائِط الصد الأخير بينه وبين السر الدفين. فتمكن من نبش ذكريات مترسـبة من دماء أبي

التـي تبرع بها لي قبل سـنوات. قام بحـركات صبيانية ليغيظني، خرج مـن الغرفة وعاد إليهـا. تعلق بمروحة السـقف، دار معها وهو يغني ثـم فتح أبواب دولاب ثيابي وعاد ليصفقهـا. جلس على الأرض بين سريـري والجـدار، ضرب رجليه ببعضهما وأصـدر أصواتاً غريبة من حَنجرته ثُم قلد صوت أبي وهو ينظرُ إلي:

"عـشرُ سـنوات وهـم يخبرونني بأن زاهدة ليسـت مقـدرة لك وأن عليـك إيجـاد نصيبـك في مـكان آخر. عـشرُ سـنواتٍ وأنا أحـاول مد الجسـور لكـن عمي قطعهـا وأبقـاني في الضفة الأخرى حتى خشـيتُ إنقضـاء العمر دون نتيجة. ويوم أخذتُ بندقية أبي البرنو وذهبتُ دون علمـه إلى القرية، أردت وضعها بين يديـه وأخيِّرهُ بين إطلاق النار عليَّ أو الإنزيـاح عن طريقي. لكن إبليس وخشـيتي مـن إهانته لي جعلاني أتسـلل بـين المحتفلين بإنتهاء الحـرب واللثام على وجهـي مثل كثيرين هناك بسبب غبار الفرح. وقفتُ أتابع حلقة الرقصة الدائرة أمام منزله. وحين شـاهدتهُ يسـيرُ بقامته الطويلة عبر الباحة نحـو الباب الحديدي المفتـوح عـلى مصراعيه وبيده بندقيتـهُ. إبتعدتُ بضعة أمتارٍ وتسـنمت ظهر سـيارة حملٍ مركونة ومن هناك تحينـت الفرصة وقد أتت مسرعة. ففـي الوقت الـذي بدأ يطلق فيـه الرصاص ومعه القرويـون، أرخيتُ الزناد وفوهة البرنو موجهة نحو رأسه الشبحي وسط غبار الراقصين".

أحـدث وليد بفمه صوت إطلاق الرصاص موجهاً إصبع سـبابته نحوي. مشـى على أطرافه الأربعة، أمسـك حافة سريري بيديه ورفع رأسـه ليقابـل وجهـي ثـم واصل لعبتـه لكن مسـتخدماً صـوت أبي وملامحه:

"مـن اللحظة التي ضغط فيها إصبعي على الزِناد والندم يقِضُ عليّ مضجعي فلا هناء لي بنوم ولا طعام أو هواء أتنفسـه ولا شيء أقوم به

فيشـفع لي ويمحـو خطيئتي وجرمي. وبدلاً مـن أن أتلقى الجزاء على فعلتي في بدني أنزل الله العلة في رَحم زوجتي، رَحِم إبنة الرجل الذي قتلتـهُ لأضع فيه بذرتي. وشـهدت بعينيّ عقوبتـي الدنيوية، في ذريتي جنينانِ سقطا دماً والثالثُ ولِد ليعيش محكوماً عليه بنقص الدم مدى الحياة. الجزاء من جنس العمل. العينُ بالعين، الدمُ بالدم".

صار صوتُه كالنُباح:

"دم، دم، دم".

نهـض محـاولاً الوقـوف لكن رجلـه اليمنـى كانت ميتـة فارتد إلى جهـة الدولاب القريب من رأسي واسـتند عليه متفاديـاً الوقوع، وفي لمـح البصر عاد ذلك الهيكل العظمـي القديم وعلى عينيه تلك النظارة سـميكة العدسـتين وفي يديه عـكازاه يُصفِق بهـما ويضحك ضحكته الشريـرة متمادياً في لعبـة أخذي إلى أقـصى نقطة تحملٍ. حتى أسـتنفد قـواي تمامـاً وأخذ بصري بالإنطفـاء. ومن هناك، عندَ آخر شـبرٍ قبل الإرتطام أطلق سراحي، تركني أعود المسافة كلها لوحدي تجرني بقايا رغبةٍ وحلم جميل لم يكتملا.

****

إسـتيقظتُ عـلى صـوت ترتيـل أمي لآيـة الكرسي وبيدهـا مضخة الديسـفيرال التـي سـحبت إبرتهـا للتـو. أرخـت الشريط الأسـود ثم رفعـت السرنجـة ولفّتْ بهـا الأنبوب المطاطـي وألقت بهما مـع الإبرة في سـلة المهمـلات. قالـت بأنني بقيت نائـماً منذ عصر يـوم أمس وأنها مسـحت شـفتي المتقرحتين بالفازلين ووضعت لي كمادات طوال الليل لوقف الحمى. عيناها المحمرتان ووجود جدتي الهائمة في عوالمها وإيثار بملامحـه الباكيـة قريبين من سريـري ويراقبانني، أمـور أوحت لي دون

شرح كم كانت وشيكة تلك اللحظة المنتظرة، التي تأخرت كثيراً.

أرادت أمي معرفة إن كُنت أجد في نفسي القوة للذهاب إلى مصرف الدم وسحب كيس أو ربما إثنين بسبب وضعي المزري وأخذهما في مركز الثلاسيما أم ترافقني هي ويبقى إيثار لمراقبة جدتي.

"سأذهب بنفسي، ما الوقت الآن؟". قُلتُ بصعوبة بسبب آلام في حُنجرتي وفمي.

أجاب إيثار بأنها الثامِنة صباحاً وإنه لم يذهب إلى المدرسة بسبب بقائه سهراناً يجلب الماء البارد لأمي للكمادات ويستمع إلي وأنا أتحدث في نومي. فردت عليه:

"وكان هذا مقابل بقايا الطعام في قدور المطبخ !" .

نهضتُ مقاوماً الدوار ومطارق الوجع التي تضرب عظامي. وما أن إنتصبتُ على قدميّ حتى سألتني أمي:

" من هي ليان؟".

****

في العاشِرة من صباح يوم الثلاثاء. وقفتُ على رصيف الجهة المقابلة لمتجر ليان أنتظر وصولها وأنا بنسختي الأصلية غير المعدلة بطلاء الوجه والفم المحجوب وإطالة الكعب والشعر المقلوب والقميص مفتوح الأزرار. وفي جمجمتي معركة حاميةٌ بين جابر العاشق الحالم الذي أراد أن يجثو على ركبتيه أمامها متوسلاً عطفها وكرمها لتتبرع له بكيس آخر من الدم، ثم يحكي لها القصة كاملة لتعطف عليه وتفتح لهُ شرايين قلبها. وبين جابر المريض وغير القادر على بلوغ النهايات الذي أراد الإكتفاء بالنظر إليها كأية لوحة جميلة يستحيلُ إمتلاكها ثم

يمضي إلى مصيره. العاشق دفعني والمريض سحبني. خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، مشيتي في هذه الحياة التي أبقتني في مكان واحد ضمن الدائرة المرسومة لي.

توقفت سيارة حمراء فارهة أمام المتجر. ترجل نسيم من جهة السائق دار بِخفة وفتح لها الباب. أمسك يدها، قرب رأسه منها وقال لها شيئاً، ضحِكا. وسارا يقطعان الرصيف إلى المتجر وأنا خلفهما أمشي مثل عجوز طاعن والسيارات الغاضبة في الشارع تحاول إبعادي بزعيق منبهاتها. عبر زجاج الواجهة رأيتُها في الداخل بين الكثير من الورود الحمر تشع سعادةً وهي تمسك بيديه وتنظر في عينيه بِحُب. شعرت في تلك اللحظة بفرحةٍ تنمو في قلبي وغمامة الحزن السوداء فوقي تتبدد. فأمنيتها الأكبر تحققت وإجتمعت بمن تُحب مكافأة لها من الله مقابل الدماء التي تبرعت بها لي. كُنت أنا إذن سبباً لسعادتها. وأخيراً حقق الله أمنية مرت من خلالي أو تعلق شيءٌ منها بي .

مرت سنتان على ذلك ومازلت أذكر السكينة التي حلت علي والرضا الذي إمتلأتُ به وأنا أدخل مركز الثلاسيميا وبيدي كيسُ الدم المنتفخ. جلستُ على الكرسي الجلدي المائل برتقالي اللون. مسح الممرض البشوش مرفقي بالكحول. ثم نزع غطاء الإبرة وفي الوقت الذي كان سيغرزها في وريدي إنتقلت إلى عالمي السري لأعلن هناك عن ألمي واحتجاجي وأبكي فيه مثلما أريد.

إنتهى